وجيه بيضون

بين الصناديق

خمسون عاماً في رحاب المطابع ومع أهل الفكر



صدر عن دار مطابع ابن زيدون بدمشق

١٣٨٣ - ١٩٦٣

الطباعة
في
عالمها الواسع

•

تراجم ٢٤ علماً
من اهل الفكر

•

احمدشاكر الكرمي
احمد كرد علي
اديب التقي
امين ظاهر خير الله
جميل صليبا
خليل مردم
زكي المحاسني
شفيق جبري
شكيب ارسلان
ظافر القاسمي
عبد القادر المغربي
فخري البارودي
ماري عجمي
ماري زيادة
ماري ينى
محسن الامين
محمدعلي الحوماني
محمد كرد علي
معروف الارناؤوط
منير العجلاني
ميخاليل الله ويردي
نظير زيتون
وداد سكاكيني
يوسف العيسى

وجيه بيضون

بين الصناديق

خمسون عاماً في رحاب المطابع ومع أهل الفكر

صدر عن دار مطابع ابن زيدون بدمشق للطباعة والنشر

١٣٨٣ - ١٩٦٣

تصدير

ما كانت المقدّمات تُستهلُّ بها صدور المؤلفات مما يَصحّ فيها الغَناء أو تجوز المجاوزة ، زعماً بأنها ليست أكثر من تحصيل الحاصل بعد الذي يُعقبها من البحث المتّصل الكامل ، وانها لاتعدو التزيّد بمعنى النقص ، لا النقص يستوجب الزيادة .

فكما أن المسافر لا يتحرّك بخطاه الى حيث مبتغاه الا بعد اذ يستقدم الرأي المبين فيما هو مُقدم عليه بعد حين ، ليكون من سفره على بيّنة من أمره ، وكما أن الخطّيب لايقطع العزم على شريكته التي تخيّر الا بعد تروئة النظر وتقليب مختلف الفِكَر في جملة أوصافها وأحوالها تحرّياً عما عسى أن يكون غدُه ، مشرقاً مونقاً ، أو مُضباً قاتماً — لكذلك هي المقدّمات في خطر الشأن والاعتبار تُفتتح بها الكتب والأسفار ، إن لم تكُ كذلك في فنون القول اطلاقاً ، لامعدى عنها تصويراً لما وراءَها ، وتنويراً يستجلي ما أبهم سرّه واشتبه أمره ، وتهيئةً لتقبّل الأفكار على وجهها مأنوسة وضيئة بتعرفها على حقها منذ البديئة .

فهي وذاك شأنها لكأنها المفتاح لما استغلق ، والمشكاة تسطع سطوعها على المقاصد والمراشد ، فاذا

القارىء لايتعسّف طريقه الذي يسلك ، ولا تعتنفه الطريقة التي يطالع ، اذ يملك من أسباب المعرفة مسبقاً مثل ما يملكه الصديق من ذات صديقه ، هدياً وتبصراً فيما يجري به التفكير بعيداً أو قريباً ، ما تفوته النظرة الواعية اليقظة في كلا الحالين .

واني وأنا أضع هذا التصدير لا أجد بدّاً من التحدث عن حافزي الى تصنيف هذا الكتاب وما صرفني اليه من أسباب ، ثم عن غايتي في صورتها العامة من معانيها التي سقتُها متفرقة الخطوط والألوان .

أما الحافز ، وهو جلاء الطباعة في دنياها الواسعة، فقد جهدت في اظهارها على حقها من خطرها ، وتبرئتها مما يُزنّ بها من ريبة ويُقْرَن من سُبّة ، ثم التعليل لأسباب تطوّرها قوية الأثر ، جليلة الخطر ، في بعض الاقطار العربية دون بعضها الآخر ، والبحث في مشكلات الحرف العربي بما ينبغي تخوّله تيسيراً للطباعة والمطالعة على سواء . وما أنا والله بالمُدِلّ أو المتأبّه حين أزعم بأنني ملكت الحديث في هذا السبيل بعد الذي سلختُه في رحاب المطابع من العمر الطويل، اذ ساقني اليها قَدَري وأنا في مطلع عمري ، حتى لكأنني منها الوليد من أمه ، نشأت وترعرعت في أحضانها، فخبرتها في شتى صورها وألوانها ، وسايرتها وسايرتني في تطور حياتها وحياتي في تطورها ، الى أن فارقت الستين ليومي ، وما أزال قيدها ما أفارقها ، ثم ما يزال ما بيننا على عهده الوثيق من وفاق واتفاق لا انقطاع فيه ولا افتراق .

ذاك هو حافزي ، وما كنتُ أملك له ردّاً أو أجد عنه حولاً كأنه الواجب الحتم لا تحلّل منه ولا اغتماض فيه • وأما الغاية فهي أن أتدبّر الحياة الفكرية التي عشتها أجلوها من خلال الصلات بيني وبين أهل الفكر ممّن كانوا يختلفون الى المطابع على اختلافهم في الخلائق والمنازع ، فيتبدّون فيها بخصائصهم المجرّدة غيرَهم في غيرها ، ويصدرون بأحاديثهم على سجيّتهم ، وبعنعناتهم كما تعنُّ في حركاتهم وأخبارهم ومختلف أطوارهم ، ثم بمعاملاتهم غمطاً واحتجاناً أو وفاءً واحساناً ـ عمّا يصوّب الرأي قاطع الحكم في حقيقتهم من جوهر شخصياتهم ، وشخصياتهم في أثير عبقرياتهم •

وما أنا بمنكر بعد الذي قدمت أن القول في الطباعة متّسع المجال، منفسح الرحاب، يستتبع بعضه بعضاً الى ما ينتظم المجلدات ، ولكنني لم أعرض الا لما هو قريب بالمعالجة مما تسيغه الافهام العامة ، وما يربط بينه وبين التراجم وهي الأصل فيما أردت فيه تأصيل الرأي •

وكذلك فانني لأعترف بأن ثمة كثيرين ممن اتصلتُ بهم ، ولم أعرض لذكرهم ، وما ذلك والله عن تنقصٍ من فضلهم وقدرهم أو تنكّر لمآثرهم وزرايةٍ على آثارهم ، وانما نظرت فلم أجد بين يديّ ما يرضي تمام القول في حقّهم عليّ في تمامه ، ولا ما يعين على خوض عبابهم وأنا الواقف عند الساحل منهم ، فأرجأت الحديث الى حينه وموضعه • وعساي أوفّي واجبهم

عليَّ في يوم من الأيام بما يتكافأ وعذري اليهم في يومي هذا •

وبعدُ ، فقد تخيَّرت لكتابي عنوان «بين الصناديق» لأن الصناديق في المطابع بما تحمل من الحروف وما اليها هي الأس والمدار في أعمال الطباعة ، ثم لانها هي التي تُنظم منها الكلمات فالأسطر فالصحائف ، لتسطع بالمعاني وضيئة كأنها الألهام يتنزَّل على الأفهام ، وكالمعجزة تسجع بأصواتها المدوية ساكتة ، وتبدع ابداعها ساكنة ، مقدمةً من الموائد ما يحفل بالقديم والجديد من الفوائد ، فأحرِ بها وتلك خاصَّتها أن تمثّل المطبعة في صورتها ، ثم أحرِ بها أن تستوي عنواناً لمؤلف يدور فيه القول على « الحرف » في فن عبقريته ، والعبقرية في فن أهله •

هذا وقد التزمتُ في نَسَق التراجم أن أشرع بالوصف الفيزيوجي بدءاً لتقريب صورة المتَرْجَم من القارىء ، ثم أعقّب بالحديث عن طبيعته في نفسيتها لأوثّق ما بين الظاهر والباطن ، ثم أعرض لشخصيته الأدبية لأحسر عن الخصائص العبقرية ، ثم استتلي بالحديث عن الصحبة بيني وبينه ، لأمكّن الخطوط والألوان من صورته ، ومن ثمَّ أختم بالحكم له أو عليه خالصاً من خلاصته في خاصَّته • واذا أنا أغدقت ثناء أو أغرقت نقداً ، فما ذلك لعمري الا عن حافز من حق الوفاء أو الوفاء للحقيقة • ثم اذا أنا عرضت لنمطيَّة الخطوط في كتابات المترجمين من حيث استواؤها أو

تعرُّجها ، أناقتُها أو سقمها ، مشقُّها أو القرمطة فيها ، ومن حيث نوعية القرطاس طويلاً أو قصيراً أو ضيقاً ، وما الى ذلك مما يتعلق بفن « الغراموفولوجية » ، فلأن مثل هذا العَرض يعدُّ من الطريف في بابه فضلاً عمَّا ينم عنه بأسبابه مما يستكنّ وراءه من مغيَّبات الحقائق باعتبار أن المرء بخطّه في كتابته مثلُه في حقيقته من قلبه ولسانه ، يُغْني في تجليته عن الكثير في بحث شخصيته ، أو يكون في الأقل عوناً أكبر عون على ذلك .

والله أسأل أن يكون في عملي ما يخدم الأدب في بعض وجوهه ، وما يُسنّي للفكر الجولات العالية ترتجع بالمتعة والفائدة ، ثم ما يبعث على قَدْر جماعة الحرف من مفكرين وطبَّاعين ، وهم الذين يدأبون أبداً في تحويل سواد المداد الى مثل النور من التبصرة والسَّداد ، مستقطرين فيه من دمهم وعصبهم مثل ما تبعث السماء من قطرها تحيي به مَوات الأرض ، ممثّلين ببذلهم السخي وتفديتهم البالغة دور النحل ينضحون للآخرين من عرق جهادهم الجاهد مثل الشهد ، وينفحونهم بالعمر كأنه الدهر الذي لايموت من فنّه وظرفه ، بينا هم لايصيبون الا الحياة يفضُلُها الموت ، ثم الموتَ يصيبهم متخطّفاً على عجل دون استمهالٍ في الأجل .

وجيه بيضون

في
رحاب
المطابع

المهنة في أثرها

لبثت المهنة عهوداً بعيدة متطاولة في تاريخ الانسان مثالاً للضّعة والامتهان ، يدور بها التهزّؤ حيثما كان . وكأن لمتهنها من معاني لفظها أكبر نصيب ، اذ كان يعيش مهيناً تتفادى منه النواظر ، وله من صورته في الافكار ما يمثله في القيمة كالدينـار الممسوح لاقيمـة له ، وفي الحساب صفراً على اليسار لا شأن له ولا اعتبار ، وفي المرتبة أشبه بالعجماوات بين المخلوقات ، وفي الدمامـة وجه الفقر الكالح بقبحه الفاضح ، أو وجه المرض ــ ان لم يكن الموت ــ بتهاويله وعقابيله .

كذلك كانت المهنة وكان صاحبها ، وما يزال أثر هذا الهون لعهدنا ، اذ كانت المعاني الغالبة فيهما عنـد أغلب الناس هي المعـاني الكابية الموحشة ، لاتدور على غير خمول الذكر وضآلة القدر ، ولا تمثّل من الصور الا القبح في أفظع وأبشع صوره .

أين هذا كله من حقيقة المهنة في منيـع أثرها ، ورفيع خطرها ، انْ في حياة الافراد ، أو حياة الجماعات ، أو الحياة عامة في أعم معانيها ؟ .

فهي في التأثير على صاحبها كأنما تصبّه صبّاً في قالبها ، ماتدع منه خلّة الا تخلّلتها ، ولا ناحية من كيانه الا عملت فيها تغييراً وتحويراً ، الى أن يخرج على مثالها في مجمل أحواله وأحوالها . ولو شاء مـن بعدُ أن يستبدل باسمه ما يوافق فيه الاسم المسمّى ، لما وجد مـن عنوانها بديلاً ، وهو الذي يستقلّ أكبر نصيب من نفسيته وعقليتـه ، وينزل منه منزلة السيف من غمده ، والمفصل في زنده .

والمرء من مهنته لكأنه الشجرة بما يضيفون اليها من غيرها ، فاذا هي في تغاير طعمها لكأنما نقلوا الى روحها روحاً جديدة ، فمن لـم يدر سرّها حسبها خلقة الطبيعة في سرّها ، ولم يتخالجه أي ظن في

أنها كانت شيئاً ثم آلت شيئاً آخر . ولكذلك المرء تكون له أخلاقه وطباعه ومنازعه من نشأته وتربيته ، ثم يتصل بالمهنة التي تهيأ لها أو هيأتها له الحياة بأسبابها ، فاذا هو قد اختلف بما تبلّد عليه من العادات والأساليب الجديدة التي طبعته مهنته عليها ، ولا حيلة في مقاومتها ، لأنها آلت فيه طبيعة ثانية ، واندمج ما بينهما على مثل ما بين روحه وجسمه .

وهل أدلّ على تأثير المهنة وعمقها العميق البعيد في أغوار النفس، من حال هؤلاء الذين يقطعون منها الاسباب، ويتناءى بهم عنها الغياب ، وعلى ذلك يلبثون من ذكراها والحنين اليها كأنما تشدّهم اليها أمراس من حديد ، أو ثمة مثل قوة المغنطيس تفتأ تجتذبهم وتعطفهم كالأم من الوليد ، والوطن من ابنه البرّ اِثر الفراق المديد . ثم تلبث ترجمانهم في الكثير من منازع تفكيرهم وأهوائهم ومختلف أطوارهم .

ما كان للقصّاب لولا طول عهده بالقصم والنحر أن يتحجّر قلبه كالصخر ، وهو لولا عادته ومراسه في كشط الجلد وانبجاس الدم وترششه بين يديه قيد بصره ، ما هانت عنده جرائم القتل ولا استمالته الغلظة فوق ما يستميله الرفق ، وعلى نقيضه الطبيب الآسي فهو في منزع الرحمة لكالغصن الغضّ تميل به أقل نسمة ، وله من رقة الشمائل وعذوبتها مثل الماء السائغ اللذّ يرده الشارب على ظمأ وحرقة، فما يعرف الا التجاوب مع الآلام ، والتعاطف مع الأنام ، وايثار السلام دون الخصام . ومهما يتوردّه مما يحيف به وينحرف ، فان الخلائق الخيِّرة تبقى هي الأقوى والأظهر في السيطرة ، وحتى حين يتكلف الجفوة أو القسوة فما يزيد على أن يحكي سحابة الصيف لا تلوح ظاهرة حتى تنقشع مختفية .

وما قولك بالمعلم يقضي سحابة عمره بين الصبيان ، فتقتضيه حرفته أن يتنزّل الى مستواهم ، ثم اذا هو مع الأيام لا يرتفع بعقله عن عقولهم .. وما قولك كذلك برجل السياسة ورجل الحرب ، يعيش الأول بين الدعايات الماكرة ، ووسائل الخداع والمناكرة ، وتمحّل الحيل ، ويعيش الآخر بين المعارك المستعرة ، والأدوات الجهنمية تنطف بالدماء ، ومع الذّود والصيال ، والأمر والنهي ، فاذا فيه روح الحرب ونشوة الظفر تبدوان منه في كل كلمة وكل حركة ، واذا

برفيقه السياسي كالذئب في ثوب الحمَل ، لايصدر في ظاهره عما في باطنه ، ولا يعرف له وجه" الا أنه لا وجه له ؟

أما إن للمهنــة كما قدمنا أثرها الكبير في حيــاة الافراد حتى لينطبع هذا الأثر بحكم العادة والاستمرار في الاخلاق والطباع وفي العقول والابدان على سواء . ومن ثمّ كانت للانسان بمثابة ولادة ثانية تحمل الى وجوده من فطرته وجوداً آخر من تطوُّر ذاته ، فتزيده من ههنا بما تتنقصه من هناك ، ليستوي كائناً أثّرت فيه عوامل متعدّدة من الوراثة والتربية والثقافة ، واليها عامل المهنة الذي لايستهان به، وكثيراً ما يكون الأظهر والأغلب من غيره .

على أن من شأن المهنة أنها لاتقف في أثرها عند الأفراد ، وانمــا تتجاوز الى الجماعات ، وذاك برهان آخر على قوتها وسلطانها ، ودليل سعة شمولها واستغراقها ، ثـم اتصالها بالحياة الانسانية الى أبعــد الحدود .

ولطالما أدّت المهن واليها مختلف الصناعات ، دورها في اقتصاد البــلاد وعمرانها وحياتهــا الاجتماعية والسياسية ، بل وقوانينهــا ونظمها . . . فكانت مرآة أمتها في حقيقة رقيها أو انحطاطها ، بأسها أو ضعفها . ولا أدلّ على ذلك من انك لاتجد أمة نشطت فيها حركة العمل والانتاج ، وتعاظمت فيها المواهب الى جانب المكاسب، الا كانت مما يشار اليها بالبنان في الغلبة وبسطة السلطان واستبحارالعمران .

ولنضف الى ما تقدّم اننا اذا تدبّرنا المهنة بمفهومها الشامل على انها العمــل اليومي الدائب بما يفرضه الواجب ، مهما تختلف فيــه المكاسب والمراتب ، تجلّت لنا معنى من الحياة هــو أخصّ وأوسع معانيها ، ثم حياة بذاتها لها من خطرها وقدرها معنى القدر في ذات ارادته .

فاذا ما عرضت لهذه الحقيقة شبهة فمردها الى كلّ علة ، ما خلا العلة التي ينعقد فيها الرأي على ضعف المؤثرات في المهن وما تنطوي عليه من أفانين الوظائف والصناعات ، فنحن ههنا أمام حقيقة راهنة هي من المقررات الثابتة التي تمتنع على النقاش ، ولا سبيل فيها الى أيّ تأويل وانتقاض .

المهنة التي أحببتها

ما أحقني أن أشكر للقدر ما اتخذت عندي يده من سوابغ الآلاء والنعم ، ومـا اختصني من ايثاره بمآثر لا أنساها على الزمن ، فلقد حوّلني عن معاهد العلم على عجَل ، وما جاوزت من العمر ربيعي الأول ، فحوّلني بذلك عن حياة المواكلة التي كانت تترصّدني في كل سبيل ، ولا مساغ الى غيرها لمثلي في مثل حالي ، ثـم زاد فربط بيني وبين المهنة التي وجدتُ فيها ووجَدَت فيَّ مثل ما يكون بين الحبِّ المدنف وحبيبته الأثيرة ، ثم مدَّ كذلك في نعماه مدَّ المحسن الكريم في جوده العميم يتجاوز فيه كل حدّ ، فاجتذبني الى مهنتي منذ نعومة الأظفار ولما استخلف بعدُ العاشرة الا منذ قليل ، فاذا أنا في أحضان «المطبعة» كأنني ابنها من ذات بطنها ، وُلدت في مهدها لأرتضع أفاويقها ، وأشبَّ بين مختلف آلاتها وصناديقها ، وأكداس أحبارها وأوراقها ، ما تفارقني ولا أفارقها الى أن يقضي الله بقضائه .

وهل رأيتَ الى العاشق برَّح به هواه ، فارتبقه أسيراً مسحوراً على جميع قواه ، ثم أنزل به من رسيس حمّاه ما جعله لاينام ولايفيق الا على حبه في شتى تهاويله ورُؤاه ؟.. أجل أرأيتَ الى مثل هذا العاشق تعبَّدهُ وجدُه الى أن آل عنده عبادة ، وتَخالجه من جنونه ما لا ينفك يطلب فيه الزيادة ، وما ان تبدَّت لهُ أشباح شقوته مرةً الا تنوَّر فيها بعين غروره أطياف سعادته ؟.. لكذلك كنتُ والله مـن مهنتي ، أحببتُها الحبَّ الذي ليس وراءَه غاية ، وبوّأتُهـا من قلبي أرفع منزلة ، وقد استبدَّت بي استبدادها حتى ما أفكّر ولا أحـلم في شيء الا كانت هي مناط كل فكرة وحلم .

ولله مثل هذا الحبّ كيف يحيل العـذاب عذباً ، ويهوّن يسيراً ما كان صعباً ، وما ينفكّ يستوري العزيمة تلهّباً ، ليكون أشبه بالمعجزة

في مآتيها لايتأتى اليها اي تأويل لانها فوق كل تأويل . فلقد أجدى عليَّ والله أيَّما جداء ، وردَّ عني الكثير من البلاء فيما كان يتورَّدني من العذاب في اتقان ما انا في سبيله من مهنتي، وبخاصة من العمال، وكانوا عصبة ، يتآمرون على الحق ليحتجنوه خالصا لهم لاحقَّ بمثله لغيرهم ، فيردُّون عنهُ كلَّ طارىء جديد عليهم ، بما يركبونهُ من مقذع القهر والنَّهر ، ومن اللؤم والكيد والنَّكد ، الى أن يولّي عنهم الأدبار مستكرهاً آيساً ، أو يخضع ملايناً مطاولاً بقوة من روح فقره، أو روح من قوة ارادته وطول صبره .

وماذا لعمرك يملك هذا الضعيف العاجز ، لاحول له ولا طول ، وكأنه الحَمَل الوديع بين ذئاب متذائبة عاوية ، ماذا يملك مما يحمي جانبه ويحقّق مطالبه ، فيردَّ ما يتورَّده من قاسي الآلام ، ويقفز به الخطوة تلو الخطوة الى الأمام ، الى أن تكتب له السلامة في الخدمة ، ويتيسَّر ما هو بشأنه من حذق فنّه ؟.. أما انه لايعلم مقدار العَنت في مثل هذا الموقف الا من بلاه وعاناه على صغَر ، في عهد لم يكن للعامل الناشىء فيه أيّ قانون يحميه ، ولا أيّ مبدأ بعينه يجري عليه . كذلك كانت بداءتي ، ولم يجد عليَّ مثل سلاح واحد شحذته ماضياً قاطعاً ، وكنتُ أجرّده كلما تخالجني الهم ، أو الم بي طائف العجز .. ذلك هو « حبّ التفوّق » ، وقد انطوت عليه نفسي منذ انبسط جناحي في الحياة ، وجرى في عروقي مع دمي ، واستوى رائدي في كل غاية ، أستعديه مُقيلا في العثار ، ومهوّناً في الإعسار، وحائلا دون اليأس ، وحافزاً الى رغائب النفس ، الى أن فتحتُ العين بعد حين ، فاذا أنا في موقف الندّ للند من الزملاء الرفاق ان لم أكن قد شأوتهم بعيداً بعيداً في شوط السباق .

بيد أن هذا الهوى الجامح في التفوّق ، وهو قوة في الحسّ ، لابدَّ له من هوىً آخر يكون قوة في الفكر والنفس معاً ، ليصدر عن القوتين ما يكفل السير مأموناً ، مستقيماً ، نحو ذروة الفلاح ، وما يعين على السبق في مضمار النجاح ، وبذلك تُختصر الطريق المتطاولة الى الحياة الحرّة المستقلة . اريد ان اقول لابدَّ له من العلم الى جانب العمل ، والاّ اخفق المسعى واظلم الأمل . من اجل هذا رحتُ اضيف الى المهنة التي امارسها ما يضفي عليها نوراً من العلم والأدب، فدرستُ ما وسعني من علوم اللغة واستبطنت ما استطعت من افانين المعرفة ؛

كما أقبلتُ على الفرنسيَّة أحذقها في آدابها وأسرارها ، فكان لي من ذلك أني تقدمت حيثما تأخَّر لداتي وأقراني ، والتمع نجمي كاسفاً نجومهم ، فاذا هم يتراجعون ليرجعوا اليَّ في شتى شؤونهم ، وكنت الى قريب لا أصدر الا عن رأيهم في كل شيء .

والله الله في فضل المطبعة لمن لم يفته فضلها ، فعرف كيف يتخذ منها مدرسة . وانها بحقِّها لمدرسة أيَّما مدرسة ما دامت تتغـذَّى بموائدها الأفكار ، وتتروَّى من سلسالها الافئدة ، وتنعم بمعانيهـا الأرواح . ففي كل يوم جديد كتاب من فوائد جديدة ، ومجلس" لعالم أو أديب أو مفكِّر يعزّ منه المثال ويعظم منه المنال ، وصلات" مع خلاصة الناس تمتد على ما يرتجع بالخالص المفيد ، وساعات" من الزمن خالدة بما يتخلَّلها من روح المعرفة والمطالعة والمراجعة . بل ان في المطبعة ما ليس في المدرسة ، فأين أين المدارس ، وهي متباينة الصبغات ، متنوعة الدرجات ، من المطبعة وقد حوت كل صبغة وكلَّ درجة ، ثم أين أين المدارس وهي وقف على اجتياز الامتحان ونيل الشهادة ، من المطبعة وامتحانها ليس له نهاية ، وشهادتها هي الدأب في التحصيل الى ما لا يقف عند غاية ؟ . . وفي المدرسة يقرؤ الكتاب بمعانيه اجمالاً ، أما في المطبعة فيقرؤ حرفاً حرفاً في أصله تنضيداً ، ثم يقرؤ مـع صاحبه كلمة كلمة مراجعة ، ثم يقرؤ بحذافيره تصحيحا وتصويباً ، ثم يقرؤ على أنه كتاب انتهى طبعاً ، فيجوزه الطبَّاع كرَّات مكرورة لينطبع في ذهنه انطباع النقش في الحجر من قبـل أن ينطبع على القرطاس ويتعرَّفه الناس . ولكن الغريب الغريب بعد هذا أن معظم الطباعين يشبهون العيس يقتلها الظمأ ، والماء فوق ظهورها محمول ، وليس الا القليل القليل من يؤتى الحظوة في الارتـواء . وأحمد الله أني كنت أحد هؤلاء ، اذ كانت لي المطبعة خير مدرسة عوَّضت عليَّ ما فاتني من الخير في معاهد الدراسة والتحصيل ، بل كانت الربيع الربيغ نعمت بخصبه الوفير . ثم كانت لي من بعدُ ، دربة الى الحياة الحرَّة ، والرزق الكريم ، والأحدوثة الطيبة .

لقـد وافقت مهنتي هـوى نفسي حتى لو انني اخترت الله في مرضاته لما اخترت لي غيرها عملا أصل به حياتي ، أو لو استطلعت كوكب نجمي في حظي لما وقع الطالع الا عليها مدار حظوة ونعيم وسعد مقيم ، أو لو تحالفت الحياة والظروف في المشيئة على أن تبدع كـل منهما صورة ثم وردت الصورتان واحدة في خطوطها والوانها ، لكنت ومهنتي

تلك الصورة التي استبطنت أختها كأنها ابداع في ابداع من يد واحدة .. بل مالي لا أزعم بأنه لو ساغ للمرء أن يخلق ومهنته كالتوأم لكنت وكانت المطبعة ذاك التوأم الذي لايكون .

ولقد أغنتني المطبعة فقيراً ، وأعلتني مغموراً ، ولوّتبي عن البطالة ومفاسدها ، واستطردت بي الى مايطرد القنوط والسآمة ، ولقّتني من الخير خير مايلقى ، وخلقت لي من عقلها ما بصّرني بالكثير من الفرص فانتهزتها رجعاً موفور العائدة ، واستنفدت من وسعي وعملي ، ولكنها لم تخطىء ظني وأزكت منبت آمالي ...

أفلا يحق علي بعد هذا جميعاً أن أشكر للقدر صنيعه عندي ، وأن أنظر الى مهنتي نظرة الحب ، لاهوىً وميلاً فحسب ، بل الحب الذي يبلغ التدله والهيام ، فليس من بعده ما ينأى عنه ؟



صدر من تاريخ الطباعة

ليس يُغني في الرأي أن يكون صواباً وكفى ، بل لابـدّ فيه من تبيان مبلغ هذا الصواب من حيث امتداده واتصاله بسواه ، ومـن حيث فضله في عموميته وجدواه ، ثم مـن حيث امتيازه في خاصّ معنـاه .

ونحن حين نزعم بأن الطباعة من الصناعات أو الفنون الراقية ، وهي ذات شأن في تقدُّم الفكر ، ونمطيّةٌ من الابداع كأنهـا السحر ومن حقها الفخر ، لانخرج في هذا الوصف عن الصواب ، ولكننا في الحق لانستغرق في هذا الصواب الى كنهه ، ولا نُبين عن الفضل في أصله ، وبعبارة أجلى لانزنه بميزانٍ يعلم منه فرق ما بينه وبين غيره.

لا جـرم أن الطباعة لايُنكَر فيهـا الفضل ، ولكننا لو تدبَّرناها بحقها في لبابها ، لوجدنا أنها أسمى وأجلّ المخترعات التي عرفتهـا الانسانية اطلاقاً ، اذ كانت نواةً لكل ما استجدَّ من بعدُ ، ونقطة تحوُّل انتقلت بها الحياة من مثل الليل المغدودق الى الفجر الباسم المشرق ، فلولاها لما ذاعت المعرفة ، ولولا المعرفة لما شاعت الحرية ، ولولا الحرية لما أحسَّ الفرد بوجوده وأطاح بقيوده وانتهى الى ما انتهى من قصوى حـدوده . فهي بهـذا أمّ المخترعات جميعاً ، وسبب الحضارة في استبحارها ، ومرجع يقظة البشرية في تحرُّرها .

وهـذا الامتياز نأخذه بهذا المعنى البعيد المديد غيره حـين نقف منه عند الظاهر القريب لايدلنا على حقيقته في أدلّ معانيها .

واذا تقصَّينا الطباعة في منجم ظهورها رأينا بين المؤرخين مـن يرجع بها الى الصين ، وآيتهم في ذلك أن الصينيين اسبق الأمم في صناعة الوراقة . وانه لدليل متهافت يكذب بعضه بعضاً ، اذ ليس شرطاً أن يرافق وجود الورق وجود الطباعة ، فان أوروبة وكثيراً من

بلدان المشرق عرفت الورق واصطنعته في كثير من حواجّها قبل أن تعرف المطبعة بأزمان طويلة .

ومهما يكن فمن الثابت الراهن أن الطباعة لم ترَ النور ، ولم يتنوّرها الناس بمعناها الحق الا في أواسط القرن الخامس عشر للميلاد حيث برز «جان كوتنبرغ» يحمل فكرتها البدائية ، ثم نسبت اليه اطلاقاً ، وقرنت باسمه اعتلاقاً ، وغاية فضله فيها سنوح الفكرة وابتدارها بالتجربة لا أكثر ولا أقل .

وما أكثر مايُطمس على الحقيقة في هذا المعنى حيث لا يوزّع الفضل في الاختراع على ذويه بما تقتضيه النَّصفة والعدالة ، فاذا بأول من تواتيه الفكرة ينال من الخلود والشهرة ما لا ينال الا اليسير منه أولئك الذين يوفون بالفكرة على تمامها من غايتها ، بل غاية ما تستوي في ابداعها. وقد يكون من بذل هؤلاء وتضحيتهم ما لايكون عند ذاك الا القليل القليل . وهكذا نجد التأريخ يضيف الى جملة أغاليطه اغفال أسماء كثيرين ممن ربحوا معارك النصر ، وباركهم المجد والفخر ، ولكنهم رُدّوا عن حقهم مزويين بعيدين كأنه لايعرفهم ليرتدّ على غيرهم كاملاً في ظاهره ، باطلاً من ذي نفسه في أكثره .

فليس من الحق أن نجعل من كوتنبرغ فارس الحلبة وعذيقها المرجَّب ، في مضمار اختراع الطباعة وهو الذي لم يبتدرها الا بدائيةً حفراً على الخشب ككثيرين من قبله حاولوا مثل عمله ، وكانوا يفتنون في حفر اللوحات لطبع ورق اللعب والرسوم المقدسة ، ولقد حظي القرن الرابع عشر من مآتيهم بالشيء الوفير ، أي قبل غوتنبرغ بعدة سنين ، واذا كانت محاولته نجحت بعض النجاح في استبدال اللوحة بأحرف متحركة ، فينبغي ألا ينسينا هذا النجاح ما كان فيه من جهد كبير لكل من شريكيه جان فوست وبطرس شويفر ، وهما اللذان نشطا في تحويل الحروف الخشبية الهشّة الخوارة ، الى حروف صلبة جاسية من الرصاص تصب في قوالب من النحاس ، ثم ما أعقب ذلك من محاولات تكاد لاتكون لها نهاية الى أن أوفت الطباعة على الغاية كما هي في صورتها الحاضرة لعهدنا الحاضر .

كان منشأ ظهور الطباعة في أواسط القرن الخامس عشر ، بيد انه لم يكد ينطوي عهده ويليه ما بعده حتى كانت المطابع قد انفرعت وشاعت في أرجاء الغرب جميعا . ومن المؤلم ان الشرق العربي لم

يتأدّ له أن يعرف المطبعة الا متأخراً ، أي بعد قرنين تقريباً من ظهورها. وهذا ما يوكّد الرأي عند الكثيرين بأن الكتاب العربي لم يعرف سبيله الى المطبعة الا بعد اذ أخذت هي سبيلها الى البلدان العربية . بيد أن ثمة ما ينفي مثل هذا الرأي أو الحكم ، لأن عشرات من المؤلفات بلغة الضاد ولدتها المطابع الأجنبية . فقد طبعت في مدينة « فانو » الايطالية في عامي ١٥١٤ و ١٥١٦ بعض المؤلفات العربية ، كما طبع غيرها في مطابع ايطالية ، ومنها « جغرافية الادريسي » وجغرافية « الصالحي » و « القانون » و « الشفاء » و « خلاصته » المسماة ب «النجاة» ، وكلها لابن سينا ، وطبع كذلك شطر من الكتب في مدينة « لايد » ، وفي باريس ولندن وليبزيغ ما بين عام ١٥٩٥ و١٧٥٥!

وثمة حقيقة قد تخفى على الكثيرين عند المفاضلة بين الاقطار العربية ، فيرفعون منها ويخفضون على درجات ، لا لعلة غير السبق أو التأخر في مضمار الطباعة ، دون تدبّر للعوامل التي تسببت لهذا التأخر أو ذاك السبق ، وليس لها صلة أيّ صلة بالاستعداد الفطري والجهد الفرديّ .

والمثال سورية ... يُحكم عليها بالتخلف عن الركب ، والقعود عن توقل معارج الرقي ، والتبلد على الجهل والعجز ، لانها جاءت الأخيرة بعد مصر ولبنان تزوّداً بالمطابع لنشر ألوية الثقافة والعرفان. وانه لحكم جائر ان هو لم يؤخذ بأسبابه ، ووُقف عند الظاهر من صوابه . والاّ فأنّى لمصر وهي كغيرها من بلدان الشرق أن تنعم قبلها بالطباعة لولا الحملة الفرنسية عليها في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم تخلّصها من حكم العثمانيين بعد قليل قبل غيرها . وهل كان للبنان أيضاً أن يصل ما بينه وبين الطباعة لولا خاصته من امتيازه السياسي وموقعه الجغرافي ولولا الارساليات الدينية والمناصرات الاجنبية ؟

أما سورية فأنّى لها المجاراة أو المباراة وكل ما حولها الِبٌ عليها يفلّ من غرب همّتها ، ويحول دون بغيتها وهي لم تجد من الحكومات المتعاقبة عليها الا المقاومة لكل نشاط ، والحؤول دون العلم والتعلّم ، وارتباق الخطى عن كل تقدّم ؟.. أنّى لها ان تستورد المطابع والحكومة العثمانية الحاكمة كانت ترى اليها عدواً يطيح بنفوذها ويقلّص ظلال حكمها ، ويحوّل البلاد ناراً من الثورة على بغيها ، وكذلك كان شأن الفرنسيين أيام الانتداب ، دأبهم الكيد والعذاب ، والتنكيد والتشريد،

والتضييق والتشديد ، يسيرون على ذلك في سورية ، وعلى النقيض في لبنان الذي آثروه بكل نعمة ، وخصّوه بكل مكرمة ، وكانوا لايدّخرون وسعاً في التوسيع عليه ، واستياق المغانم اليه .

ألم يكن لبنان في حكم بني عثمان لايمنعه مانع من استيراد المطابع ، وفي عهد الفرنسيين ألم يكن يحظى بالقسم الأوفى من مطبوعات المصالح المشتركة ، ويسمح له باصدار الصحف على ما يشاء ، بينا لم يكن لسورية أي سبيل الى مطبعة الا بترخيص من « الباب العالي » في الآستانة ، ثم لاسبيل الى هذا الترخيص الا بعد بذل النفس والنفيس وكلّ غال ورخيص ، وفي عهد الانتداب الشتيم كانت تلقى من كبت الحرية وخنق الحياة الفكرية والاقتصادية ، ما جعل مطابعها تنكمش على نفسها ، وتنكفىء متراجعة في نشاطها ، اذ لا تجد حيثما دارت ولو بصيص أمل في يأسها حتى لكأنها من دنياها في دوّامة ضيّقة يتلذّعها الحرمان ويلتزمها الكساد ، وتنذرها حياتها العجفاء سوءَ المصير .

ما كان لسورية وأهلها مضرب المثل في النشاط والطموح أن تتخلّف عن أي مأثرة أو تقنع من دهرها بغير النصيب الاعلى ، لولا ما كان يربقها ويسدّ عليها طريقها . وهل أدلّ على ذلك من أنها لم تكد تفوز بجلاء الاجنبي وانقشاع ليله المسترخي واشراق فجر الحياة الحرّة ، حتى شمّر أهلها عن سواعد عزائمهم ، وأقبلوا على كل عمل ينتهضهم من عثارهم كيما يعوّضوا ما فات من تقدّمهم ، فاذا هم في أقلّ من القليل ، وفي مثل المعجزة ، يحقّقون ما لا سبيل اليه الا في العهد الطويل ، وفي جملة ذلك المطابع ، وهي التي توالدت متكاثرة حتى بلغت فوق المئة عدّاً في دمشق وحدها(١) ، ونجحت نجاحها الباهر حتى استجمعت سائر فنونها ، وهي على ذلك ماتنفك في طلب المزيد ، والجري في السبق الى أبعد الغايات .

أما ان دعوى المفاضلة لمجرّد تقدم الطباعة أو تأخرها ، لمن الدعاوى التي لا يقرها العقل ولا المنطق ، لان التماثل فيها مفقود ، وهي لاتقوم على الأسّ الوطيد . ان تقدم بعض الاقطار في الشرق العربي دون غيرها لايعني ان ثمة اختلافا في الاستعداد والجدارة ، أو ميزةً في ناحية لا يكافئها عدلها في ناحية أخرى ، وانما المعنى

(١) كان عدد المطابع في سورية جميعها الى عام ١٩٥٢ لايتجاوز خمسا وأربعين مطبعة .

الذي لامعنى سواه هو الاختلاف أو الامتياز في الحياة وشروطها ، سواء ما تعلق بالسياسة والاقتصاد ، أو الثقافة والاجتماع ، فحيثما نجحت هذه الشروط وتوفَّرت كان لصناعة الطباعة وفنونها حظ الازدهار والنماء ، والعكس الى عكس .

وما شك في أن الحكم للسوري بالتفوُّق ، سواء في الطباعة أو في غيرها من ضروب التقدم ، هو الحكم الصحيح الأسدّ اذا ما قيست حياته بتاريخها الحافل بالتمرد على الظلم ، والاستغراق في الحروب والثورات ، واحتمال آثار الاضطراب والاضـراب ، وما الى ذلك مما كان يحول بينه وبين الاستقرار ، ويحمله على تنكب طريق الازدهار . فان من يصحبه القَدَر صفواً زهواً فيواتيه النجح عفواً غير من يدور به خذلان القَدَر لتدور به الدوائر حيثما مال وانحدر ، فيغتصب النجح اغتصاباً وغلاباً .

وبعدُ فان الصواب في تاريخ الطباعة أنها تاريخ تقدم الفكر ووعيه ، وسبب أقوى سبب في تطوُّر العالم ورقيِّه ، وان محاولة غوتنبرغ لم تكن الا بدائية في مجال المبتدعات العبقرية ، الا أنها كانت كغيرها منفذاً الى جملة محاولات ساهمت فيها عبقريات جمَّة ، الى أن انتهت الى دنياها الوسيعة المتناهية في رفعة الخطر وبُعد الأثر . واذا كان الشرق العربي لم يعرف الطباعة الا بعد لأي ، وعلى تفاوت في درجات الرقي ، فذاك لأسباب قاهرة كان للسياسة فيها يدٌ ظاهرة . وان الوعي الذي بدأ يشمله ، والكشف عن خيراته الدفينة التي قوَّت اقتصاده ، ثم ما استرد من حريته السليبة ، كل أولئك كفيل بأن يرقى بالطباعة في أرجائه ، فتعينه على النمو والازدهار ، وتصوِّب فيه الحكم في تهمة العجز والتقصير .



المطبعة في معانيها السحرية

صحبت المطبعة وصحبتني العمر كله ، وبادلتني الوفاء وبادلتها مثله ، وبذلت لها من ذاتي روحاً وفكراً غاية البذل ، فارتجعت عليَّ بالكثير من الخير والفضل ، وأعظمت من شأنها وأسنيت حتى لقد أنزلتها مني أعظم منزلة ، فما استجهلت علي بكبَر أوتيه ، بل أغلت مني لأكابر بها وأتيه بقربها . والمطبعة كم لها في البرية من أيد نديَّة، اذ أخرجت الملأ من الظلمات الى النور ، وارتجعت عليهم بما ملكوا بها حريتهم ، وزادت فزوَّدتهم بما نوَّر حياتهم ، ونضَّر حضارتهم ، وطوَّر انسانيتهم ، فهل من عجب بعد هذا اذا رحت أتغنَّى بمحاسنها، وأفتنُ مفتتناً بكل ما يسعد الخيال ويساعد على الكلمة السحرية في معانيها ؟

فما هي المطبعة ؟.. أصحيح انها هضاب متفرقة من الآلات والأدوات ، وركامٌ بعضه فوق بعض من أكداس الورق والصحف المنشَّرة والكراسات المنتثرة والجذاذات المبعثرة ثم الأحبار والزيوت الكثيفة ، ثم الحروف على اختلافها ، ولكل طائفة صناديقها ... ثم جمهرة العمال والمهَّان وعلى رأسهم ثمالُهم يقوم على ادارتهم ؟.. أتلك هي المطبعة في حقيقة صورتها ، أم هي صورة الحقيقة في جزء منها كلقطة العدسات الضوئية تلم بالشيء ولكن من ظاهره دون الباطن ؟.

ان ثمة لآيات وآيات من الجمال يسجد لها الخيال ، ويسبح فيها القلب سبحات الحب ، وتنجلي في الروح الفنية روحاً من الفن الرفيع.

فالمطبعة كالكعبة تنسم عليها رويحات من القداسة ، ويتجاوب في أرجائها تدويم أشبه بتدويم الملائكة في النعيم باعتبارها تصدر عن معاني السماء في كتبها المنزلة وآياتها المرسلة ..

وان فيها لكالشمس بنورها الوضيء ودفئها الهنيء وسحرها الساحر ، وهي التي تبعث الاشعاع والأمتاع في العقول والأفئدة .

ولها من معاني الصداقة والوفاء ما يجعلها تنهض بما نفضي اليها من أعباء أعمالنا وأسرار أقوالنا ومنى آمالنا .

ولك أن تزعم صادقاً بأن المطبعة مخبزنا اليومي ، ومطبخنا الفني الذكي ، ولا بدّ فيها من الوقيد متصل اللهيب والاذكاء ، ما ينقطع مورده أو يجف مدده كيما تزودنا أبداً بالموائد الفكرية الشهية ، وتغذينا بالمعارف السنية ، وتزيد معنانا في الحياة بما نزداد بها بصيرة في الحياة المعنوية .

وما أكثر ما تستوي ندوة للخاصة من أصحاب الرأي والحكم والأدب والعلم والالهام والفن يعرضون بواسطتها بضاعتهم، ويجودون بها بعد اذ يجوّدونها ، فاذا هي بهم وبنتاجهم لكأنها الحديقة المئناف قد اهتزّ ما فيها وربا وأورق وأزهر وأثمر ، واختلف مجموعه بأجزائه، وأجزاؤه بمجموعه ، لوناً ولحناً وعطراً وسحراً .

ثم كأني بالمطبعة لا تؤمن بغير الاشتراكية مذهباً اذ تتنزل عن ثرواتها أبداً لتكون مشاعاً يملكها الجميع لا يختص بها فريق دون آخر، أو جماعة غير جماعة ، وهي على ذلك تجدها نشيطة مهزوزة ، دأبها السرعة كأنها في سباق عنيف مع الريح العاصفة ، أو كأن حياتها في سرعتها ، فان هي وهنت أو أبطأت أسرع اليها ما يذهب بحياتها .

وماذا بعد ؟..

أن عماد المطبعة آلاتها المتنوعة .. تلك الآلات التي استولدتها عبقريات مختلفة في أزمان متطاولة ، فآلت اليها لتكون جماع عبقريات بحيالها ، وقد أضافت فنون الانسان في متطاول الازمان الى فنها في جمالها .

ووالله ما أصغيت الى هديرها في نغمات شدوها وهزجها ؛ الا خلتني أصغي الى نغمات طافرة عن مثل الموسيقى الساحرة ، ولا تدبّرتُها في مختلف أجزائها ، يعمل كلُّ ركن عمله ويؤتي ثمره وأكله ، الا حسبتها دنيوات متعدّدة جمعت بينها دنيا واحدة ؛ ولا نظرت الى ما اشتملت من متفرّقات العلوم والفنون الا أخذتها عيني اخذ المعارض العالمية منطوية على العالم الاكبر بمستحدث مآتيه. وكثيراً ما لاحت لي صفحات الورق كأنما هي الوجنات يماسُّها الحرف ليطبع فوقها قبلاته الحرّى بمعانيها من قلبه . واذا ما خرجت الطبعة

مونقة مشرقةمستوفية حقها من براعتها وروعتها ظننت ان فيها روح الشمس تجول فيها الى جانب النسيم الرخيّ يطوف عليها .

وهـذه المحـابر الفضة في الآلة الا تحكي الأثداء الرجراجـة ، وهذه المفاصل والفواصل بينها وقد اتصلت بعضها ببعض ، أليست صورة الأذرع البضة المتهادية ، وتلك الاسطوانات بحركاتهـا واهتزاز أعلاها وأسفلها ، أهي غير اهتزاز الجسم الجميل بمفاتنه الساحرة ، والورق في همساته الناعمـة ما ذا يعني غـير الحلي في وسوسته العذبة الناغمة ؟..

أما اني لأرى في هذه الآليات الجذابة مثال النسوية الجذابة ، لافرق بين الثنتين الا في ان هذه بدعة الخالق في العبقرية الالهية ، وتلك بدعة العقل في ألوهيته البشرية .

ثـم ماذا وماذا ؟..

اني ليشدهني مشهد هذه العجلة السحرية ، وقد استراحتالى بساطها عذارى الحروف مرتبعات مرتفقات ومن حولهن ما يحميهن ويحرسهن ، تروح وتغدو كأنها الأرجوحة ، وفي مثل البرق أو أدق، فيتراءى لي منها خيال الغـادة الصّدوف ، تعرض عليك نفسها ثـم تصدِف ، كأنها تغازل وتطاول ، أو كأنها تلذّ أن تقطع الطّرف بينـك وبينها لتقطع بك أشدّ ما أنت منها لهفة وارتغاباً .

وما أحلاه همساً وأنداه هذا الذي يتحدث به لسان الآلة هاتفاً : لقد ابتاعني صاحبي بكذا وكذا مالاً ، فعوّضته الواحد ألفاً وألوفاً ، وارتضاني شريكة ، فكنت له الشريك الصّدوق الوفي لايخون العهد أو يخذل الـود ، ولا يعرف داءَ الضرائر مـن المحاسدة والتربّص بالدوائر . أما هو ، وأما عماله ، فلطالما أساءوا اليّ الصنيع ، وأتبعوا السيئةالسيئة ، فما حفظوا لي حقاً منرعاية أو عناية، ولا استشعروا واجباً من احسانهم كفاء حسناتي عنـدهم ، ولكم أرهقوني العسـر فكلفوني فوق الوسـع والطاقة ، وآذتني منهم الجهـالة والحماقة ، وتسبّبوا لي بالعلة تتلو العلة ، حتى اذا اعتراني الوَهن ، وحـلّ بي العجز ، طرحوا بيلقىً في الزوايا ، ثم اعملوا المعاول بجسمي الكسير المهدود هداً وتكسيراً .

يا للآلة .. ما اشدّ وفاءَها ، واجزل عطاءَها .. انهـا تتندّى

أبداً ولا ينِدُّ بكرمها البخل يوماً ، وانها على انها من الحديد لأرق قلباً من الطفل الوديع وأصبر على الأذى من الخادم المطيـــع ، وأخلص في الوفاء من الخلّ البرّ الأمين . ومن آيتها انها لايعتريها سأم وملال ولا تستنيم الى خمول وانخذال ، وهي الى صاحبها كأنما اندس فيها بعض عروقه ، فاذا ثمة أسباب واشجة وشوابك ماسّة لا انفصام منها ، واذا هما وقد امتلأت حياة الواحد بالآخر كأنهما حياة واحدة .

لا عجب اذا تراءَت لي المطبعة كما صوّرت وهي الأعجــوبة في صورتها ، بل المعجزة البشرية في حقيقتها . وأي أعجوبة أو معجزة هي ، وهي كلُّ شيء لانها مناط كــل شيء ، ثم هي أخت الشمس تحمل نورها الى كل نفس مشعةً بألوان المعرفة والثقافة !..



تهمة وبراءة

ثمة من يتنكرون للطباعة ويشنّعون عليها ، فيجحدون عميم خيرها وبليغ أثرها ، وربما انقلبوا بمعانيها لتنقلب من خاصّة جمالها صورةً شائهةالخطوط ، طامسة الألوان، تنبو عن مثلها الانظار ، وليس في مُتبَوأٍ وصفها الا الامتهان والاحتقار ، فهي في زعمهم حفيلة بضروب المعائب والنوائب حتى ليرجح فيها الشر على الخير ، ويسأل من مثلها العافية . وحجتهم التي لاحجّة سواها أنها مدرجة الى الأفكار تختلها عن الحق، وتسحر عليها بالباطل، ثم تتلاعب بها تلاعب الطفل بتهاويله ، فاذا هي منقادة الى ما يُغضب عن رضى ، منحدرة بتفكيرهاالى الشر على وهم من طلب الخير ، متحوّلة من حرّيتها الى مثل الآلة الجامدة ، لا حرية لها ولا ارادة . ثم يضربون على ذلك الأمثال بما تجترحه الدعاوات الجائرة والدعوات الكافرة ، ان في الصحف أو المؤلفاتأو شتّى النشرات، تصرفبفعلتكرارها فيتزوير الحقائق ، عن وجهة السداد والفضيلة ، الى ما ينزلها منزلة الشيطان يتدسّس بالبهتان على انه الايمان وروح الايمان . فاذا خفّت بهم غلواؤهم بعض الخفة صوّروا الطباعة مثل وميض النور يلمح لمحاً في ليل مستحكم الديجور ، ومثل أثارات من الخير تقابلها مصادر ثرّة الموارد من شَوْب الآفات ووَشْب النكبات. وبحسبها في رأيهم أنها السيل الجارف لا يفيد فيها حائل أو وازع لأن لها من تخطّيها الطاغي وجَحفها الباغي ما يكون من المصيبة تمكّن لغيرها وغيرها الى أن تغدو أم المصائب .

وما شك في أن مثل هذه الأقاويل لا تخلو من بعض الصدق ،

ولكنه الصدق الذي يحكي سحب الصيف تعرض للسماء فتحيلها غير وجهها من الرواء والصفاء ، فما يصح أن تستوي احداهما من الاخرى لونها في صورتها ولا صورتها في لونها .

أن الطباعة فيما يتعرَّضون لها من دعاوى السَّوم واللَّوم ، لكالعلم فيما يتهجمون عليه ويكيدون له ، حتى لينسبوا اليه كل خطب ورزيئة ، ويجعلوا من مبتدعاته أصل الشقوة البشرية ، وسبباً أكبر سبب في فواجع الحروب وآفات المدنية ، وانه من ذلك لبراء اذ كان الأصل فيه النفع والخيرية ، ولكنه يُعدل به عن أصله فيتَّصل على مرغمة بغير غايته . ولكذلك الطباعة فما ابتُدعت الا لخير الناس وسعادتهم ، ونشر النور في سُبل حياتهم ، فأيُّ عاب أو سوء يُلصق بها انما يرتدُّ على قائله ولا يضير منها شيئاً ، شأن الشمس حين تُعاب بأنها مريضة ويكون العيب كل العيب في العين المريضة التي تنظر اليها .

ثم ماذا من بِدْع غريب ألا تستوي الطباعة خيراً خالصاً كلها ومن طبيعة الأشياء الا كمال فيها ، ولا بدَّ فيها من النقص يخامرها كيلا يفوتها معنى تكاملها . ثم أي ضَير في أن تخلص اليها المساوىء ثم تخلص منها بحكمٍ من بقاء الأصلح والافضل . وهل كان لحقيقة من الحقائق أن تستقرَّ في الاذهان قبل أن تضطرب بها هذه الاذهان وتناهضها بعقيدةٍ من شكها وتمرُّدها على كل جديد يطالعها ؟.. وهل بطل في يوم من أيام التاريخ البشري صراعٌ ما بين الحق والباطل ، وفي النفوس أنانيتها وأهواؤها ؟.. وهل يصحّ أن ينسلخ الناس من تجاليدهم فيكونوا ملائكة السماء على الأرض كيما يصحَّ أن تكون الطباعة جنةٌ بقنها لايخالطها قليل أو كثير من أفانين السوء ؟.. أما ان هذا لهو البِدع الغريب في الحكم، وليس هو بالبدع الغريب في عالم الطباعة .

ولتلد بطون المطابع مثل ما تلد بطون الامهات .. لتلد لنا ما جمل وما قبح، ما صلح وما فسد .. فان الزمن لكفيل بأن ينخل الركام

ليستخلص عروق الذهب .. ولقد مرّت الأيام بالكثير مما دُوّن وذاع ، ثم هي لم تبق الا على الأقل من القليل ، لانه هو الحقيق أن تخلّده الحياة بماحملمن حياة خلودها وروح وجودها .

وان في الطباعة لنورا وظلاماً ، وحقاً وبطلاً ، وصحة وزيفاً ، وان لها في هذا التباين ما يزينها لا ما يشينها ، وما يرفعها صورة كمال لا نقصان ، لانها انما تجري على سنن الحياة في عظمتها وتكاملها بانطوائها على الاشياء في أضدادها ، بما يكفل وجودها وبقاءها .

واذا تسرّب الى الطباعة بعض العقول المظلمة الربداء في مثل الليل البهيم ثم برزت هي تشع بين الدُجنات بنورها الوضاءالوسيم، أفلا يُسني منها كل السَّناء هذا النور بقيمته من ندرته وعظم أثره في خطره ؟. واذا ما جرى سيلها جارفاً متحيفاً ، أيدوم الا ريثما تهدأ العاصفة ، ساكنة بثورتها الراجفة ، ثم تسطع من فوقه الشمس لتمسح بيد الاصلاح على كل ما عاث وأفسد ، وليكون في اصلاحها الجديد من الاحسان الجديد ما حقّه الحمد والاعجاب ؟

ان الطباعة هي التي كان مطلب الحرية مبعثها ، ثم كانت هي من بعدُ ، رسول دعوتها وسرّ ذيوعها وانتشارها ، فكيف تُراد على أن تعود فتمثل استبداد الفكر والتضييق في شأنه ، ما تتخطّى حدود مذاهب بعينها ، ولا تسمح بأن تتقبل ما استجدّ من الآراء الحرّة ، ولقد يختلط فيها الصحيح بالزيف والزيف بالصحيح ، فيكون في أحدهما بعض الآخر ، ولا سبيل الى التمييز بينهما الا بأسباب من النقد والمقارنة على الأثر ؟

ونحن اذا سلمنا بأن المطبعة قد تصدر عن بعض ما لاينبغي أن تقع عليه الانظار ، إما لمكسبة تجارية أو دعاوة جائرة أو هوىً من شهرة قد تحمس الناس للطبع والنشر ، فان من سوء الرأي ومن الامعان في الشطط تهمة الطباعة بصورة عامة بأنها مضرّة للأفهام ،

ومفسدة للاخلاق ، وانها بهذا في رأس مصائب الحضارة لعهدنا ، اذ هي مصيبة في طبيعتها في الاختداع والتضليل ، ثم مصيبة من حريتها لا يفيد فيها ما نع أو وازع .

وما أروع التهمة وأسماها تبلغ مبلغها ثم اذا هي براءَة غاية البراءة ، فيتضاعف بها المعنى خطـأً يجد محض صوابه ، وصوابـاً يرجع الى نصابه .



عالم الطباعة

نحـن الآن في المطبعة .. في هذه الدنيا الصغيرة التي لاتتجاوز في امتدادها بعض مـدّ البصَر ، ولكنها في جملة معانيها ومطاويها تكاد لايكون لها آخر من أول ولا أول من آخـر ، وهي التي وسعت الدنيا على رحبها ، ووسعهاأن تحصر الحياة بشتى أحوالها ، كما انها استجمعت علوم الأولين والآخرين ، فكأنها صورة العالم الأكبر بعالمها الصغير .

بل نحن في المطبعة بين يديْ كبرى المعجزات البشرية اذ هي التي هزّت العالم هزاً ، ورجفت به رجفـاً ، مستبدلةً بالجـديد ما قد رثّ وتداعى من قديم مفاهيمه التي لابستها قداسة الاوهام مع الأيام ، معبّدةً كل سبيل يستشرف الحرية ويقي من الاستعباد ، باعثةً في القلوب ما يشعرها بالحياة ومعنى الحياة ، مفجّرةً ينابيع الثقافة والعرفان يغترف منها أي كان .

ولك بعدُ أن تزعم وأنت في المطبعة ، أنك في معرض من الفـن والصناعة ، أو في معهد للمواهب والعبقريات ، أو في مخبر حفـل بأفانين التراكيب العقليةوالحسية ، فأنتفي كل ذلك صادق لاتتكذب الحقيقة ، لان المطبعة قد استوعبت هذه المعاني جميعاً ، بل ان هذه المعاني بعض حقيقتها في جملة معانيها .

والآن فلنتدبّر المطبعة في واقعها ومدى اتساعها في فروعها ، ثم خاصئتها من فنونها التيرفعتها عاليةعالية في امتيازها وضرورتها .

وأول ما ينبغي أن نهتف به هو انها في طليعة الصناعات بمأثور محامدها ومحمود مآثرها ، اذ كانت أوثقها بالثقافة صلة ، وأعرقها بالحضارة نسباً ، قد تغني الحاجة عن بعضها وليس لها عنها أي غناء . فللطالب عندها قرطاسه وكتبه ، ولكلٍّ من أصحاب العمل الحر مطلبُه مما يقتضيه دخله وخرجه وكسبه ، وللرأي العام من الصحف والمجلات مرتغبه ، وكذلك الحكومات والشركات والمصارف والمدارس وغيرها وغيرها ، فما لواحدة منها أيّ منتدحٍ عن المطبعة في نظم الاعمال وتيسيرها ، ثم الاعلان عنها واذاعة ذكرها وشهرها ، أضف الى ذلك أنّه لولا المطبعة لكان العالم اذن ما يزال غارقاً أيّما غرق في سبات الجهالة ، تكتنفه ظلمات الضلالة ، ولم يؤت مثل حظه في حضارته الحاضرة وحياته الميسّرة . وهذا هو المعني الذي أهاب بالجرمان حين شاؤوا تخليد مخترعهم « غوتنبرغ » فرفعوا له نصباً في مدينة « ستراسبرغ » ، أن يمدّوا بيده الى الشمس مشيرة واليه هذه الجملة الخالدة : « هكذا انبثق النور !.. » .

أجل هكذا انبثقت عن الطباعة مشاعل النور ، وهكذا خرج الورى من الظلمات الى النور ، بل كذلك راح يتبع النورُ النور كأنه النبع الثّر وله عمقه العميق من الفَوْر !..

ألا ترى العلم الى القرن الخامس عشر كيف كان وقفاً على أفراد بأعيانهم في كل أمة لايتجاوز الى غيرهم بسبب احتجانه حقاً صراحاً وامتيازاً قُحاحاً للطبقة الرفيعة وزمرة الاكليروس ، ثم بسبب من ابتعاد متناوله ، وتعذُّر ارتشياف مناهله ، في أسفاره وأصوله ، وهي لذاك العهد لا تخطئ الا باليد ، وتفحش ثمناً فتُعجز مقتنيَ ؟.. ثم ها نحن أولاء اليوم وليس أيسر من اجتناء ثمرات العلم والعرفان حتى لكأننا في جنة حافلة بكل ما لذّ وطاب مما تشتهي الأنفس . فان تدبّرت هذا التغاير بأصله وجدتَ أن المطبعة قبل أيّ شيء آخر هي البرزخ الذي عبرت عليه الانسانية من قرونها المظلمة الموحشة الى حيث استقبلت ما لا عهد لها بمثله من الحياة المتموّجة بأفانين الحرية

والمعرفة . وانها لأيامنا تساير الحضارة في مبتدعاتها ، والحياة في تطوراتها ، فما تدع أثراً الا تركت فيه أثراً أو آثارا من عندها .

والغريب الغريب أنها على هــذا الفضل العميم ، وهــذه الصلة المتزايدة بينها وبين مختلف الطبقات ، قلّما عُرفت بحقيقة عالمها في خصائصها ومعالمها .

فنحن نفتح أبصارنا كل يــوم على صحفنا أو كتبنا أو رسائلنا أو غيرها مما تلده بطون المطابع دون أن نتكلّف الوقوف ولو قليلا عند هذا الذي بين أيدينا كيما نفكر كيف استكمل صورته التي نطالعها ، وكم بذل في سبيله من عناء وتضحية هما أبعد ما يمكن أن يُتصوَّر ، بل أقصى ما يمكن أن تحتمله طاقة البشر .

فثمــة الورق ... وبحسبك ألاّ تنفرج عن شفتيك هذه اللفظة اليسيرة حتى تنداح في مخيلتك للحال دنيوات شاسعة واسعة من الاحراج والغابات تعجّ بالعمــال والعاملات في مثــل يوم الحشر ، لا مطلب لهم جميعاً الا مادة السيلوز من ألياف النبات ، وهي مــادة الورق في جوهره ، أو تطالعك صورة المعامل الصناعية وهي تستخلص هاتيك المادة من الأخشاب بعد طحنها ، أو ينتقل بك الخيال الى جبال بعضها فوق بعض من المِزَق والخرق جمعها الشوّارون ههنا وههنا لتكون نواة الورق وأداته . ثم أنت من بعدُ تجاه آلات جبّارة ، راعدة هدّارة ، بعضها للصقل والدعك ، وبعضها للتصفية والتهوية ، وأخرى للتمديد والتحديد ، فالتلوين والتصميــغ ، فالتقسيم والتغليف . وما أشدّ ما يتملكك العجب العجاب اذ تجد هذا الذي كان عصارة من الاخشاب ومزقاً متهدّلة من النسائج والثياب ، قد آل تحت بصرك سطوحاً من الورق ، بل أنواعاً لاتحصى من مختلف الالوان والاوزان والاحجام ، تساق الى أنحاء العالم بآلاف الاطنان ، ليَصطنع كل نوع في حاجته ، ويستجيب لغايته من فائدته .

وثمــة الأحبار ، وما ادراك ما الاحبار ، انها لمما يشده الافكار

والانظار ، فألوان وألوان من كل ما يتوامض في الخيال ، بعضها الشفّاف يكاد لا يُرى، وبعضها الصارخ الوهّاج كأن فيه ألَق الشمس، وبعضها بَين بين . ومنها الخالص الصَّريح في عرقه ، والمدخول الهجين في نسبه ، ولكلٍ سيرتُه من فنّه وفلسفته ، ولا بدَّ في تأليفه من موادّ بخاصتها ، بين ما هو صلب أو رطب ، بسيط أو مركب ، يؤتى به على اختلافه من أطراف العالم المتفرقة ، ثم يخضع لعمليات متباينة من التهيئة الفنية باشراف علماء في فن الكيمياء يتبارون في التجويد والتجديد توفيقاً بين الأحبار وفنون الطباعة المختلفة وآلاتها المستحدثة من جهة ، وبينها وبين المناخ الذي تصطنع فيه من جهة أخرى . وماذا لعمرك أغرب من الحبر كان في البديئة شيئاً من هباب المداخن يمزج بشيء من الزيت وكفى ، ثم اذا هو اليوم من آية فنه بحيث لاتُعجزه فنون الطبيعة في ألوانها يمثلها بمختلف مظاهرها في تناسبها وتحاسينها ، فلا تحسبها وقد وقع نظرك عليها الا أنها بدعة الخالق ليس بينها وبين أصلها أي فارق . هذا الى ان ثمة من الأحبار ما يثبت بقوته لايؤثر فيه نور أو حرارة ، وما يستخفي على النظر ليظهر ببعض المعالجة على الأثر ، ثم ما يصدر عن مثل روائح الأوراد والأزاهير تستريح اليها أذواق الشميم . وبحسبك بعدهذا ان تعلم أن اتّساع نطاق الصحف والدعاوة واستبحار العمران والحضارة قد تسبَّب لكفائه من الاتساع في صناعة الأحبار، بل ما قولك حين تعلم بأن صحيفة واحدة في نيويورك أو باريس تستهلك طنين اثنين من الحبر ، لا في العام أو الشهر ، بل في اليوم الواحد من أيام العام والشهر .

وثمة الحروف وما اليها من نقوش وخطوط وفواصل ومقاطع بأحجامها وأنصافها وأرباعها الى أبسط وادق الرقائق ، وهي ضروب وانواع ، وفيها من كل لغة يتحرك بها اللسان حتى ما انطوى منها مع توالي الأزمان ، ولا بدَّ من الدقة والبراعة واليد الصَّناع في رسم أصولها وحفرها واتساقها ، ثم لابدَّ فيها من الفولاذ أساساً ، والانتموان متانة، والقصدير لحمة، ثم الرصاص يجمع بين ذلك على

صلابة ومناعة . والمهم في صناعة الحروف بأمّهاتها أنها تحتاج الى فنون عدّة ، كالخط والهندسة والرسم والتصوير وما اليها ، كما انها تقتضي جملة من الآلات والادوات الدقيقة تمرُ بها في مراحل متتابعة الى أن توفي على الغاية .

* * *

فاذا تحوّلنا من بعدُ الى فنون الطباعة ، وهي المتنوعة ، طالعنا العجب العجاب لما يفجؤنا في كل باب ، واعترضنا ما يشبه الاحلام في المنام ، بل خيّل لنا كأننا في معرض من الحسناوات ، ولكلٍّ مزيتها في حسنها تغالب به قريناتها ، وتُدل بأن ليس لهنّ مثل حظّها . فلأي من فنون الطباعة خاصّة من الامتياز والبراعة حتى اذا ما فضل الواحد في ناحية فضَله الآخر في غيرها على ما يكفل حسن التكافؤ والتوازن فما ترجح الكفة هنا أو هناك .

كانت الطباعة ضيقة منحصرة في بديئتها ، أشبه ما تكون بالأسرة أول العهد ببنائها ، ثم اذا هي مع تطور العلوم والفنون ، تنفرغ وتتسع لتمتدَّ منها عدة بطون . كان لايُعرف منها سوى « التيبو » أولِ أرومتها ونبعة فروعها ، أو ان شئت فقل الأخ البكر لما جاء من بعده . والى غوتنبرغ يرجع فضل اختراعه في أواسط القرن الخامس عشر ، وقوامه الحروف المتحركة والطبع البارز ، ومن مزاياه أنه لايفتقر الى سواه من أنواع الطباعة بينا هي حميلة عليه في كثير من أسبابها . ولقد تعاظم خطره على أثر اختراع آلات اللينوتيب والانترتيب ، وهي التي تستجمع فيها الأحرف بسرعة خاطفة كأنها تسابق ظلّها ، ولا يقوى الا جملة من العمال على مثلها . ناهيك عن أنها تصبّ الحرف سبكاً جديداً أبداً ، لتخرجه كلمات مجتمعة الشتات في أسطر بحيالها ، مستقيمة الصفح في أدق استواء ، لاعوج فيها ولا التواء .

ثم يأتي فن « الليتو » ومخترعه « سينيفلدر » في أواخر القرن السابع عشر . وطريقته هي الطباعة على الحجر ، ثم انتقلت الى « الزنك » ،

فأطلقوا عليه فن « الأوفست » . ولبث غير يسير لا يصطنع على الأغلب الاّ في طبع المصورات وبعض المطبوعات الملوّنة ، ولا قِبَل له بمجاراة « التيبو » والظهور عليه . ولكنه ما عتّم ، منذ عهد قريب ، أن قفز قفزته الواسعة في ميدان الطباعة ، محرزاً من النصر ما كاد يجعله في الطليعة . فهو بفنه لأيامنا أوسع انتشارا ، وأكثر ازدهارا ، وأعلى شعارا . وكأن ثمة مثل الحرب الطاحنة بينه وبين قرنه « التيبو » ، كلٌ يريغ الغلبة ، ويروم كسب السبق في الحلبة . ولطالما أجدت عليهما هذه المنافسة وما تزال بالكثير من الاحسان حتى لقد أنزلت أحدهما منزلة الآخر فيما تفوّق واشتهر .

وما شك في أن أحدث أنواع الطباعة جميعاً هو « الروتو » أو « الهيليو » ، ومعناه « الطباعة بواسطة الشمس » أي التصوير ، اذ كان اختراعه في أواخر القرن التاسع عشر على يد « كارل كلينتش » النمسوي . أما مزاياه فكثيرة جليلة ، أخصُّها أنه الوحيد الذي يطبع بطريقة التجويف حفراً في أعماق متباينة الدرجات تعقب التباين في الألوان واستيفاء حقها من التناسق دون زيادة أو نقصان ، ثم ان الحبر فيه ينشف لحينه اذ يتشرّبه الورق بلونه ثابتا ما يحول ولا يزول ، وتبلغ نمطيته في اخراج الصور غاية الغايات من الاتقان والدقة ، هذا الى أنه يتقبّل الورق على اختلاف الاجناس ، ويستجيب للطبع على القماش ، وبسبب ميزاته لقد خصّ بطباعة الأوراق المالية والطوابع البريدية وما شاكل من المطبوعات الرفيعة الراقية . بيد انه جمُّ المراحل ، صعب الوسائل ، كثير التكاليف ، ومن ثمّ كان العزيز النادر ، لا تنعم بمثله الا بعض العواصم والحواضر .

أضف الى ما تقدّم طباعة « الفوتوتيب » و « الانالين » و « النافر » ، ثم الطباعة على الزجاج والخشب والجلد والنسيج وشتى المعادن . . ولنضف كذلك فنوناً أخرى هي من مقوّمات الطباعة كالزنكوغراف والتجليد والوراقة .

فاذا تقصّيت هذه العوالم المختلفة ، وجمعت ما بين أطرافها المتفرقة ، ثم روّأت الفكر في آلاتها وادواتها وثرواتها ، وما تصدر عنه من مطبوعات هي في ثقل الجبال ، وسعة قارّة بذاتها ، ثم ما يكون من آثارها في الحياة العملية والفكرية .. انك ان فعلت فيا لروعة ما يتعاظمك ويسحرك .. لأنك من الطباعة في عوالمها لكأنك تلقاء عالم أكبر حفل بأرقى الصناعات ، وأسمى الفنون ، وأسنى العبقريات ، وله من أساليبه في الامتياز ما يرفعه اسلوباً أي أسلوب في عالم الاعجاز .



خلق الطباعين

أحقاً أن للطبّاعين أخلاقهم الخاصّة ، وما عسى أن تكون هـذه الأخلاق ، في عموميتها أو شذوذها ، في رفعتها أو اسفافها ؟.. أمّا أن تكون لهم صيغتهم بخاصّتهم ، فذاك ما لامرية فيه ، وأما ما هي هذه الصيغة في شمائلها وشمولها فهذا ما ندير عليه القول في هـذا الفصل ..

ان الأخلاق في الانسان ، وهي عادات في أصلها يباديها ويغاديها الى أن تغدو فيه من طبيعته ، لأشبه بالنبات في حياته من الطبيعة ، تغذيه جذوره من أعماق الارض ، ويتكيف بعروقه في عصارته وشكله بحسب المؤثرات من حوله ، ولا يختلف عنه الانسان في تربة نفسه اذ يجري بخلقه وفق هذا الذي يستفرغ فيه جلّ وقتـه ، ويتفرغ اليه في مختلف تفكيره وشعوره ، ويتبلّد عليه دأباً في تأديته ، ثم هو يتوافى معه بحكم الامتثال على مشرعة واحدة من التماثل . وكما ان النبات اذا ازدرعته في أرض خرج غيره في أرض أخرى ، لكذلك المرء لايستوي هو هو في خلقه من خاصّ مهنته اذا ما انقطع عنهـا الى سواها .

ومن ثمّ كان للطباعين خلقهم على مـا تطبعهم عليه صناعتهم ، يطّرد منه ما يطّرد سهلاً سمحاً أو صعباً جافياً ، قويمـاً معتدلاً أو ملتوياً متطرفاً . ثم لا حيلة في تغييره الا أن تكون للصخرة الصماء حيلة في قطرات الماء تتقاذف فوقها دراكاً ، فتمجّها مجّاً ، ولا تدع للتأثير اليها سبيلاً .

بيد أن الطبَّاعين أشتات وأوزاع في فرقة العمل وان كانت تجمعهم المهنة في ميدانها ، وتوحِّد بينهم بعنوانها ، ومن ثمَّ تجدهم اذا اختلفوا في أخلاقهم اختلافهم في نمطيَّة أعمالهم فانهم ليتقاربون على ذلك بفعل العدوى التي توثق بينهم عن كثب ، وتأصر بعضهم على بعض ، يحاكون في ذلك جوقة الموسيقيين يعمل افرادها منفردين، كلٌّ فيما خصَّه ونابه ، ولكن اللحن بفنِّيته السائدة يجمع بينهم على وتيرة واحدة ، ويوحِّد بروحمنه أرواحهم ، فما يحيدون ولا يندُّون.

ولنتدبَّر الآن أخلاق الطبَّاعين منعكسةً عن مهنتهم بعد اذ تصاغ صوغاً في بوتقتها ، فتخرج ، مثالها في صورتها .

ان أخصَّ ما يؤثر عن جماعة الطبَّاعين أنهم يميلون الى السرعة كأن بينتجاليدهم مثل الدوافع فيالصواريخ، فما تلقاهم الا مستوفزين مُهرعين في كلِّشأن من الشؤون، ومردَّذلك طبيعةعملهم فيمايتطلب من تعجُّل الانجاز ، واختصار الوقت على ايجاز ، لامندوحة عنذلك، والاَّ حبط المسعى ، وفات المبتغى . وأنت لئن أخذت ببصرك مثلاً أحد العمال أمام الحروف يجمعها ، ليأخذن منك العجب أيَّ مأخذ، اذ لا تحسبه الا أحد الدراويش في غرقه من اضطرابه وحركاته ، يتهادى تهادي الهودج ذات اليمين وذات الشمال ، منتصباً الىالأعلى، منخفضاً الى الأسفل ، حتى اذا ما استوى بين يديه سطرٌ من متفرق الحروف وقفريثما يعالجه تنسيقا وتعديلاً، ثم يعود الى مثل ماكان، في خفة الطير أو أشد . ومثله من يقومون بالترتيب والتفريق وتلقيم الورق وما اليها .

وأنت قد يمكنك أن تنزل السرعة والمطبعة احداهما منزلة الاخرى دون أن يعدوك الصواب ، لأن روح الطباعة وقوامها السرعة . ولقد زادت خطوَةً اثر تقدم الصحافة وذيوع النشر والدعاوة حيث أصبح النجح وقفاً على السبق في الاصدار ونقل الأخبار ، واصبح للثانية من الدقيقة فضلاً عن الساعة والساعات أثرها وقيمتها ،

فانضاف بذلك عامل الزمن سبباً في النجاح الى جملة عوامل النجاح في أسبابه .

والعجب حق العجب أن هذا الخلق في الاسراع عند الطباع يكافئه خلق من ضدّه ، فلا بدّ له من الأناة والرّود تبصراً وتدبراً في جلّى أعماله ينتفي بهما الخطأ .. وان في ذلك لمشقة أية مشقة ، ولكنها تفيده من حيث لايدري ، اذ هي تكبح السرعة في خلقه من الجموح كما أنها تدرؤ عن أناته خلق الجمود ، وكأنها بذلك حجر الثقل في التعديل والتنظير .

والتأبه ذهاباً بالنفس هو الخلق الثاني عند الطباعين ، يتورّدهم من اتصالهم المستمر برجال الحكم والزعامة والفكر ، ثم من وقوفهم على بعض أسرار من قضايا الحكومة لا يتصل لحينها بسمع العامة ، ثم من خاصتهم في التوفر على مطالعات هي وقف على الخاصة ، ثم على ما يستجد من الرأي تسبق اليهم معرفته ، فينزل في ظنهم أنهم الأسبق خطىً الى التجدّد ، والأطول باعاً في المعرفة . ومن ثمّ يتملكهم الغرور بما يملكون ، فيخوضون عباب كلّ بحث ، ويناقشون كل رأي ، وما الخوض منهم الا في حوض لا بحر ، وما النقاش الا في تحكم لا محاكمة .. وليس الا القليل الأقل منهم من يؤتى الحظوة ، فيتخذ من المطبعة مثل المدرسة ، يقبل عليها اقبال الصادي على المنهل العذب ، منكباً على المطالعة والتدبر والتبصّر في كل ما يصدر عنها ، الى أن ترتجع عليه بالوافر الوفير من زاد المعرفة مما لاسبيل الى مثله في معاهد الدراسة ، ومن ثمّ كان بين المشاهير من حملة الاقلام من كانت المطبعة ، دون سواها ، مدرستهم التي تخرجوا من بين صناديقها وأحبارها وزيوتها ، ثم ظهروا شموساً ساطعة كسفت نور الكثيرين ممّن خرّجتهم المعاهد الراقية ، ومنحتهم شهاداتها العالية .

ومن دواعي التأبه عند أكثر الطبّاعين أنهم ما ان يسكنوا الى نفوسهم في بعض ساعات تفكيرهم حتى يقلع في وهمهم ان بين أيديهم مقاليد أمتهم ومقاديرها ، أفليسوا هم المحور في مدار الصحافة

وأعمال الحكومة والمؤسسات المالية والحياة الاقتصادية ، ثم المعاهد والمعارض وغيرها وغيرها ، ومـــاذا في التأليف والتحرير والدعـــاوة وما اليها اذا لم يخرجها الطبّاع الى حيّز الوجود بما يبذل فيها مـــن سعي ومجهود ، أفلا يختل كل شيء ، في كل ناحية من الحياة العامة، اذا هو استعصى وتمرّد ؟ اما انه اذن لذو أيدٍ وتأييد ، وقدر وخطر ، وهذا كله بل بعضه كاف في أن يشعره الذهاب بنفسه زهواً وعجباً .

وربمـــا تأبّه الطباعون أحياناً لأمور لا يؤبه لها كأن يتوهموا أنهم فوق سلطة القانون ما دامت تربطهم الصلة بمن يحلّون ويبرمون من حكام وقضاة وصحفيين ومحامين ، أو أنهم شركاء في ادارة الحـــكم اذ يتّصل بعلمهم ما يحذفه قلم المراقبة ويثبته من شؤون لاعلم بهـــا للرأي العام ، أو أنهم التراجمة الصادقون وهم الذين يخالطون جماعة التأليف والتصنيف فلا تخفى عليهم من أمورهم خافية في ميولهـــم ومنازعهم ومعاملاتهم . وخليق بهذا كـــله أن يترك فيهم أثره مـــن الاعتداد يبلغ غايته من الامتداد .

والطبّاع مثال للجلد والصبر برغم ما يبدو عليه من حرج وضيق صدر ، ولا أدلّ على ذلك من أنه اذ يتحوّل عن مهنته الى غيرها لكأنه تحوّل من حرب ضروس حامية الوطيس الى رياضة هيّنة محبّبة ، فيصدر عن صبر ونشاط وهمة هي مثار الاعجـــاب ، ويواتيه مـــن الفلاح ما يذهب مثلاً في العزيمة والاقدام والثبات .

ثـــم ان من شأن الطبّـــاع أن ينحرف أحياناً الى مبادىء دون أخرى ، كأنه وهو في مهب العواصف الفكرية والسياسية ، لا قبل له الا الاندفاع مع أشدها مجاذبة وأقواها اعتلاقـــاً . وان له في ذلك لسنداً من منطقه : فهل بُرىء الانسان ليبرأ من تبعاته تجاه أمتـــه فيحيا دنيا لنفسه فحسب ؟. والوطن : أما هو شركة عامة بخيراته ، يقتضي أبناءه جميعاً أن ينهض كلٌ بواجبه تلقاءه ؟ واذا لم ينصره الطبّاع عن طريق مهنته ، فينشر الآراء الحرة والانتقادات المـــرة ، معلنـــاً عن التوجيـــه المصيب في اليوم المدلهمّ العصيب ، لايخشى

القانون الصارم ولا الحاكم الغاشم ، ناشراً لواء الثورة والعصيان على الجور والطغيان ، فمن لعمرك غيره يملك كفاءَه ، فيلتزم التزامه ويقوم مقامـــه ؟

هذا ويجب الا ننسى أن الطبّاع في أيامه لكأنما يستعجل القدر في شيخوخته وتصرّمحياته ، أو كأنما هو لايعمل في الرصاص الذي يستصفيه نوراً وغذاءً للناس الا ليكون هذا الرصاص سبب علته في صدره ومعدته ، وسبب انسراق بصره وشحوبه ، ثم سبب حمامه يعاجله قبل أوانه .

فان أجملنا من بعدِ تفصيلٍ قلنا ان الطبّاعين يقفون من مهنتهم الموقف الذي يشرف بهم على كثير من الخلائق التـــي تطبع عليهم فـــي عقليتهم ونفسيتهم بل وفي صحتهـــم . وأبينها مما يُعرف عنهـــم ويعرفون به : خلق السّرعة ، ثم المصابرة والجلد، ثم الثقافة بسطحيتها العامة ، ثم التحزّب والتعصب ، وبعض هذه الخلائق وليد المهنـــة بذاتها ، وبعضها الآخر عدوى الملابسة والمخالطة .

ومهما يكن فان للطباعين أن يفخروا بأنهم الشركاء الأوفيـــاء فـــي حـــرفة الحـــرف .

وأنهم قوة النفوذ في دولة الفكر والنشر .

وأنهم المبدعون في فن المطالعة يستبدعونها أخذة سحرٍ واستهواء في الأبصار ، ويسيغونها مساغ الرحيق العذب في الأفكار .

واليهم اليهم انما يعود أوفر قسط عملي من الأمجاد الأدبيـــة ، وشيوع الثقافة العامة ، ورقيّ الحضارة واستبحارها .



من المدرسة ... الى المطبعة

ما أهوننا على القدر ونحن نفكّر وندبّر، ونهيء الاسباب ونحسب كل حساب ، ثم ما هو الا أن نستنّ الطريق مستوثقين من اصابة القصد ، وبلوغ الغاية حتى ننظر فنجدنا فجأة في مثل مجهلة ماخطرت لنا على بال ، ولا راودتنا في خيال ، واذا نحن من تفكيرنا وتدبيرنا ، وحسابنا وأسبابنا ، كل ذلك قد ذهب أدراج الرياح ، وكنا فيه كمن يبتني شواهق الآمال فوق الرمال . فان استقرينا العلة والسبب ، طالعنا القدَر ملكاً جباراً لايقهر ، وطالعتنا ارادته الصلبة عنيدةً لا تُغلب ، ثم طالعتنا حياتنا كأنما نسجت في خفايا الغيب على ما لا سبيل الى ارتقابها وتعرُّفها ، ولا ينفع فيها الحكم الحَتْم في العزم والحزم .

كذلك رأيتني أمثّل دوري في مسرحية حياتي المطبعية : أتحوّل عن المدرسة بأساتذتها وصفوفها الى المدرسة العملية بأحبارها وحروفها ، وأنا لما أتحوّل بعدُ عن العاشرة من العمر الى ما بعدها الا قليلاً . ثم أحتمل من عناء التدرب متدرّجا في المهنة التي اختارها لي القدَر ما لا يعلم مبلغه الا الله ، وما لا قبل بمثله لمثلي في انضواء جسمي وهزالي . وكأنني المنوَّم ينسحر عليه ، أستجيب لقدري المجهول الذي أتمّ تأليف قصّتي في حياتي ، ثم وقف يرصدني في ترجمتها تمثيلاً بأدوارها المتعاقبة على ما يحلو له ويتكافأ والمصير الذي قدّره ، ولا حيلة في مناهضته أو الحيدة عن ارادته .

ويا لهذا القدر الذي يلابسنا كالظل أو نكون له الظل وهو

الأصل ، فما يفارقنا ولا نفارقه ، ونقدّر ما نقدّر وهو يضحك منا ويسخر ... أما كنت والرفاق في المدرسة نعدُّ المئات مكرورة ، ولكلٍ منا مطلبه من الأمل في المستقبـل ، يستحث الخطا اليـه ، ما يرضى به بديلاً ، فلما أن أزفت الساعة ، وحان الرحيل ، وفصل ما بيننا وبين أمنا المدرسة ، تفرّقنا أيدي سبا ، كلٌّ الى ناحية وغاية من سبيله ، وكأننا ونحن نغادر عشّنا لكالأطيار تكـون على الارض جماعات متآلفة ثم تؤول ثكنات متناثرة متنافرة في الجو تحملهـا الريح ههنا وههنا كما يعنّ لها ، أو كأن مثلنا مثل الينابيع لاتتفجر عن داخلها حتى تتسرب مياهها خطوطاً بعضها المعوج وبعضها المستقيم، وبعضها يحتفظ بصفائه، وبعضها الى كدرة من طينه تُحيله غير لونه.

لقـد دُفعت دفعاً عن مناهل العلم، ففارقتها على رغم وما أصبت منها غير القليل مما لاينقع غلّة ، ثم طويت بداءتي في المطبعة أربـع سنوات كالحات حالكات هي سنوات الرّجة العالمية الاولى ، لايشغلني غير الطّوى يتلهّبني جوعاً لائعاً ، فأداريه بل أداويه ببعض ما يفثؤ ضرامه وسُعاره ، وما زلت حتى انبلج فجر السلم حاملاً في تباشيره ما يبشر بزوال الخطب وانقشاع الكرب . فاندرأت كمن بُعث من جديد ألتمس للحياة الفكرية زادها بعد أن توفّر الزاد للحياة المادية. وما أيسر ما وقعتُ على ضالتي ، وتطاوعت لي أمنيتي ، وكانت المطبعة هي صاحبة الفضل والمنّة بعوارفها وصنائعها المترادفة ، ما ينقطع درُّها أو ينضب خيرها ، وكانت الدليـل أبلغ دليل على أن المعاهـد الدراسية ليست وحدها مناهل للعلم ، اذ يسع المرء أن يُصيب من المعرفة ما شاء بعيداً عن جوّها اذا ما عرف كيف يلتمسها ، ويجدّ في تحصيلها .

أجل هي المطبعة كان لها عندي مآثر حميدة ، ومحامد أثـيرة ، لاينهض بها الشكر مدى العمر : ألم تغنني بالعلم جاهلا ، وبالثروة متربا، وبالمنبهة مغموراً . ثم ألم يقع أحدنا من صاحبه موقع السيف مـن غمده ، والمرمى من هدفه ، فكفتني على يسر مشقة الضلة والحيرة في

اختيار ما يتكافؤ وميولي واستعدادي ؟ وهي المشقة الكبرى التي قلَّما نجا من همها الناشئون بدءَ حياتهم ، وكثيراً ما أعقبتهم الشقوة طوال أيامهم من بعدُ ، اذ يحالفهم الاخفاق ويخالفهم التوفيق ، بل هي التي ما انفكَّت سبب الشقوة الانسانية في ضياع ما لا يحصى من المواهب والعبقريات التي تفوتها التربة الخصبة ، فتموت حيَّة ، وتحيا ميتة .

أن الملأ في أعمالهم طرائق : منهم وهو الأغلب الأعم من ينفق يومه في غير ما خُلق له ، وكأنه السجين في عمله ، والفكاك منه غاية أمله، يصرفه السأم كلَّ منصرف عن مواهبه ما ينتفع بها فيضيع هباء ، ومنهم ، وهو القليل ، يصيب التوفيق على غير وفاق من حقيقة استعداده لانه لايولي حقَّ عمله الا بعض استعداده ، ومنهم ، وهو النادر النادر ، من يتعبَّده عمله ويستبيه ، فيقف جماع همه عليه ؛ فيعنو له النجاح صاغراً ويحرز التفوُّق باهراً .

وهؤلاء الذين يدفعون التهمة في كسلهم وفشلهم بتهمة من ضيق ذات اليد وفقد الوسائل الى الجد ، انما يخطئهم التقدير كما يخطئون أقدارهم بحقها عليهم ، لانالغنى ليس شرطاً قاطعاً فيالنجاح، بدليل ان كثيرين ابتدروا حياتهم وليس عندهم من رصيد المال غير أصفار على الشمال ، وعلى ذلكشقوا طريقهم الشاق الى ذرى المجد، وتبوءوا منه عروش الشهرة ، وعلى نقيضهم اولئك الذين ولدوا على الحرير لا الحصير ، وكان كل ما حولهم ينبيء بالسعد صادق الوعد ، ولكنهم باؤوا بالخسران لانهم خسروا في نفوسهم العزائم المصممة والارادات الجازمة . . واني لأحمد القدر على ان فقري لم يثنني يوماً عن طلب المحامد في أبعد المقاصد ، ولم يك مطلب المال عندي الا الوسيلة ، لا الغاية ، كي أحطم أغلال الفقر التي ترتبقني كالأسير العاني عن سبق اقراني وزماني ، وأستجيب لداعي التفوُّق الذي تملكني ، فما استمالني والله برنين عسجده وبريق وَرِقه بغية اقتناء القصور، وابتناء الدور، وامتلاك الجواريوالقيان واستكثار الصحبانوالاخدان،

فيتطلّع اليَّ الناس من خلاله لا ليروني بصورتي بل ليروا صورتي في مثاله ، وانما تعلقت بأسبابه ومكاسبه أرقى بها الى ما يرتقي بكرامتي من كرامة مهنتي وهي أعز مناي أحرص حق الحرص على ان أوفّي بعض حقها علي سداداً قبل أن توافيني المنية حقاً موعوداً .

ولشدَّما كان يأسفني أن أرى الأكثرين على غير هذا المذهب يستطردون للمال حيثما تَسمت ريحُه ، وكيفما ابتدر ربحه ، باذلين في سبيله الكرامة مبتذلة ، والروح رخيصة مستذلة ، ثم هم ما يخرجون منه عمّا يدخل ولو ببعض الخير على وطنهم وأمتهم ، ليكون لهم مكسبة من الخسران : موتة في الحياة تنقلب من بعدها حياةً من اللعنات .

وشتان شتَّان بين من لا يعمل كادحاً الا ليجني المال ربحاً وكفى، وبين من يعمل يحدوه أمل الربح ليزيد عمله سعةً من آمال النمو والازدهار . ثم ما أبعد الشقَّة بين المعنى يقف عند المنفعة القريبة ، والمعنى لايرضى بغير الاقتراب من المنفعة لاتقف الا عند المطامح القصيَّة المترامية !.

وما كان حبّي المطبعة وتهالكي في هذا الحب الا لمنفعة ، ولكن أية منفعة ؟ أن أحذقها في فنونها وشتى شؤونها ، وأن أجتنيها ربحاً يعصم من الحاجة ، وربحاً يكفل العيش الكريم ، ثم ربحاً أستعين به على الخلوص الى الحياة المستقلة الحرَّة . فكنت منها كأني في شركة عادلة أمنحها من ذاتي وتمنحني مثله من ذاتها ، أو كأننا في الحب صبَّان نزل أحدهما من الآخر منزلة نفسه. وما أحسبني الاَّ الخائب المخفق لولا هذا التعاون الذي وثَّق بيننا ، فكان عوناً أكبر عون على التوفيق ، ذلك بأن عناصر النجاح اذا كانت وفيرة فان حبَّ العمل فيها هو العنصر الاول حتى اذا ما خلا منه آل الى الاخفاق والفشل، وما كان له هذا الخطر لولا ان الحب ، لاسواه ، هو القوة السحرية التي تهوّن المصاعب والنوائب، وتقوّي العزيمة، وتحول دون السآمة،

ثم تزيد فتتفتح بها الأذهان تفتح الزهر نداه طل الفجر ، وتنجلي عنها العبقريات في مثل السحر .

لقد تورّدني حب المطبعة عن طريق الأدب وأنا الذي شغفت به منذ الصغر . فلولاه لما عرفت المطبعة ولا عرفتني ، ولولاها هي لما انعقدت الأواصر انعقادها بين حياتي اليومية وحياتي الأدبية : كل منهما كان الى غاية من الآخر ، ثم اذا هما يتوحدان ليكونا غايتي المثلى في الحياة ، وليكون لهما قِبَلي من المآثر ما لا قبل بتوفيته حقه من الشكر ، وما لا سبيل معه الى حصر .

وكيف يتكافؤ الشكر أو يستوي الحصر في مهنة هي صناعة الى صناعات ، وفن الى فنون ، ثم هي الأدب والعلم والثقافة خالصة ، ثم هي الدربة الى أن يحظى صاحبها بشخصية تستوي بنتاجها في عميم مآثرها وخصائصها ، وكثيراً ما تبز سواها ألمعية نادرة وخصباً لايعرف الندورة .

كذلك انتقلت من المدرسة الى المطبعة ، فكان انتقالي من دار للعلم والثقافة لها أساليبها الخاصة وشهادتها الرسمية ، الى دار مثلها في التعليم والتثقيف ، ولكن لها أساليبها العملية القريبة ، كما ان لها الشهادة التي تتوجها العصامية بعنوانها .



أدبنا في دورين

كـان اتصالي بالمطبعة أواخر أول سنة من الرَّجة العالميةالاولى . وهو اتصال ازدخر بمعانيه الوفيرة من معاني أيامه المدلهمة العسيرة، ولن أتصدَّى للبحث ههنا الا لما له بالأدب علاقة وطيدة ، وما يتكشف عن الذكريات البعيدة ، فكيف كانت الحياة الأدبية الى ذياك العهد ، وأي الصور انطبعت في خطوطها وألوانها ، أتراها ممَّا يلذُّه النظر ، أم يتحوَّل عنه شأنه فيما يؤذيه ولا يرضيه ؟.

أمـا أن الوصف لن يخطئني أو أخطىء فيه حين أصوِّر الأدب في ربوع الشام لعهد غشياني المطبعة ، بالليل البهيم المدلهم ، وقد تمطَّى مسترخياً متثاقلاً حتى ظـن أن ليس له آخر ، ثم راح يستجمـع فلوله مولياً الأدبار أمام طلائع النهار ، فانجلى نوراً من ظلام ، وظلاماً من نور ، وتمثَّل نهاية الى بداية ماثلة ، ثم بـداية الى ما لايستشف ما بعدها .

والنهاية كانت عهد الركود والاسفاف في الحياة والأدب معاً ، وهما المتلازمان ، لا يفترقان ، لان الواحد مثال الآخر ، بل صورنه ومرآته . والبداية هي العهد الجديد الذي انبثق مع انبثاق العصـر الأخير ، وهلَّت منه التباشير ، ثم وضح وضوحه يوم انتقلت بـلاد الشام من طورها في عهد الطورانيين الى الطور الذي تنسَّمت فيه عبير الحرية والاستقلال . فكأنها دخلت في مثل الغسَق الذييفصل ما بين الظلمة والنور ، فما يزال به شيء من هذا وشيء مـن ذاك ، وكذلك كانت الحياة الأدبية لذياك الحين ، تحمل لونها من القـديم

القديم ولونها من الجديد الباده ، وبين اللونين صراع يعترك ليخلص الى غايته .

عهدان متقاربان من سبات طويل مستغرق آنت له اليقظة والنهضة ، وتجدُّد مستوفز حان له أن يجاري التقدم والوعي . وعلى قدر ما استطال الأول واستغرق كان على الآخر أن يثب ويتدفق . ولكنها طبيعة الركود تجعله لايتحول في الحال الى نشاط في الهمة وارهاف في العزيمة اذ لابدَّ له من فترة تقصر أو تطول لينفض عنه ما علق به ، ويتعلق بالجديد الذي أقبل عليه .

ومن الخير أن الأدب في الشام لم تطل به فترة انتقاله والتخلص من ربكته وعقاله اذ وسعه في أقل من القليل أن يبلغ مالا سبيل الى مثله في الزمن الطويل . فما هو الا أن انتهت الحرب برجَّتها العالمية، وقام العهد الفيصلي حتى انطلق الفكر انطلاق السجين امتدَّ به الأسر، وانبثقت العاطفة تترجم عن أحاسيسها بعد طول انحباسها ، فاذا صيحات العروبة والكرامة والحرية والتفدية تملأ ما بين الارض والسماء وكأن فيها هزيم الرعود غضباً على الاتراك في حكمهم المنكود، والى جانبها بوارق من الآمال الوسيمة تحمل أعذب البشريات الكريمة .

والذي يؤرخ للأدب الشامي في المستقبل لا يسعه الا أن يعترف بما كان للعهد الفيصلي من فضل على الأدب لاينكر ، وأثر قوي المنحسر، فقد اعتزَّت الفصحى يومذاك أيَّما اعتزاز بما استقطرته الأقلام انشاءً سليماً وترسلاً ناصعاً وسرداً مطَّرداً ، لاعهد بمثله من قبل، وسالت القرائح شعراً متدفقاً بالحماس يلهب القلوب في الصدور ، ونثراً تتخايل فيه معاني الاباء والفخار ما بين السطور ، وقصصاً من تاريخ الشام في مآسيها ، وهو تاريخ نضال وكفاح لاتؤسى فيه الجراح ولاينسى على الدهر . هذا الى أن نظم التربية والتعليم قد تطوَّرت، ومعاهد الثقافة قد تكاثرت ، وندوات الأدب قد انتشرت ، وتعدَّدت الصحف والمجلات ، ونشطت حركة التأليف والنشر بما لم يؤلف مثله، واذ ذاك وُلد المجمع العلمي العربي ، كما وُلد معهد الحقوق ، فخطت

الشام خطوتها المباركة الى الأمام ، ونعمت بأيام نامت فيها أعين الدهر فكانت أنعم الأيام .

واذا كان للمؤرخ أن يتعهَّد بطيب الذكر وجليل القدر هذا العهد الخيِّر البر ، فما شك في أنه سيقلب الآية عند التحدث عما أعقبه من انقلاب اثر انهيار عرش فيصل وتدسُّس الفرنسيين الى أرض الشام فاتحين مستعمرين بدعوى الحماية والوصاية ، فيرعف قلمه سخطاً وسخيمة عليهم ، وهم الذين قضوا في البلاد ربع قرن ضجَّت من ظلمهم وكيدهم الارض والسماء وما بينهما : فكانوا كالقضاء المبرم من الضراوة وتنزي الشر واستشرائه ، وكانت السنوات التي قضوها في الشام كأنما هي في تمطيها وتطاولها ومصائبها ولواغبها لاتقاس زمناً من ربع قرن ، بل أزماناً تتألف منها القرون .

لقد كان عهد الفرنسيين في الشام شؤماً وأيما شؤم كعهدهم في كل بلدٍ نزلوا به فنزلت الكوارث تترى عليه . كانوا كذلك في كل ناحية من نواحي الحياة ، وفي الأخص الحياة الأدبية ، اذ عقلوا الألسن فما تنبس ، وضيقوا على الأفكار فما تبين عما تهجس ، وسلطوا الرقابة على كل ما يطبع وينشر ، ونصروا لغتهم على لغة البلاد ، واشتروا بعض الضمائر تعيث بالفساد ، ولم يدعوا سبيلاً الى خنق الروح الحرة الا استطرقوا اليه حتى غدت المطالعات توافه من المعاني تغضب الأدب في معناه الرفيع .

بيد أن حرية الفكر مهما افتُنَّ في الحجر عليها فانها تجد منفذاً ومتنفَّساً ، ولقد كان لأدبنا تعلّته في أدب المهاجر والآداب العالمية ، فراح يسكن اليها في بعض ما يعتلجه ولا يسعه معالجته ، ويترجم منها أحياناً عما يترجم عن منازعه . ومن ثمَّ لبثت الحرب حامية بين الاستعمار يبذل قصاراه في الاجهاز على الحرية الفكرية ، وبين الأفكار والأحاسيس تتلمس كل طريق للاعلان عن حقيقتها ؛ وفي هذه الغمرة كتب على الأدب أن لا يسترسل مغذاً في سيره المأمون الى غايته المرجوة . ولكنه أفاد من ذلك ذخيرة غنية هي التي يفيدها كل أدب

من أيام المشادّة لتكون له من بعدُ خير ذريعة للاحساس والابداع .

ولا نكران في أن الأدب في الشام لبث واعياً متوثباً خلَلَ الغمرة التي تعرّض لها ؛ هذا اذا قسناه بما كان عليه أيام ركوده وانحطاطه ، أما اذا أريد التحديد الدقيق والتمييز والتحقيق ، ووزن الآثار بمقاييسها ، فلا ريب في أنه لم يواته النجاح الا يسيراً . ولا أدل على ذلك من أن ما ولدته المطابع طوال ربع القرن مما يتّسم بروح الأدب لا يكاد يؤلف صفاً صغيراً في زاوية مكتبة ، وما تبقّى كان كالسَّقط تشويهاً اذ هو عبارة عن تقليد وترديد كان من الخير الا تسوّد به وجوه القرطاس ؛ فمؤلّف قديم يكرّر ، وديوان شعر يفسّر ، وكتاب مدرسي ينشر ، ومقالات متفرقات أو نثارات من بعض الموضوعات ، كأنها الأعواد ، تجمع من هنا وهناك ، من كل واد ، ثم تتوّج بعنوانها ، وليس فيها تدقيق وامعان ولا جدّة واحسان ، فضلاً عما يتورّدها من تخليط تورّط فيه صاحبها ، لأنه لم يخرجها عن تفكير وشعور بقدر ما حمسه الى اخراجها حب المنبهة والظهور .

على أن هذا الفقر الذي مُني به أدبنا لم تكن السياسة وحدها هي سببه وعلّته ، وانما ثمة أسباب وعلل أخرى تعرّض لها كما تعرّضت الآداب جميعاً ، وأخصُّها الشيعبية التي أصبح لها الحكم في المطالعة ، والتواء مفهوم الحرية ، واختلال موازين العطف والتجاوب بين الناس . وانها لعمري لعلل جسيمة تتسبب للاسفاف بالأدب ووقفه على الرخيص المبتذل الذي يستشرف دغدغة الاهواء وطلب الاسترضاء عند الكثرة الكاثرة من العامة . ثم ما بالك اذا أضيف الى هذه العلل عامل السياسة الجائرة ، وهي التي تشتد في صرف الافكار عن القيم المعنوية الراقية ، وتجدّ في تيسير المساوىء الخلقية عن قرب كيما تكون ملهاة الطمحات الشريفة البعيدة ؟ أما ان ادبنا بما تغشّاه لكأنما اصطلحت عليه جملة من العلل ، لا علة واحدة ، فاذا ما صدر عن بعض النجاح فذاك هو النجاح القمين بالاعجاب لان له من خاصة الامتياز ما يشبه الاعجاز!.

ولعل هذه الخاصة في أدبنا هي التي الفت أكبر خطوط المنبهة لمثل الجزائري والقاسمي والامين وارسلان والكرد علي والجندي والمغربي والبزم والتقي ، من علمائنا وأدبائنا وشعرائنا المخضرمين ، ثم لمثل الكرمي وجبري ومردم والزركلي والارناؤوط والعجلاني والبدوي ومن اليهم من المجدّدين . فلقد صدروا جميعاً عن آثار ومحاولات قمينة بالقدر والاعجاب ، على ما تخللها من شوائب القديم وتحيّف الجديد ، وما أرى في وصف دورهم ونتاجهم أبلغ من وصف المرحوم الكرمي حيث قال : « .. وصف الراوية الانكليزي الشهير شارل دكنز في فاتحة « قصة المدينتين » عصر الثورة الفرنسية بقوله : لقد كان ذلك الزمن خير الازمان وشرّها ، كان عصر الحكمة وعصر الحماقة ، وعصر الايمان والالحاد ، والنور والظلام ، وكان ربيع الامل وشتاء اليأس .. » . وقد أراد بذلك أن يصوّر مبلغ الاضطراب في روح ذلك العصر . ولو حاول أحد أن يصوّر الروح الأدبية في محصول أدبنا لأيامنا في تيقظه لما وجد وصفاً يفي بالدلالة، على ما فيه من الاختلاط والارتباك ، مثل وصف دكنز الذي تقدّم ، ذلك لان الأديب العربي كان في دور انتقال ، وأدوار الانتقال تمتاز بكثرة الظواهر الفجائية واختلافها وسرعة تبدلها .

وبعد فلأوجز فأقول : ان الأدب عندنا قد تأثر بعوامل متعدّدة : تأثر بالحياة التي مرّت بنا خيراً وشراً ، وبالعهد الفيصلي الخصب ، وبتقدم العلم وذيوع الثقافة ، وبالأدب عن مصر والمهاجر ، وبالرجّات العقلية في العالم .. ثم لقد اعترضت سبيله عقاب جمة كالحجز على الحرية ، وبغي السياسة ، وتأخر الحياة الاجتماعية وبخاصة انعزال المرأة ، زد على ذلك فقدان التشجيع، وندرة القراء ، وطغيان المطالعات الغثة . واذا ما تدبرنا أدبنا اليوم وهو يشق طريقه اثر نجاته من دور انحطاطه وخلوصه الى دور تجدّده ، رأيناه ما زالت تسيطر عليه جملة من المؤثرات ، وتربقه عدة عقبات ، وما يزال الطريق دونه بعيد المراحل، جمّ الحوائل ، الى ما يرفعه أدباً حياً على سواء من الآداب العالمية الحية .

الحرف العربي في علله

ما برح الحرف العربي منذ أقدم الأزمنة يعاني برحاء العلل المزمنة ، محتملاً منها ما يرتبقه عن مجاراة سواه في بقية اللغات الحية ، وما يغضّ من شأنه ليظهره بمظهر العاجز المتخلّف والشاذ المنحرف . ولطالما ذهب الرأي في ذلك شيعاً وأوزاعاً حتى لقد قطع الكثيرون بالقنوط ليس فيه نبض من رجاء ، ولم يبق الا الأقل من القليل ما زالوا على انقطاع قوي الى الأمل ، لا يتخالبهم أي ريب في امكان التأدي الى ما يشفي العلة ، وينقع الغلّة ، وان طال العهد ، وشقّ الجهد ، وبين هؤلاء ما ينفك الحرف في علّته يلتمس الشفاء من محنته .

وقبل أن نتأدى الى بحث الحرف العربي في علله لانجد بداً من ادارة القول على الدور الهامّ الذي يؤديه الحرف على صغره وضآلة جرمه في حياة اللغة ، وما يقتضيه من الحفل والرعاية كفاء ضرورته من خطورته .

فالحرف بمفرده معنىً على انفراد ، اذ يستوي عملاً واحداً في أعمال كثيرة ، فهو قَسمٌ ونداء ، واشارة وكناية ، وهو عطف وجر ، ووصل وفصل ، وهو جمع وفرد ، الى غير ذلك مما اختُصّ في اللغة حتى كأنه منها لحمها ودمها ، بل قوامها في روحها وحياتها . وانه في الكلمة لأشبه باللّبنة الى اختها في البناء ، تتقوّم به ولا تنهض الا بسببه ، فاما استوسقت عذبة في لفظها أو لم تعذب ، أي على قدر ما تكون من التناسب نظماً واتساقاً ، واما استروح اليها السمع

سائغة نديَّة ، أو عدل عنها ومجَّها ثقيلة عصيَّة ، بسبب من التوافق أو التشعث في ذات تركيبها أو ذات معانيها ، ثم هو – أي الحرف – مضاعفة واضعاف ، يكون المشرقَ الجذاب في صورته فيضاعف اللذة بالمعنى وقد استوى مثله مشرقاً جذاباً في وحيه ، وعلى النقيض فهو الى اضعاف المعنى مهما راع وشعَّ حين يخبو بشمسيه ، ويجفو في تعبُّسه ، ويفقد مع التداول روح حياته كأنه الميت في رمسه. وما أظلمه في البصر والبصيرة معاً اذ يتوارد ضغثاً على ابَّاله ، فما يُحمد لا مظهراً ولا مخبراً ، كأنه الطعام المستوخم فسد بروحه ورائحته فضاع بحقيقته لم يبق منه غير صورته .

أجل ان للحرف خطره ، وانه وأبيك لجسيم عميم ، اذ ما قولك والنقطة فيه مزيدة أو مُنْقَصَة ، أو الحركة استبدلت غيرها ، أو هو قد قدِّم أو أُخر عن موضعه ، أو تنافر وتناكر مطموس الأثر ، مجفوَّ النظر ، مفقوءاً بعينه ، محطَّماً في أسنانه ، معتلاً ببعض أعضائه ، فاذا بالقارىء يرتدّ عنه فيما يكون قد تأدَّى اليه في عقله ومضى في سبيله ، الى مثل مجهلة موحشة بعد اذ كان في روضٍ أريض توهجت أنواره وراقت مناظره ، أو هو كأنه مما بين يديه في مثل اسوارٍ من الاحاجي والمعميات استغلقت مطبقة على نفسها ، لم تتركْ من انعدام روابط المنطق وأعمال الفكر الاَّ الحيرة تتلبَّس القارىء وتستغرق حسبَّه بغمَّتها وغمِّها ؟ أما ان الحرف الواحد في انحرافه ليسيء الى الجملة بمعناها المجمل كما يسيء الطفل الغرير يصدر عن العبث الصغير فلا يغبُّ غير الضرر الكبير .

ولا بِدْع أن يكون للحرف هذا الشأن والمعاني تموت حتف أنفيها اذا ما كانت حروفها التي تترجمها مطبوعةً طبعاً سقيماً مغلوطاً ينفر منه الذوق وتزورّ عنه العين ، فتفقد المطالعة حظها من لذة الشوق ، وهو الحظّ الذي لابدَّ منه لخلق أجواء الجمال ، وابتعاث روح المتعة والاقبال ، واستجماع القوى المفكرة دون التواء أو بعثرة .

وشتان شتان بين الحرفين ، ترى الى أحدهما وضيئاً باسماً

كأنما فتح نفسه لاستقبالك على الرحب والسعة ، وترى الى الآخر قاتماً عابساً كأنه يكفؤ لك بالحجر تلو الحجر استبعاداً واضطغاناً . فيتصل بك في الحال الأولى اتصال رفق ورَوْد ليجتذبك فتنةً ونشوة اجتذاب الورد ، وليطالعك في مثل اختيال الحسناء اقبالاً دون صدٍّ ، أو السحابة الرقيقة تشف عن نورها وتغامزك مغامزة الودّ ، وينسم عليك بروبحات كأنها من انبعاث الخلد . أما في الحال الثانية فأنت منه كأنه الشيخ الفاني لم يبق منه الا الحطام بعد اذ أخلقت جدته الأيام ، أو اللئيم المقنّع بحجاب صفيق ليحذف البصر عن حقيقته بكل استبهام وضيق ، أو المعتلّ آده المرض العياء ودار به من سائر الأنحاء ، أو الأشواك تؤذي الناظر والخاطر على سواء .

ولولا الحرف استماز به الانسان في النطق لقد كان اذن كغيره من المخلوقات الدنيا التي ارتفع فوقها وسيطر عليها ، فأيُّ شأن من الخطر اذن لهذا الحرف الدقيق الصغير الذي سمت به الانسانية ، وترجمت به المعاني الفكرية والحسية ، وانجلت به آيات العبقرية ؟

وما أذكر أني أعجبت بشيء في مطالعاتي فاستخفني شوقاً وانجذاباً الا خيل اليّ كأن في حروفه وبين حروفه ظلالاً خفية ترفّ في عيني ، وتكشف عن نصابها في ذهني ، وتحدثني بلغتين اثنتين : لغةٍ من صاحبها في فنه ، ولغة من فن حروفها ، أو كأنني الى حسناء فتانة تغامزني بمعانيها الظاهرة من روحها المستترة ، فاذا أنا أسيرها في أسرارها لا أطيق تحويل النظر عن سحرها . ففي الحرف اذ يتمثل جميلاً أخاذاً روحٌ من فتنة الجمال في شتى آياته الباهرات ، وهو يتعاظم الى ما لا نهاية حين يتناهى اليه جمال القول والفكر كأنما يتحدَّث قائلاً : أيها الحرف هأنذا اخلع عليك من بهائي وروعتي مثل ما تخلع علي من مطارف زينتك ، فنحن سواء في لغة الحسن ، وأسلوب الفن ، والمعنى المتكامل .

من اجل ذلك تجدنا في المطالعات التي تلذُّنا لانرجو مثل ما نرجو أن يمتدَّ بنا نفَسُها الى ما لا نهاية ، فنقلّب الصفحات عفواً

بين الحين والآخر خشاة أن تنفد بمددها من مادّتها ، فتفوتنا اللذةفي مطعمها ، وينحصر الزمن فيما تبقى من متعتها ، وذلك على خلاف الحال حين نرسل النظر في الكتب التي فسد الذوق في طباعتها ، فما نطالعها على جلالة شأنها الا كمن يتجرّع صاب الدواء على مرغمة واستكراه .

وعلى الجملة فان الحرف في الطباعة لأعظم شأناً منه فياللغة، اذ كان القصد منه في الأصل هو الفهم بينا هو فيالطباعة يؤديوظيفة الفهم ويزيد ليتمثل قوةً من الاغراء والجذب .

وبعدُ فلنحصر الآن علل الحرف العربي فيما يماسّ الطباعة ويستطرق اليها ، وهي في رأينا ثلاث : تعدُد الحروف ووفرتها بأجزائها ، ثم ندرة خطوطها في أنماطها ، ثم الصعوبة في تشكيل حركاتها . ونحن قائلون في كلٍّ منها قولاً يُطرّق الى معرفتها عسى أن يكون في ذلك ما ينجع في الطبّ لها ، ويستوقد العزيمة على معالجتها ، ثم التعجيل في سلامتها ودرءِ مخاطرها .

أما الحرف العربي في تكاثر أجزائه فبحسبك أن تعلم من سوء حاله ومقدار المشقة في أعماله أن بيوته في صناديق المطابع تربو على الخمسمائة عداً ، فهذه واحدة ، ثم هو في الحيّز الذي يشغله من مكانه ليقتضي ما لا يقلّ عن الذراعين منالمساحةطولاً ومثلها عرضاً، وهذه ثانية ، ثم ان استظهار مواقعه على حقّها من التثبت ودون أيّ اعتسار في التنقل ، ليستغرق الزمنالطويل والمراس والمعاناة وما هو منها بسبيل ، وهذه ثالثة ، أما الرابعة فان المنضّد في استجماع أجزاء الحروف لتراه أشبه بالدراويش فيحلقات الصفوف ، ينتصب كالمارد ليدور على نفسه كرحى الطاحون ، يمتدّ بيده مذرّعاً يمنة تارةً ويسرة تارة على بعد ما بينهما ، ويصعد بها عالياً كمن يصعّد الى شواهق الذروات ، ثم يهبط فجأة الى الأسفلكمن هو فيمنحدر، مضطرباً مترنحاً بكل مافيه ليقاسي من الجهد البليغ ما لا يعلم مبلغه الا الله ومن هم على نحوه في أتوه. فاذا انت قارنت هذا كله بمساوئه

مع الحرف اللاتيني في معانيه من متبوئه طالعك من الاختلاف مثل ما بين الارض والسماء ، اذ أنت ههنا أمام صندوقة لاتتجاوز عرضاً وطولا نصف الذراع ، وبيوتها في حدود المائة لا اكثر ، والعامل يجلس اليها مطمئناً ليبادر عمله هيناً ليناً ، كأنما هو الى لعبة من النرد أو ما هو بسبيلها .

وما شك في ان المنضّدة الحديثـة ، وهي المعروفة باللينوتيب والانترتيب ، قد وسعها أن تخفف من العناء أكثره ، وتقصر من زمـن العمل وتختصره ، وتمكّن من الاجتزاء بحيّز ضيّق من الأمكنة . ثم أن تجري بالحرف مستجداً أبداً كأنما هـو ابن ساعته في خلقـه وصورته . ولقد تأتّى لها من قريب أن تتخفّف من مجموعة الحرف بمقدار النصف ، وذلك على طريقـة الازدواج ، أي بتوحيـد ما كان مفرداً مع مثله في آخر الكلم ، وما يجيء ابتداءً مع عدله في الوسط . وعلى أن مثل هذه الطريقة بعيدة عن الذوق النظري في طباعة الحرف العربي ، فانها في الحق قد قطعت شوطاً بعيداً في حـلّ معضـلة التكاثر الحرفي في منفرعات أجزائه ، وامتهدت للغاية المنشودة من استصلاحه والتهوين من أسوائه ، هذا فضلاً عما يلحق ذلك من الميل نزولاً بالتكاليف الباهظة بما يعدل النصف تقريبا . وهو أمر لايقدره الا من عرفه واختبره .

فاذا تحوّلنا من بعدُ الى النّدرة في الخطوط العربية ، وهي من القلة بحيث لاتتجاوز عدد الأنامل ، بين النسخي والفارسي والثلث والرقعي والكوفي والديواني وما اليها ثم قابلناها على حصرهـا بما تعرفناه من سعة الأنماط في الحروف اللاتينية ، وهـي عشرات بل مئات بل ألوف ، تبيّن لنا الفرق الذي يبعث على العجب العاجب ان لم نقل الفَرَق الغالب ، والعجز والتخاذل ، والاّ فما تأويل الا يكون الحرف في لغتنا مثله في لغةغيرنا ، متنوّع الشكول ، مبتدع الرسوم ، بريع الخطوط ، لا يقع منه الناظر الا على الجديد الآسر ، والأثير المحبّب ، فيكون منه المستطيل في علو ، والقصير في دنو ، والمربّع في جثوّ

وحنو ، ومنه المظلّل والمجلّل ، والمتوج والمدجّج ، والمستقيم والمنحني، والمعرّق والمنمق ، وهلمّ الى مالا نهاية من أوصافه وأصنافه التي يجد فيها كلّ طلبته ، ويشفي بها غلّته ، ويتمثل فيها ذوقه وغايته . أما ان هذا الفقر المدقع ليتسبّب لكثير من الأسئلة عن مصدر العلة ، وتنفسح فيه الأجوبة لما لانهاية له من الريبة . وما أرى مردّ الصواب في هذا الباب الا التقاعس وفقدان التنافس بين القادرين والمختصّين، اذ كان في الحرف العربي وما يزال مجال وأي مجال للتطوير في فن الرسم والتصوير ، بدليل أن من استبقونا قد أوجدوا فيه قواعد عدّة، وفرّعوه الى مجرّدات مختلفة ، واستولدوه ثمرات متغايرة ، فليس من المعدلة أن يُحكم عليه بالجمود لمجرد طبيعته في الاتصال، كما يزعم اليوم الزاعمون . وهو لو حسنت النية في تحسينه ، ونهضت الهمة الى استنهاض دفينه ، والافتنان في رقنه وتزيينه ، ثم التنويع في أساليب تدوينه ، لقد كنا اذن ننعم بالجم من الخطوط ، ما نتشكّى فيها حصراً أو ضراً ، ولكن انصرفت الآراء الى الجمود، وانعدلت القرائح الى الخمود ، وتبلّدت الهمم على القعود ، فصرنا الى ما نحن فيه حروفاً في لغة السابقين الناهضين لامعنىً لها ، وحروفاً في أساليب التجدد والتطور كأنها القعيدة الكسيحة . فنحن لأيامنا في حاجة ما بعدها حاجة الى ما ينفض الحرف المطبعي نفضاً ، لينهض به الى مستوى الحروف العالمية تنبض فيه الحياة نبضاً ، فندلّل بذلك على أن عبقريتنا الفنية ليست دون غيرها عطاءً وفيضاً .

أما ثالثة الأثافي كما يقولون ، وهي الصعوبة في تشكيل الحروف العربية ، فان هذه العلة التي طالما تشكتها مطابعنا ولغتنا معاً ، وبذلت في سبيلها المجهودات عبثاً ، وتبخّل الفكر فما صدر فيها عن حكم قاطع في الدواء الناجع . قلنا ان هذه العلة المستعصية وهي أيضاً مما يتعلّق بها تقويم اللسان العربي الى حدّ بعيد ، لامخرج لنا منها وأكثر المفردات في لغتنا سماعية ، الا بالتحمل على ما يلي :

أولاً : تخصيص درس في مدارسنا لاستظهار بعض آي القرآن الكريم والنصوص الأدبية شعراً ونثراً .

ثانياً : الأخذ بتشكيل الكتب المدرسية كافة كيما يمرن اللسان على الفصيح الصحيح ، ويتعرّف الناشىء منذ الحداثة وجوه السّداد في اللفظ ، وما قد يفسح في ملكته اللغوية ، فما يغيب عنه المأنوس من الغريب ، ولا الفصيح من الركيك .

ثالثاً : التنبيه الى ما يخطىء فيه اللفظ في المطالعات العامة ، وبخاصة ما كان منها في المجلات والصحف ، وهي الأكثر قراءة ، فهي الأوجب ضبطاً في حركات الكلم .

رابعاً : الاجتزاء فيما يختص الطّباعة بالنبرة المشكولة ، وهي السهلة ، عما عداها من حروف الشكل الأصيلة ، كي لانزيد في عدد الحروف المستعملة .

خامساً : العناية القصوى من قبل أهل اللغة ، سواء عن طريق المجامع العلمية في مجلاتها ، أو الاذاعات في برامجها ، بتقويم الأخطاء الشائعة والألفاظ المريبة والأفعال في صيغها المنحرفة ، فيُعلن عنها في الأقل مرة في الاسبوع ، ثم تتكرّر بين الحين والآخر ، تنويراً للأذهان وتثبيتاً على اللسان .

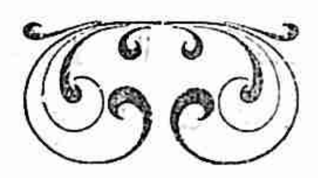
وما شك في أن مثل هذه المآتي لن تحسم العلة ، ولن تختم عليها بحل المشكلة ، ولكنها هي الخطة الأقرب والأيسر الى المطلب المنتظر ؛ وهي كذلك المبْتدَر يغلب على الكثير من الخطر .

وان لنا باللغة الانكليزية أسوة ، فهي كما نعلم سماعية في معظم الفاظها ، ولا قواعد يرجع اليها ، وعلى ذلك لم ييأس القوم ، فراحوا يتصنّعون لتيسيرها بكل وسيلة وحيلة .

ولعلّ الفكر بما يستولد من عجائب هي كالمعجزات يتهدّى في يوم من أيامه الى ما يستر الخلّة ، ويطبّ للعلة ، في مشكلة الشكل العربي ، فتفوز الفصحى بالأمنية التي طال ارتقابها ، وضنّ الزمن ضنينه

بتحقيقها ، ولم يحظ الفكر بما يكشف عنها الغطاء ، ويحقق فيها عظيم الرجاء .

أما وان أجدادنا في أوليتهم لم يعجزهم استنباط حروف الهجاء، وهم أول من استنبطوه ، فليس يشق على أحفادهم من بعدهم أن يجدوا السبيل الى ما يظهرهم على مشكلة التشكيل وان ظهرت لأيامنا صورة من الاعجاز وضرباً من المستحيل .



الطباعة ومصطلحاتها اللغوية

أن في لغتنا لعهدها الحاضر مواطن من الضعف ليست مما يُستهان به أو يستخف ، وهي مما يربقها عن مجاراة غيرها ، ويتسبَّب لانحصارها والحدّ من قدرها واعلانها غير حقيقتها في مظهرها . ونحن ههنا لانعرض الا لواحد من أعراضها وأمراضها ، وهو فقرها من حيث المصطلحات المستحدثة ، وقد تعاظم به الخطب وجلّ حتى كاد لايجدي فيه أيّ طب ، وحتى لتوأد مستولدات جمَّة بمعانيها الظاهرة بسبب من غياب مادَّتها من اللغة أو مخالفتها لسُنن اللغة واصولها . وما أكثر ما يغم على الأقلام إمَّا يُعجزها البيان السليم في كثير من المفردات وأبنيتها ، لا تجد من اللفظ الفصيح لبوسها ، ثم ما أكثر ما يُلقى في أيدي الغيارى على اللغة وهم يرون الى هذه المفردات النَّادَّة تتكاثر مطَّردة يوماً إثر يوم تلقاء التطور الذي يعم ، الى أن غدت تؤلف مثل المعجم بحيالها في لغتنا بمعاجمها ، لايُخشى مثل ما يُخشى أن يطمس منها الدخيل على الأصيل ، فاذا العربية ، لا سمح الله ، لغة أثرية كغيرها من اللغات الدارسة التي عفَّى عليها الدهر بعد الذي تورَّدها من المحن هوناً ووهناً من أهلها .

وأي فقر لعمرك أدقع وأوجع من أن يحاول أحدنا الوصف فتقعد به العبارة ولا تواتيه كأن في لسانه عقدة أو آل في قدرته البيانية الى قعيد لا تتأتّى له الإبانة عما يريد الا ايماءً وتلميحاً كما هو شأن الخرس حرموا نعمة النطق . فهو لايملك من نسيج لغته ما يلبسه هذا الذي تمثلته عيناه ، ولا حيلة له في الدلالة على معناه الا أن

يسوقه بلفظه من العجمة الهجينة أو العامية الشائهة .

أما ان وصف الفردوس السماوي على رحبه وما خصَّ من عرش أعلى ، وملائك تحف وترف ، وحور عين قاصرات الطَّرف ، ومن صحاف من ذهب ، ومتكآت وأرائك ، وأساور من لؤلؤ ، وثياب خضر من سندس واستبرق ، ومن سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزراري مبثوثة .. ان مثل هذا الوصف لأهون والله وأيسر من وصف منضدة صغيرة بأدواتها أو دواة بأساودها أو جهاز بمنفرعاته ، فان دون ذلك من فقدان المتقابل بين الأشياء بصورها وكفاء اللفظ في تصويرها لحوائل وموانع ، ترتبقنا أيما ارتباق لتفضي بنا الى مثل العجز والاخفاق .

فان رجعنا الى منازع الرأي في هذا الوضع رأينا ما يبعث على الأسى ليس فيه ما يحمل على التأسِّي لأنه مصيبة من مصائب عدة تعاقبت فيها الظنون واهمة ، والمهانات جاهمة ، والأخطاء داهية ، والتعللات واهية .

فثمة من يتخالجه الظن الكاذب ، فيذهب الى أن لغة الضاد لو لم تكن قليلة السناد ، ضيِّقة العطن ، جدبة بتربتها ، منزوفة بمادَّتها ، حتى لكأنها المريض الممعود تتجهم أحشاؤها لما يُلقى اليها ما تجد له أي مساغ ، لقد كانت اذن تهضم في يسرٍ هذه الألوان الغريبة مما تقدمه لها الحياة على مدى الأيام ، ولكنها لاتجد كفاء ألوانه من صيغ الكلام .

وثمة من هان عليه الأِباء اللغوي ، أو فسد عنده الذوق الأدبي ، أو تعاظمه اطّلاب الصحيح بعوامله والتسبُّب له بوسائله ، فآثر الهجين القريب منالاً واستحصالاً على الصريح الخالص لايتيسَّر عفواً صفواً ، ثم اندرأ يلوي لسانه بالأجنبي الدخيل من الكلمات والعبارات ، حتى فيما كان له مساقه ومداره من لفظه ومراده في لغته ، ذاهباً الى أنه بمثل عمله هذا انما يدلُّ على نزعته الى التجديد ونزوعه عن الجمود ، وهو في الحق لا ينزع الا الى العقوق كفراناً بلغته ، والاَّ الى النكران

أو التنكر لقوميته . وكذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون .

وثمة كذلك من يستمسك بنظرية تصويب اللفظ على خطئه متى عمّ وشاع ، ودرج على الألسن وذاع ، بل ويؤثره على مثله صحيحاً وقفاً على أقلام البلغاء ، فهو بذلك يشتري الصحة بالفساد ، والرشاد بالضلة والعناد ، ولا يهمّه أن يقع على الجوهر بين ركام المدَر بقدر ما يهمه المدَر لا يعنّيه فيه طلب الجوهر ، وما دامت الكلمة عنده تؤدي معناها مصيبة فمن غير الصواب ، بل من المصيبة ، انكارها لمجرّد أنها لاتستقيم في صيغتها ونظمها عربية .

هذا ولسنا نعدم من يركب رأسه ليزعم بأن تقبُّل المصطلحات الأعجمية على علاّتها في تركيبها والتواء اللسان بها ، لهو الوسيلة لا وسيلة دونها للخلاص من العلة الدويّة التي طالما تشكّتها العربية ولم تجد للخلاص منها سبيلاً ، وقد يتعلّل لزعمه بأن اللغات إنما يستعير بعضها من بعض ، ولا غضاضة عليها في ذلك أو اغتماض .

وعلى هذا كله ننظر فنرى مجامعنا على اختلافها ، علمية ولغوية وأدبية ، قابعة مكانها ، قانعة بهوانها ، تتعاقب المأساة دونها بأدوارها بين سمعها وبصرها ، لاتحرك ساكناً ، أو تقوّم في التصويب لساناً ، أو تنشط الى العمل نحتاً وتخريجاً واشتقاقاً وتعريباً ، كأن الأمر لا يماسّها في قليل أو كثير ، ولا يستوجب النظر والتدبير ، مع أنه واجبها الواجب ، اذ هي أملك له وأنهض بتبعته ، وأعرف بحقيقته ، وليس منها عوض في حقه ان لم تبتدره هي بدافع من حق اللغة ، وما هو على غيرها مثله عليها . أما أن تتبلّد فما تبدي ولا تعيد ، فان واتتها الحركة فلتسلخ السنين المتعاقبة في تعقيب سفر وتحقيقه ، والجداء فيه نافلة من فريضة ، أو لتعقد الجلسات طوالاً لاتعقب طائلاً ، أو لتسمعنا من المحاضرات ما نحضر مشابهه ، بل ما يفوقه شأناً ويرجح عليه وزناً ، فذاك والله لهو الشرّ الذي لايعدله شر ، اذ كان معناه هو المعنى الذي يوحيه منظر الرجل يُعنى بتزيين سقف داره وتحسينه والحريق قد دار به ممتداً اليه بألسنته ، أو مشهد

هذه التي تمسح على وجنتيها بالحمرة زاهية دليل صحة وعافية بينما المرض يبري رئتيها بري القلم يهيء لها رمسها بين الرمم .

ألا ان المجامع في البلدان الناهضة لهي التي لا تألو جهداً ، ولا تدخر وسعاً في ترويض لغتها على ما يهوّن عسيرها ، ويذلّل جامحها ، ويمكّن من قيادها ، وهي التي تربض راصدة بالعين اليقظى لكل طارىء عليها تردّه وتلفظه غريباً مستهجناً ، أو تقبله وتتبنّاه غير غريب على نهجها ومزاجها وأوضاعها ، وتجدها على الأيام ساهرة لا تنفك تغربل حصيد الأقلام كما يغربل الركام ، لتستصفي الخالص المختار تضيفه الى كنوزها ومدّخرها ، وتستولد بأفانين النحت والتخريج والصياغة والتهذيب ما لا بدّ من استعماله ولا معدل عنه لفقدان عدله . ومن ثمّ كانت هي هي القوّامة على اللغة تبعث فيها نسغ الحياة لتظل أبداً نضرةً بدوحتها ، مورقة مزهرة مثمرة ، تجاري الحياة بما جرى في عروقها من دم الحياة ، وتتّسع لكل بدع مستحدث بما اتّسع من صدق عزيمتها في التجويد والتحديد والتسديد .

ولا جرم أن هذه التهم التي تلصق لصقاً بلغة الضاد ، وكذا الشبهات التي تستطلع من حولها حالكة كالظلمات ، لا شيء أيسر من دحضها وتجليتها وهي التي لا يمسكها شيء من الصحة ولا يستمسك بها الا من ختم الله على قلوبهم وأبصارهم فكانوا واحداً من أربعة : جهولاً أعمه تخوّنته البصيرة ، أو عاجزاً غبين الرأي ، أو دَعياً عيِيّاً يتنسّب الى الفصحى وهي منه براء براءَة الذئب من دم ابن يعقوب ، تجحده منتفية منه بعد اذ جحد فضلها وامتيازها ، ولم يتورع في سوق ما يتنافى وحقيقتها في ذاتها ، أو خصماً من جماعة الشعوبيين ممن فسقوا عن العربية وانطووا على دِخلة ونية ، يكيد لها باسم الغيرة بما يكاد يسلكه في عداد الخلّص الأوفياء وما يكنْ لها الا ألدّ الخصام .

ان العربية التي تنزل بها التنزيل الحكيم جامعاً مانعاً ، وقد وسع في سطوره وما بين سطوره مادقّ وجلّ من المعاني لم يضق بها ، واستودع قصص الأولين والغابرين لم يعجزه سردها وسوقها في

كمال اتّساقها ، وأحكم البيان في تفصيل أحكام المعاملات على تباينها لم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة الا أحصياها ، وتعرّض لمطاوي النفوس فعرضها جلية بخفاياها ، ووصف السماوات بطباقها والأرض ومابينهما وما تحت الثرى ، كل ذلك وسواه ببيان ناصع ، وبلاغة لم تبلغ الى بعضها لغات الارض ليومنا ، ونظمٍ هو روح الخصب في الفطرة العربية ، فضلاً عن السعة شمولاً ، والمواتاة سجالا ، والتنويع أثيلاً بذيلاً ... قلت ان العربية وهذا شأنها في قرآنها ، وهذا شأن القرآن فيها ، ولها اعجازها في التصريف حتى ان الحرف الواحد منها ينفرع انفراعه المديد الى معانٍ متعدّدة مختلفة الأغراض ، زد على ذلك تقبلها بصدرها الرحب لكل ما نقل اليها عن الحضارات عند الفرس واليونان وغيرهما ، لايصحّ في وجه من الوجوه أن تتّهم بالعجز والجمود ، والتخاذل والتضاؤل ، أو يغتمض من قدرها غمزاً وامتراءً بعدم القدرة على مجاراة الحضارة في كل زمن ، والزمن في كل حضارة .

وما كان لها لعمر الحق أن يتشدق بالتشنيع عليها هؤلاء المتشدقون لولا تقاعس أهلها بعد اذ قعد بهم الدهر ، وأصابهم ما أصابهم من الذلة والقهر بما لو تورّد غيرَهم بعض بعضه لانطوت لغتهم بصفحتها واندثرت بسيرتها ، ولكنها العربية الخالدة ، والقرآن روحها وجناحها ، وحياتها ومساكها ، قد غلَبت على الدهر ، وامتدّ بها العمر ، وما هذا الذي أحاق بها الا كالذي يكون بين الشمس والسحاب يدور بها ويلقي عليها مثل الحجاب ، ثم هي تمّلّس على الأثر ما تبقي له أي أثر ، منبعثةً بنورها خلقاً جديداً من الحياة للحياة .

ألا ان من الواجب الحتم أن يتعاون حملة الاقلام وعلماء اللغة ، يسندهم القادرون من أهل الحكم والفضل ، على استحياء مجدنا اللغوي ، آخذين بما أخذ به أمثالهم في الأمم الناهضة ، بل بمثل ما أخذ أجدادهم ، وهم الذين لم يدّعوا علماً ولا فناً ولا صناعة ولا ناحية من نواحي القول الا كافؤوه مقرنين بما يقترن به لفظاً وتمثيلاً .

وليس ذلك بالعزيز على الهمة حين تشحذ مضاءً ، وعلى التفكير يستحصد فيه الرأي والتدبير ، وعلى الثبات لايتعاظمه أمر ولا يقف دون غايته .

ولعلّ من أخصّ ما يقتضينا واجب العمل ورائد الأمل أن ينفرد كل فريق منا بتأليف ما يشبه القاموس الصغير بمفرداته ومصطلحاته التي تتطلبها طبيعة عمله في يومه ، ثم يرفعها الى المجامع المختصة ، لتقرّ منها ما تقرّ ، أو تحوّر ما تحوّر ، على ما يتّسق وروح اللغة في فطرتها ، ثم يأخذ باستعمالها أرباب الأقلام وأهل المهن ، فاذا هي بعد قليل تدور على الألسن سهلة لطيفة ، واذا هي تغلب على مرادفها الأعجمي . واننا بمثل هذه الخطة نقطع شوطاً ليس بالقصير في ميدان التجديد ، ونقع على الفاظ دقيقة التحديد ، لالبس فيها ولاتعقيد ، ولا نفرة أو شذوذ .

وجرياً على هذه الخطة وضعنا ههنا نبذاً كمثال يحتذى من المصطلحات المطبعية بمعانيها من الصناعة العملية ، كما تحقق لنا صوابها ، وصحّت بموقعها في بابها ، وليس يمنع منها مانع أن تجري مجرى التداول لتوفيتها بالقصد من غايتها في مدلولها وغايتها من العربية في صيغتها . ولقد أحصينا فوق المئة عداً من ألفاظ متباينة يرجع بعضها الى أصل أعجمي ، وبعضها يلفظ مغلوطاً ، أو لا يصعب وجدان كفائه من الفصيح ، أو هو في قطرٍ غير لفظه المصطلح في قطر آخر ، وبالاجمال فهو يفتقر الى التدقيق والتحقيق لاخراجه بمعناه مخرج صحة تقرّه الصيغة العربية في مبناه .

أما ما نذهب الى تصويبه ونقطع في صحته فمفردات منها : الراموز أو التجربة وهي (البروڤا) ، والمِلْزَم أو المِلْزَمة لما يُشدُّ به الأوراق بين خشبتين في صناعة التجليد ، أو للكراسة من الورق تألفت من أربع أو ثمان أو ست عشرة صفحة أو ضعفها ، وجُوَيْز (البيليت) ، والرقعة (الاتكيت) ، والبطاقة (الكرت) ، والانموذج (الفورمة) ، والسفتجة (الكمبيالة) ، والاضبارة (الدوسيهة) ،

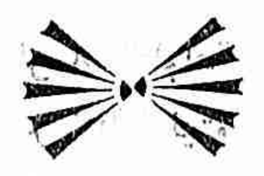
والطئومار (فرخ الورق) ، والحِسْكل (نثار الرصاص عند صبّه ، والطثفاحة (ماترمي قِدْر الرصاص من زبدها) ، والنقش والانتقاش (استخراج الحروف لدن تصحيحها) ، والجذاذة او القطاعة او المزاعة (بقايا الورق بعد القطع) ، والنّثار (ما يتناثر في عملية التثقيب) ، والثّمال (القائم على العمال) ، والتقرّي (تلمس الحرف في علامته) ، والتّوعب أو الايعاب (ملء الصناديق بحروفها) ، والكَفْت (صب الرصاص في قوالبه) ، والشّية (الماركة) ، والطّلاء (الفرنيش أو مادة التلميع) ، والمِنْقَع أو المِنْقعَة (الوعاء تنقع فيه المواد) ، والوشيعة (لفيفة الورق) ، والمهَيِّع (الفونداتور) ، والثّمغ (خلط البياض بالسواد في الأحبار) ، والشّحْف (قشر البيكمنت)، والمَصَفّ (موضع الصف) ، والتّصاف (التساطر) ، والأضعاف (الفوارغ ما بين السطور والحواشي) ، والمَصَبّ (قالب المحابر) ، والمرقّم (النوميراتور) ، والاسطوانة (البرميل أو الطنبور) ، والترويح (فصل الورق بعضه عن بعض) ، والجسم (البوانت) ، والروسم (الكليشة) ، والمردانة (المحبرة الصغيرة خاصة بالتجارب)، والوفيعة (الخرقة يمسح بها على الحرف) ، والمِنْزَعة (الكماشة) ، والمجَّاج أو المجَّاجة (الجهاز يمجُّ رشاشه على الورق تنشيفاً للحبر ومنعاً للتلطّخ) ، والأسيس (الفون) ، والسّعيف (السيكاتيف) ، والمِسْوط أو المِسْواط (ملوق الحبر) ، والسّوط أو التسويط (خلط الحبر) ، والهُلام (الجيلاتين) ، والحاملة أو السناد (رافعة الكليشهات) ، والخطوط (الجداول) .

وأما ما تبقّى من مستلزمات الطباعة في التعبير فكثير كثير ، ومنه على سبيل الالمام لا الحصر : الكارنيتور وهي فوارغ توضع بين الصفحات أو في البياض، والمتريس وهو الحرف الذي يصبُّ عليه، والديجنتور ، وهو جهاز كهربائي في الآلات الطابعة والقاطعة ، والفيليه ويعبّرون عنها بالسمكة توضع للتزيين ، والمارجور ، وهو خاص بتلقيم الورق وضبطه ، ثم الآلات الطابعة وتوابعها ، وهي ضروب ، ولكل خاصّته وتعبيره الخاص يُعرف به ، وكذلك الحروف

على اختلاف انواعها وأحجامها ، والورق بأجناسه وأوزانه ، والتجليد وتوابعه ، والزنكوغراف ومتفرق أدواته . هذا عدا الأجزاء في كل آلة ولها مصطلحاتها في اللغات الاجنبية ولا تعرف بغيرها .

ان الطريق دوننا واضحة المعالم ، ظاهرة الرسوم ، مأمونة العثار، موطأة الأكناف ، فما نحتاج الا الى النية صادقة ، والعزيمة ماضية، والأخذ اخذ من سبقنا في هذا المضمار ، وفي الأخص أجدادنا ، أولئك الذين كان الواحد منهم أمة بنفسه ، لايلويه عمّا اعتزم حائل مهما تعاظم ، وبحسبنا أن نذكر منهم مثل الفيروزيادي صاحب قاموس المحيط ، وهو الذي توفّر على تصنيفه في بضع سنين ، فجاء كما عرفناه جامعاً مانعاً في بابه ، معجزاً في تحقيقه وأسلوبه ، أوفى فيه على الغاية مما يريد بما لا غاية وراءه لمستزيد . فاذا كان هذا صنيع واحدنا في جده ، فما القول اذا اجتمعت همم متعددة على العمل الواحد ، وانصرفت اليه منقطعة، والوسائل من دونها متوفرة متيسّرة في مثل أيامنا الحاضرة ، والجهد اليوم أهون منه فيما مضى ، كما ان الهدف من مرماه في البعد أقرب الى النظر في القصد .

فهل بعد هذا نتخاذل متواكلين ، ومتى نتوكل بعد العزم عاملين؟



قيمة التراجم

من طبيعة الخَلْق انهم لايتفقون على الرأي جميعاً الا نادراً ، بل هم لعلى النقيض ، لا جَمعة عندهم كجمعتهم في اختلاف الآراء وتنازع الاهواء حتى لتبلغ بهم الفُرقة البعد الباعد لاتقريب فيها فتنزل على رأي واحد . فلا بدع اذن اذا ما تباينت منازعهم فذهبوا فيها مذاهب شتى الاحكام بما يتعلق بتراجم الأعلام ، فيرى كل فريق غير رأي الآخر في أنه هو على الميْزة والبصيرة ، ومَنْ عداه فهو في متاهة وحيرة .

كذلك ترى الناس لا يرون التراجم بعين واحدة ، فلكلٍّ في أمرها رأيه ، ثم الى خُلْف : هل توضع في حياة أصحابها ووجودهم ، أم بعد ارتحالهم عن الدنيا وافتقادهم .

ففريق على أن الترجمة في علم الرجال ماتستوي صحيحة ناصحة الا اذا اتّسقت مجرّدة بعيدةً عن النوازع العاطفية والاغراض الذاتية، منتظمةً على التقصي لعصر المتَرجم وبيئته ونشأته ودراسته وشتى التجارب التي امتحن بها في حياته ، فكان لها أعظم الأثر في تأليف ذاتيّته ؛ فما لم تكن كذلك كان صحيح الحكم فيها أنها تشويه يحتاج الى تصحيح ، وأنها الصورة التي تترجم عن حقيقة من رسمها ، ولا ترسم الصورة التي تُرجمت عنها في حقيقتها ، ثم انها الأثر الذي يضلُّ فيه الرأيَ ويتيه ، لا الرأي الذي يتعقّب الآثار ويترسّمها في وجهتها الى محجّة الصواب .

وفريقٌ يرى أن الترجمة ينبغي أن تكتب في حياة أصحابها

لتخرج حيَّةً مستوفيةً كامل أسبابها من التصويب لا يخالجها خطأ من بعيد أو قريب . اذ ليس أدنى الى الخطأ من الحديث عمن بَعُدَ بهم العهد ، وترامى الدهر ، ثم تشعَّب فيهم بالرأي ، وطَمس على أخبارهم وآثارهم ، كما أنه ليس أعون على الحقيقة من تلمُّسها في واقعها من أصحابها وهم في حياتهم ، ما تخفى منهم خافية ، فكلُّ شيء عندهم قيد البصر والسمع ، ثم قيد التدوين والجمع ، وأيَّما تحيُّف أو تزوير لا يلبث أن يجد مردَّه من العارفين، وأيما ظن أو شك يلقى كفاءه من صدق اليقين .

وثمة مَن يتنكَّر لهذا الرأي ، ويأبى الا أن يُنسأ بالترجمة الى أجل ، أي الى ما بعد تصرُّم أجل أصحابها ، والحجة في ذلك أن حياة المتَرجم لاتستوفي كامل أقدارها الا بعد أن يذهب الموت بها بما كان يلابسها في حياتها من صداقات وخصومات ، فتستعلن اذ ذاك على حقيقتها ، ويحكم عليها دون مماراة أو محاباة . ثم لقد يكون لها من أواخرها ما يفصح عن بعض الغموض أو الشك في أوائلها . ومن ثمَّ كان التعجُّل بالتراجم وأصحابُها ما برحوا في معمعة الحياة كالتعجُّل في وصف الثمرة لما تنضج بعدُ ولم تؤت أُكلها ، والخير غاية الخير في الارجاء لأنه عون على التبصر والاستقصاء ، وسبيل الى الحقيقة كاملة لا يتحيفها نقصان أو التواء .

وبين الاعجال والامهال لا نعدم فريقاً آخر يُؤثر التراجم بأقلام أصحابها ، تتحدَّث بلسانهم حديث الخبير البصير ، وتكشف عن معانيهم في حقائقهم بما لا يتهيأ مثله لمن يحاول الغوص الى أعماقهم مهما يفتن في سبر غورهم . ويحتج أصحاب هذا المذهب بالاختلافات التي تدور بالتراجم من وضع غير أصحابها حتى لترسم الصورة مكرورة عشرات بل مئات من الأمثلة ، ولكل مثال من الوانه وخطوطه ما يجعل المترجم في مثل عدادها اختلافاً وتغايراً عن حقيقته في مثاله .

ونحن حين نعرض لهذه الآراء المتعارضة ونتدبَّرها بحقها من

المقارنة والمايزة ، لا يسعنا الا الاثبات حيثما لاح الصواب ، والنفي حيثما انتفى وغاب .

أما هؤلاء الذين يشترطون «التجرد» فانهم يصيبون فيه كسبب من أخصّ الاسباب الى الصواب ، ولكنهم في هذا الشرط يبتعدون عن الفطرة البشرية لأنها أبعد ما تكون منها ، اذ لا تقوى عليه في مثل ضعفها واستخذائها تجاه الجواذب والرغائب ، فمهما تبلغ بنا الصراحة في القول ونبلغ من تعشق الحقيقة ، فلا قبل لنا الا رعيا القربى والصداقة ، والتعصّب في المذهب ، والاستمالة مع الزمالة ، أو بالعكس لا بدّ من الاستجابة لدواعي الخصومة والبغضاء ، ثم الانسياق بصورة عامة مع الميول التي تربطنا بالآخرين ... فأنىّ لنا اذن أن نتجرّد من هذه الوشائج العريقة، وهي ذات الأثر الخطير في أقدارنا حتى لقد يتسبب الخروج عليها لأوخم العواقب ؟.. أما اننا لنحاول التجرد ، ولا شك ، بحافز من حب الحق ونصر الحقيقة ، ولا نرجو مثل ما نرجو أن نرتفع بانسانيتنا عن اللغو والتمويه والتمسح لنكون الصادقين قولاً وعملاً ، ولكن كيف السبيل ونحن في صراع مستمر وكفاح لايستقر مع هذه القيود التي تربقنا ، ومع هذه العواطف ، وهي كالعواصف ، تفتأ تميل بنا ههنا وههنا على غير ارادتنا ، فان مرَدنا جازتنا بما يهون أمامه الانحراف قليلاً أو كثيراً ، وبخاصة في المجتمع المضطرب حيث بنيت معظم علاقاته على الكذب .

وأما « التراجم المتأخرة » فان صحّ امتيازها في أنها أوفى وأجمع لحياة المترجَم في شتى أحوالها ، وأن امتيازها هذا يمتد ليكون له امتياز آخر من الزمن نفسه باعتباره يعرف كيف يغربل ويستصفي ، ما يبقي على غير ما هو قمين بالبقاء — قلنا ان صح هذا الامتياز بشطريه فان مما يذهب بالكثير من قيمته أن التأخر بالتراجم محفوف في الأغلب بما يقطع الاسباب فيها تشويها من زيادة ليست من شأنها ، أو نقص غيّب منها ، ثم ان الزمن مهما واتاه الحسر عن الحقيقة فانه ليخطئها ولا يلمّ بأطرافها جميعاً وقد غاب فيها مقطع الحق وطَمس على كثير من آثارها . وفي التاريخ شواهد هي خير مصداق على ذلك .

وإذا نحن تدبَّرنا التراجم القريبة لاحت لنا عن قرب بحسناتها الجميمة، فهي أشبه بالمتح نَضحاً من المصدر رأساً حيث لا كَدَر ولا عكَر، بل كالتصوير الآلي يعكس الأشياء بحقيقتها غير مزيدة أو مُتَنَقَّصة. وهي الى ذلك قَدَرٌ في الحياة يرتجع على صاحبه باستيفاء الغاية من الهمة في قدرته نشاطاً واقبالاً، ثم التبصرة بمواطن ضعفه مما يكون عنه غافلاً. ناهيك عن فضل هذه التراجم من الناحية التاريخية، اذ يجد فيها المؤرخ طلبته استدلالاً فيما لابسها من حوادث عصرها وروح عصرها في حوادثها. وبحسبها بعد ذلك أنها تستقيم دعائم ومعالم للبحوث في المستقبل، وما أقلّها وأندرها في تاريخنا الأدبي اذ طالما اعترضتنا المصاعب من كل جانب كلما حاولنا دراسة أحد مشاهيرنا الأقدمين، وأية مصاعب أشق وآلم من أن تذهب المحاولات عبثاً مهما يتناهَ فيها الجد والاستقصاء، فما تنحسر عن بارقة من حياة من نتدارسهم سواء في طفولتهم أو نشأتهم أو دراساتهم، وحتى في حقيقة مولدهم أو موتهم، فنرجع أسفين متحسّرين، ليس بين أيدينا غير ركام من الظلمات والظنون مما لا يسمح بالبحث نيّراً ولا الحكم جازماً. وما كان لنا مثل هذه الخيبة والمضلة لو انتهت الينا التراجم بأقلام من عاصرهم وعاشرهم مُبينة الرسوم، واضحة الشواهد، كأنها المفاتيح لحل كل ما استغلق واستبهم.

أما المحاباة والمداجاة والتقية والإِمَّعيَّة وما هو بسبيلها فما صحّت في يوم من الأيام وقفاً على قرب أو بعد، فلطالما تملَّق الناس وتصنَّعوا للأحياء والأموات، والأقارب والاباعد، على سواء، بل لطالما كذب عندهم القول بعضه بعضاً على ما يقتضيه صدق الواقع كذباً، أو كذب الهوى ملقاً. وفي التاريخ والسير والاحاديث ما لا يحصى من ضروب التحريف والافتراء والاختلاق حتى ليصحُّ أن يكون لذلك تاريخ بخاصته. ثم ان الدنيا ما خلت من النَّصفة والمنصفين، فهؤلاء لهم دنياهم المزدحمة بكل ما يجهر بالحق، ويتنكّر للافتئات والتمويه، فالقضية قضية تبصّر وتدبر وايمان وصدق قبل ان تكون غير ذلك. وبهذا يتّسق للتراجم أن تسمو وتصدق، وأن يُكتب لها النجاة من

التحيز والمراءاة، سواء أخطّت بيد المعاصرين أو من قفّى على اثرهم بعد متطاول السنين .

بقيت التراجم بأقلام أصحابها ، وما نجد لها الا ميزة واحدة ، هي التحديد لا أكثر ، أو بعبارة أخرى جلاء المراحل المتعاقبة بأزمانها وأمكنتها . وانها أضعف الميزات بالنسبة لما لابدّ من توافره في الترجمة ، كاستكناه الاسباب والدوافع ، ثم تدبّر الضعف والقوة في مواقعهما ، ثم التعليل والتحليل ، وهذا كله ليس بالهين الممكن على من يخوض فيه وهو يتحدث عن ذاته مهما أحسن النية وصدق في الرواية ، لان من طبيعة الانسان الاّ يحرّك اللسان بما يعيبه ويتنقّصه فيكون شاهد حجة على ضعفه ، أو بما يذيع مناقبه ويجمل ذكره فيشهد ذلك على غروره ، ويشهد غروره على نقصٍ في نفسه .

وان ما نجنح اليه من التراجم هو ما جاء لزمنه عن تماسٍ وقرب لم يتكاثف عليه من غبار الازمان المترامية ما يغاير من جوهره ، فمثل هذه التراجم ذات خطر لاينكر ، وبحسبها فضلا أنها على كونها قيداً للكثير من الحقائق فهي بعيدة عن الحدس والافتراض ، ينسرح فيها الرأي في أرض ممهّدة ،نيّرة المعالم ، ويصدر فيها الحكم صائباً جازماً ، وأقلّ تحيّف فيها لايلبث أن يرتد مستقيماً ممن عرفوا من سداده ما لا يجوز فيه الافتراء أو التطرّف والتنقّص .

أما وتلك حال التراجم المعاصرة في ميزتها من الدقة والصحة ، واحتراسها مما يداخل غيرها من التزوير والمغالطة ، فماذا يمنع من ايثارها والاستكثار منها ، ولمْ لانأخذ بترجمة أي نابه في حياته قبل انطواء صفحته ؟ أما إننا لنحسن غاية الاحسان حين نجعل لسان الحياة هو الذي يستنطق التراجم حية ، ولا ننتظر الموت يتحدث عن أصحابها أمواتاً . . ذلك بأننا نضاعف من الاحسان بتوجيهه الى المترجَم نفسه ، والى القراء ، والى التاريخ على سواء . أما المترجم فله الاحسان بتعرف حقيقته ، وأما القراء فلهم الاحسان بالتبصرة ، وأما التاريخ فاحسانه بأن نهيء له الزاد الخالص يخلص منه الى الحكم الناصح على العصور والعبقريات ، وعلى المذاهب والتطورات بعد اذ تتسع الشقة بينه وبين هذه الخصائص جميعاً .

وبعدُ ...

فاني سأترجم في الفصول القادمة بعض الشخصيات النابهة ، لا لأستزيد من نباهتهم وشهرتهم ، بل لأقدّم أمثلتهم بخصائصهــا ، فأنفي عنها ما ليس فيها ، واجلو عبقرية التفوق في نواحيها ، وامثّل لما يبين عن جوهر مثالها .

سأترجم هؤلاء الذين نوّروا ما حولهم بنور من عقولهم وقلوبهم، فعاشوا كالشموع تحيل الظلمة ضياءً وهي تذوب فناءً ، بل كالثمرات تنضج وتؤتي أكلها لتكون الغذاء خير الغــذاء ، فاذا هم في حياتهــم القصيرة سر الحياة الكبرى ، واذا في موتهم معنى البقاء والخــلود ، واذا بحياة الألوف المؤلفة عند السّوى لاتعدل من حياتهم شيئاً .

أجل سأقصّ نبأ من ألّفت بيني وبينهم أسباب الأدب والمعرفة والصداقة في دنيا المطابع على مسمع من هدير الآلات ، ومشهدٍ من عيون الأحرف ، فأبين عما هو في حكم الخفيّ من أحوالهم ، وما قد يتبدّى في ظاهره غيره في داخلهم ، ثم ما كان للمطبعة أكبر الشأن في الحسر عن كنه طبائعهم .

انهم علماء الشام وأدباؤها وكتابها وصحفيوها ، أولئــك الذين خالطتهم العمر المديد مخالطة القريب لا البعيد ، في شتى أحوالهم ؛ في طلاقتهم وسهولتهم وظرفهم ، وفي عبوسهم وتوعّرهم وجفوتهم ؛ فعرفت عنهم ما يعرف الانسان عن أقرب المقرّبين اليه ، وألصقهــم بحياته ، ما يستخفّه أو يوحشه منهم خلق دون آخر وهــو العليم بأخلاقهم جميعاً .

وان في الحديث عنهم لفائدة ومتعة ، وان فيه الى ذلك لحقاً من دَيْن عليّ يقتضيني واجب الوفاء . وأي الاحاديث لعمرك ارجع وأمتع من حديث أولئك الذين يكشفون عن خفايا قلوبنا وعقولنا وأرواحنا ، فنلذ الوقوف على اسرارهم ، وأيُّ دَيْن أوجب بالوفــاء من الدَّين يسدى ولا ينقضي سداده من وفاء الثناء والشكر ابد الدهر ؟

صلة الفكر

تمتاز الصلة بجماعة الفكر على غيرها من الصلات بكثير من الخصائص والميزات . ولا بدع في ذلك وهم الممتازون في نمطية حياتهم واسلوب تفكيرهم وابداع عبقريتهم ، فحريٌ ألا تستوي بهم الصلة على نحوها بغيرهم ، وان يكون لها شأنها على مقدار ارتفاع شأنهم وقدرهم .

ونحن باسطون ههنا أطراف هذه الصلة نجلوها بأسبابها لتؤلف صورتها التي استوفت من معانيها المختلفة ما يرفعها حقيقة كاملة طالما غفلت عنها الابصار ولم توفّها حقها من الرعاية والاعتبار .

فمن الثابت الراهن ان ميولنا نحو السِّوى ليست سواء ، تتفاوت على قدر ، فمنها الوثيق الراسخ المتشابك ، ومنها الواهي الواهن المرتهك ، ومنها ما هو بين ذلك . أما ميولنا نحو أهل الفكر خاصة فهي ان لم تكن واحدة فانها عامة شائعة ، ليس منا من لاتستخفه فتشوقه ، أو تعرض له فتروقه . وربما أنزلناها صلة من قرابة أو صحبة لانرضى بها بديلاً . وانها لتستغرق بعيدة بعيدة حتى لتعطفنا على أبعد الناس عنا جنسيَّةً وعقيدة ، كما هو الحال في الميل الى الأدباء والمفكرين في مختلف الأمم وشتى العصور . أجل اننا لايستوي الميل عندنا الى الملأ كافة على وتيرة واحدة وانما نميل الى من يوافقون مشاربنا ويتوافقون ومطالبنا ورغائبنا ، فيجزىء عندنا تعرُّف فريق دون آخر ؛ وللحياة العملية ، والسن ، والأهواء أثر في ذلك أيَّما أثر ، بيد اننا ليس منا من لا يميل الى المفكّرين والمشاهير منهم

في الأخص ، فيلذّه عقد أواصر التعارف معهم ، وحضور ندواتهم ومجالستهم ، والاستمتاع بأحاديثهم ، وربما استوى ذلك عنده من ارفع وأمتع المنى . ثم ما قولك بالكثيرين يحجون الى البلدان النائية المترامية كيما يحظوا بمقابلة كاتب نابه أو فيلسوف بارع ، أو شاعر مبدع ، أو ليزوروا ضريحه ميتاً ، اوداره التي احتوته حياً ، ومنهم من يبتاعون بعض ما خلّف من آثار ، يبذلون فيها أفحش الأسعار ؟ . .
أما ان في هذا الميل الذي قد يبلغ حد التعبد من الاعجاب ، لدليلاً ناهضا على ما يربطنا بجماعة الفكر من أواصر الأسر والسحر مما لامحيد عنه الا اذا كان لنا أن نحيا الحياة الفقيرة لا غذاء فيها يشبع عقولنا وقلوبنا واهواءنا .

وثمة الغريزة ، ومن آياتها حبّ الاستطلاع الذي يستشرف كل بِدْع جديد، ودفين خفي ، وامتياز نادر عزيز . فتجدنا أبداً عيوناً لائعة متطلّعة الى استكناه ما وراء الدارج المألوف ، والظاهر المعروف ، والى حقائق الناس فيما استبطنوا من أسرار أو امتياز هو في نظرنا بعض الاعجاز . ونحن الى ذلك نحاول بدافع من الانانية تعرُّف وجوه النقص فينا ثم الميزة التي اختص بها غيرنا . كأننا نأبى الا تعليل هذا الذي شَدَهَنا وتملّكنا بما يسترجعه سبباً طبيعياً ، وظاهرة لاتخالف المعقول الا بما لابسها والتبس علينا . والى هذا مردّ تطلّعنا الى كل مستحدث يسمو على مفاهيمنا . وفي الأخص عند جماعة الفكر ، أولئك الذين أوتوا من عبقرية الابداع وألوهية الحكمة والتبصرة ما لا يؤتاه الا الأقلون ، فاذا هم كالنور يضيئون حياتنا ، وينتهضون بمفاهيمنا ومشاعرنا ، ويستوون النخبة المختارة بين الكثرة الكاثرة، ثم اذا هم بهذه الندرة يحرزون منا النظرة التي لانأخذ غيرهم بمثلها . ومثلنا معهم مثلنا مع الطبيعة نتنقل ببصرنا بين كائناتها المختلفة ، الا أن طبيعتنا لاتقف بنا الا عند ما تفرّد فيها وشذّ فتنة وروعة . وان في عباقرة الفكر لمثل الاوراد والازاهير شذوذاً يغرينا ، وفتنة تأسرنا، وتفرّداً يسحر علينا .

ثم فلنسأل من هم هؤلاء الذين أصابوا السهم المعلّى في التفكير ، وتميّزوا بالقَدْر والتوقير ، من هم في الجواب غير الجواب الذي يَحكم بهم صلتنا ويصلهم بنا عن قرب لنمنحهم من الحق بعض ما يستودعوننا من الحقوق ؟. أليسوا تراجمتنا في مفارحنا وآلامنا، واعواننا على معاني أقدارنا ، وهم الذين ينسمون علينا بالحرية ويحببون الينا الجمال والكمال ، ويطبّون لجراح الندامة والسآمة ، وينصروننا كيما نقوى على ربح معارك الحياة ، أليسوا هم سحرة الفن البليغ ، يضعون النور في الوقت الذي يضعون الكلام ، فوق أفراحنا المضطربة وآلامنا المظلمة ، ويهمسون وحياً بما نشعر به مبهماً ، فاذا هم أصداء أرواحنا ، ومنتجى سرائرنا ، واذا هم المرائي المجلوة تعكس شهواتنا وشدائدنا صورا ناصعة ؟.. أما وانهم منا سبب كثير من سعاداتنا ، لولاهم عشنا من نفوسنا في شبه مجهلة ومظلمة ، فكيف لاتكون العلاقة فيما بيننا وبينهم متوثقة ، والجنوح اليهم هو بعض شعورنا وتفكيرنا بذاتنا من ذاتهم ؟ ثم كيف يصحّ أن ننأى عنهم ولا نهرع اليهم وهم في عالمهم المثالي أحوج ما نكون اليهم في حياتنا المادية ، نقترب منهم فينتهضون بنا فوق شقواتنا نظهر عليها ، وفوق أقدارنا نقدر على احتمالها مهما تبلغ من القسوة والخطر ؟.. وهل هم بعد هذا كله الا حكامنا ، لانهم حكام العالم أجمع ، ولان الأسفار والأفكار هي حكم السيادة والقيادة قبل أي حكم ؟..

اني وأنا أذكر صلتنا العريقة بمن تميزوا بعبقرية الفكر لا أنسى ما كان للمطبعة من أثر بليغ في تقريب الاسباب وتوثيقها بيني وبين الكثيرين منهم . فقد انطوت صفحة بعضهم من الوجود الفاني وما تزال صفحات ذكراهم حية مشرقة في الخاطر ، ولقد امتدّ بآخرين حبل الأجل ولم ينقطع مددهم من عبقريتهم ، وما انفكوا في توقلهم الى ذروات المجد ، ليزيدونا من فضلهم فنزداد اعجاباً بهم ، وتقوى على الدهر ذكراهم بنباهة ذكرهم .

لقد عرفت منهم من عرفت عن قرب ، وخالطتهم مخالطة عين

وسمع وقلب . فأحطت بالكثير الكثير مما يستقيم القلم بذكره ، ويواتيه الحسر عما استبهم في سره ، بيد أنهم لم يكونوا على سواء في أقدارهم وفي قدرتي على استيعاب شتى أحوالهم ، ثم هم لم يكونوا من القلة بحيث يسعني الاحاطة بذكرهم على سعتهم ووفرتهم . ومن ثمّ تجدني لا أتعرّض بالحديث الا لطائفة منهم كنت بها أكثر اتصالاً وأعلم حالا . أما الباقون ممن عرفتهم وعرفوني، وكانوا يقدرون أن أنوّه بهم ولم أفعل ، فلهم أن يتبادرهم كل سبب من الحدس والظن الا سبب الاغفال بدافع من الاهمال .

هذا ولن أسلك منهجاً بعينه في التعريف وان كنت سألتزم أقصى الالتزام تحدثاً عن الصفات والاخلاق مما يؤثر من أخبار من أترجم له، وعن ضروب من علاقتي به ، ثم جماع رأيي فيه . وهذا النحو اذا اختلف عن المفهوم الشائع للتراجم فانه هو النحو الذي آثرته في هذا المقام ، بل هو الذي يؤثره الأدب قبل التاريخ .



مع
أهـــل
الفكــر



أحمد شاكر الكرمي

اني وأنا أستجلي في مخيّلتي صورة المرحوم الكرمي في معارف محيّاه ، وهيئته في شتى رؤاه ، لتُطالعني سمرته العذبة اللطيفة ، وعيناه كأنهما النجمتان المتوقدتان ، وفمه بشفتيه الرقيقتين كأنه نصف كلمة ، ثم نحافته الضامرة الضاوية وكأنه منها خيال يمشي ويتكلم ، ثم قامته ، وهو فيها رَبْعة نهضت الى طِوَل وقعدت الى قِصَر ، فكان صاحبها صَدَعاً بين الرجال . هذا الى هدوء ودماثة أقرب الى الاستحياء والخَفَر ، مع ميل الى المرَح الرصين ، وأخذ بالتمرُّد ، ونزعة الى التجدد ، وايثار للعزلة والتفرد .

وما عليك في استجلاء هذه الصورة بحقّها بينةً ظاهرة الا أن تتخطّر أحد الشباب من ربوع مصر أو فلسطين ، في حدود الثلاثين ، وقد لوّحت وجهه سمرة شفافة رفّافة ، واستمكنت منه لهجة عذبة محببة هي مزاج من اللهجات المصرية والفلسطينية والسورية مجتمعة ، ولكنها في رقة الحديث كرقة صاحبها في خلائقه وشمائله ، أو رقته في جسمه الضاوي .

ليس ثمة غموض أو شذوذ يشدُّه النظر أو يعكس ما تغيَّب وراءَه واستسرّ ، مع أن من ناموس الطبيعة أنها تضنّ بالموهوبين أن يخرجوا الا أمثلة بخاصّتهم ، غريبة عن السوى بسماتهم ، فتخصّهم ببعض الشذوذ فيما تقع عليه العيون كمرآة لشذوذهم في عبقريتهم الخفيّة لان المواهب كالجواهر تندر ممتازة فلا بدّ لها ما يميّزها ويسترعي الانتباه اليها ، وهي في قرارها غَيْب النفس لتَنْفذَ الى

ما وراءَها بمعانيها منبثقة كالعرف الذكي يتأرّج متضوعاً عن الأزاهير لينمّ عنها ولو عن بعد. أما الكرميّ فما كان فيظاهر شخصه ما يوحي بخفيّ شخصيته، وربما كان العكس هو الأصح عند من يأخذه ظواهر تدلّ على الحقائق، لاحقائق كامنة وراء المظاهر. وما أرى في مثل هذا الاختلاف عند الكرمي وأمثاله الا ضرباً من الخداع البدَهي، أو مثالاً من ضمور العبقرية، فانكوكب الشمس ليس أصغر منه جرماً في النظر وهو ما هو في السعة والكبر، وما أكثر من شفّه الضمور وبين جنبيه مثل الأسد الهصور. ثم كم مننفوس هي عنوان الصّغار وان كانت تحملها الجثث الكبار. وشتان بين النظرة تمرّ بما تقع عليه عرَضا، وبينالنظرة تثبتمتدبّرة، ولا تنظر الا بعينمنالبصيرة لتستشف الأشياء بجواهرها وراء ظواهرها.

امتاز رحمه الله بكثير من المحاسن، فكان جمّ الفضائل الممتازة، وبحسبه ان الواحدة منها تستوي مجداً لصاحبها، فما البال بها جميعاً أمجاداً مجتمعة ؟.

عُرف بالاباء حفاظاً على الكرامة وطيب الأحدوثة، وترفعاً عن السفاسف والحقائر في الحياة، وتنزهاً عن كل ما يشين في مثل سنه شباباً وطراوة.

وعُرف بالجدّ الدائب حتى لقد كان يصل ما بين ليله ونهاره كادحاً وراء مكتبه يفكّر ويحرر، ويصحّحوينقح، ما يتبرّم أو يتأفف، ولا يردُ أحداً من المختلفين اليه الا بما يرتدُ بطلبته وحاجته. وأين هذا ممن هم في مثلشبابه، ووفرة معارفة وأصحابه، وكثرةعلاقاته واستفاضة شهرته، قلّما اتسع وقتهم لغير العبث، تتخالجهمالحياة بمنادرها وأعابيثها لتصرفهم عن جدّها في سمو أغراضها، وتجمل في أعينهم أحلاماً وأوهاماً دونها طماحاً وكفاحاً، فكان من حميّا شبابه في مثله حميةً ونشاطاً الى المطالب العفيفة الشريفة.

وعُرف بالصدق قولاً وعملاً، فما أخذ بمكذبة او كيد وسعاية، ولا اتُهم باحتجان حق من الحقوق لمخلوق، تزينه البراءَة في شتى

خلاله وطباعه برغم تبرئ المروءة من الأكثرين حوله وطغيان المادية طغيانها الذميم العميم .

وعُرف في جلّى أحواله بالكياسة والمرح، وبالسخرية والبساطة، ثم بالعزوف عن الملأ ، ما يخالط الا من تصله بهم أواصر الحياة الفكرية . وكأنه استجمع في ذلك النقائض ليفلج على النقائص في الحياة وأهلها، فتهيأ بكياسته لكل عنف وغلظة ، وبمرحه لكل تزمت وتعنت ، وبسخريته لكلّ جائحة ونائبة ، وببساطته لكل أبّهة ومَخْيَلة .

ولا عجب فهو من بيت عريق بالعلم والزعامة والدّين والتقوى ، حافل بتاريخ وضيء بالمكارم والمحامد ، فأسرة الكرمي من أشهر الأسر السريّة في فلسطين العربية ، ووالده هو العلاّمة الشيخ سعيد الكرمي أحد القضاة في الشريعة السمحاء ، ومن الجهابذة بين علماء الشرق المعاصرين ، واخوته كالفراقد ، منهم المعلم المربي ، والكاتب اللوذعي ، والشاعر النابه .

والمعروف عن مترجَمنا أنه نشأ في فلسطين مسقط رأسه ، وتعلّم فيها ، ثم رحل عنها الى مصر حيث عمل في الصحافة وتمرّس عليها ، وتأدّى له أن يعاصر النهضة الأدبية أول انبثاقها في بداءة عصرنا . فكأن الحياة كانت معه على موعد ، فرأى النور مع أدبنا اذ كان يخرج من ظلماته الى النور، وارتحلت به الى مصر ليشهد عن كثب ميلاد الفجر الأدبي الجديد ، وعدلت به الى ميدان الصحافة دون غيرها من الميادين ليكون من فرسانها الميامين . ولقد بهرته حركة النقد يومذاك بأساليبها الجريئة وثورتها على القديم ، وأخذها بالبناء والتحطيم ، وكان على رأسها العقاد والمازني وشكري ، فانخرط في معسكرهم منضوياً تحت لوائهم ، ينصرهم وينتصر للجديد على القديم .

وعلى أثر الرّجة العالمية الاولى قدم الى دمشق حيث التمست له وظيفة في ادارة السكة الحجازية ، لايكاد يعرفه أحد أو يعرف أحداً . وما أدري لنزوحه عن مصر الى الشام سبباً أو عذراً ، وبين القطرين ما بينهما من اختلاف في حرية الفكر ، وحركة الأدب ، ونشاط

المسعى . ولعلَّ الحياة الصحيَّة أو الأهلية كانت هي مدعاة الارتحال والانتقال ، بل لعلَّ القدر لم يشأ الا أن يسفر للأدب الجديد بمصر فبعث بالكرمي رسولاً الى الشام يبشِّر بمذهبه ، وينشر الرأي في غايته ومطلبه .

واتَّصل أول ما اتَّصل بصحيفة « ألف باء » أرقى صحف دمشق لعهدها . ومكَّن صلته بها ما كان بين صاحبها الاستاذ يوسف العيسى وبين والده من صداقة موثقة ، ثم الغربة وهم جميعاً من فلسطين ، ثم وحدة المنزع في منازعة الاستعمار البريطاني الصهيوني .

وشرع الكرميُّ يرسل آراءَه المستحدثة في الأدب والاجتماع تحت عنوان « المعرض العام » ، متوارياً وراء توقيع « قدامه » . ولم يكن للقراء عهدٌ من قبل بمثل ما كان يطالعهم ، وفيه مثل الرعود الداوية نقداً وكشفاً عن الحقائق المتوارية ، ثم اختلاف أيَّما اختلاف عمَّا عهدوه من الأقلام الضعيفة الواهية ، ثم هدمٌ لكثير من العادات الشائعة البالية ، وتكسير لأصنام في الأدب لها شهرتها النائية . وما هو الا القليل حتى نبه ذكره واستفاضت شهرته ، وفي الأخص عند جماعة الفكر بعد الذي خبروه من شدة بأسه في مجال النقد ، وسعة اطلاعه في الأدب ، وتفوُّقه بمستحدث آرائه ورشاقة بيانه وانشائه .

* * *

وكان الكرميُّ ذوَّاقة ، يتجلَّى ظرفه على أتمه في تجويد خطه وطراز كتابته ، فيصطنع الورق صقيلاً ، أو من ورق الصحف أحياناً ، يجعله في عرض حقول الصحف ، كأنما يتعمَّد الموافقة بين السطر مخطوطاً والسطر مطبوعاً ، ليخرج مقاله على ما يريد ، ماينقص ولا يزيد . أما خطَّه فواضحٌ ناصع لايشق على المنضِّد في المطابع ، وقاعدته هي « الرقعي » وحبره هو البنفسجي ، وقليلا ما خطَّ بالرصاص ، وهو يروِّح ما بين الاسطر كأنما يضع فيها بعض روحه في سعتها وفيضها ، وليس من طبيعته التثوير والتحوير فيما خرج

عنه مما ينم عن ثبات الرأي في التفكـير ، وانه يجلو خواطره وقـد استوفت حظها من دقة التصوير . بيد أنه لايبدؤ السطر مستقيماً الا لينتهي به مستعلياً كأنما لاتلذّه الاستقامـة الا ناهضة في ابـاء كابائه .

وربما شرع بموضوعه واستكمله ، ثم عاد فامتهد لَه بنبذٍ يؤلف مدخله . ولطالما لحظت ذلك في معظم كتاباته اذ كنت أرى الى المقال الواحد وقد اختلفت أوراقه جنساً وحجماً ، أو الى الحبر والاسطر وفيهما تفاوت وتغاير ، مما يثبتانه يلقي برأيه من موضوعه، ثم يعود أدراجه ليستهله بما يستدرج الى مطالعته . فمطالع مقالاته هي آخر ما يخطّه قلمه ، وهي زيادة من كمال ، لا استكمال من نقص ، واذا امكن أن يُغنى عنها ما تجزىء نفعاً فانها لما يغنى بمثلها فـن الكتابة مجازاً واحكاماً .

ولقـد اهتبلت الفرصة ذات مرّة وكنا في حديث عن الكتـابة والكتاب ، وعن اسلوبه السهل الممتع وما يلقى من اعجاب ، فسألتـه كيف يكتب ، وأي الطرائق يسلك ، فما توانى عن الجواب . قـال : يعرض لي الموضوع بسوانحه ، فأشرع في تقليبه على مختلف وجوهه، وربما استعنت بما سبق أن طالعته في شأنه ، ثـم ما أزال به مفكراً متدبراً الى أن ألمّ بأطرافه وأسبابه ، واكتنهه في خاصته ولبابه ، وأشعر به في مخيلتي صورةً متكاملة كأنها تريدني على نقلها صورة مثلها الى القرطاس . ولقد يستغرق عملي هذا اسبوعاً أو شهراً ، أو أقل أو أكثر ، على قدر ما تكون الفكرة من الخطر ، وما أدري أنني خططت شيئاً على غير هذه الخطة .

وما أحسبه فيما قال الا مشيراً الى ثلاث هي شروط الكتابة : أولها : الهوى الذي يستغرق المشاعر ولا بدّ منه حاسّةً فوق بقية الحواس يرهف من حدّها ، ويمعن في نفاذها ، لتلتقط ما يغفل عنه الكثيرون ولا يكتنهونه بحقه من معانيه ، وثانيها : التفكير ، وهو الفن الذي ينبغي التوفر عليه قبل التوفر على فن الكتابة ، والا لم يكـن

ثمة احسان ولا ابداع ، وافتقدت عناصر التحديد وخرج الكلام بروحه لاروح له . وثالثها : الأداء بما يحتاج من ذوق وذكاء وحسن تصرّف في الاسلوب ، ليحمل المعنى لباسه على قدره ، مفصّلاً على قدّه ، يشفّ عما وراءه في غموضٍ هو الوضوح ، ووضوح زاده الغموض زينةً من كمال .

ومن يدرس أدب الكرميّ متتبعاً يجد النقد في جملة آثاره شائعاً ، بل لا حاجة الى التتبُّع والتقصي ، فهذه النزعة جلية ماثلة في كل فكرة ان لم تكن في كل سطر وجملة . ولطالما تخيّلته فارساً في ساح الهيجاء ، تقلّد سلاحه مدججاً وتجمّع للنزال والقتال . فما كان يلذّه ويستخفّه مثل أن يصاول ويناضل ويقارع ويصارع ، والقلم بين يديه كالعضب القاطع ، ونشوة الحرب ثم النصر آخذة منه كل مأخذ ؛ ولقد مرن على النقد ، فكان يتسقط مواطن الضعف ، لينهال عليها في قسوة وعنف ، كما هو شأنه حين أغار على الشاعر حليم دموس ، فهشّم منه وحطّم حتى جعله أضحوكة وهزأة . أضف الى ذلك بحوثه الاجتماعية التي يتناول فيها الصميم ولم يَنِ في هدم كل زَيْف ووهم وما لايقرّه العقل السليم ، من عادات مستحدثة ، وأخلاق ملوّثة ومذاهب ملتاثة ، وأكثرها طارىء سرى عن طريق المدنية التي كان يراها مرقّعة ؛ فكان ناقداً في الادب ، وناقداً في الاجتماع . وقد تأدى له التفوق في كثير من معاركهما .

أما اسلوبه فقد امتاز بجمال الوضوح ، وسلامة التعبير ، ورصانة التفكير ، والاطلاع الواسع الى جانب النقد اللاذع ، مع براعة في التعليل والتحليل . وكأني به قد استجمع في شخصيته الأدبية بساطة الأداء عند الانكليز ، وغنى الوصف عند الفرنسيس ، وجدّة الترسّل والمساوقة في الأدب المعاصر . بل لكأنه نسخة ثانية في ترسّمه آثار العقاد ونسجه على منواله ، أو هو سفير مصر في بلاد الشام بمدرستها الأدبية الحديثة .

ولقد كتب ذات مرة عن الشخصية في الأدب ، فكان رأيه في

مقوّماتها كالرأي الذي ارتضاه لأدبه في شخصيته . قال : « ان الشخصية التامة في أدبائنا المعاصرين نادرة للغاية ، فان أكثر الذين لهم شخصية محترمة في أسلوبهم لا توجد لهم شخصية في آرائهم، وأكثر الذين لهم شخصية في آرائهم لاتكون لهم شخصية في أسلوبهم تستحق الاحترام . وان منزلة الشخصية في الأدب كمنزلة الروح في الجسد ، سواء بسواء ، وليس الأدب المجرّد من الشخصية الا كفارغ الجوز ، قشور بلا لباب ، ومادة من غير معنى » .

أنشأ في « ألف باء » الدمشقية طائفة من المقالات الأدبية والاجتماعية ، وساهم في تحرير مجلة « الرابطة الأدبية »، فترك فيها بعض الفصول الأدبية والقصص المترجَم .

وتولّى رئاسة التحرير في مجلته « الميزان » ، ثم في مجلة « الفيحاء » لصاحبها قاسم الهيماني ، فزوّدهما بمعظم آثاره كما منحهما أيقظ أفكاره .

وأصدر « الكرميّات » وهي مختارات من مقالاته وقصصه التي أنشأها قُبيل قدومه الى الشام ، وقد طبعت بمصر عام ١٩٢١ في مئة صفحة .

وترجم عن الانكليزية رواية « ميّ » أو « الخريف والربيع » ، ورواية « خالد » ، ثم « الوردة الحمراء » لاوسكار وايلد .

وكتب في مجلة « العروس » لصاحبتها الأديبة ماري عجمي ، وفي غيرها من المجلات في الوطن والمهجر .

وقد علمتُ ـ كما أخبرني هو نفسه ـ بأن له شعراً ، ولكنه لم يكن يرضى عنه باعتباره دون الشعر الذي يرتضيه ، فلم يسمح بنشره ووقوف الناس على خبره .

* * *

اتصلت بيني وبين المترجَم أسباب الصداقة اذ كان لا يمضي عليّ

أسبوع دون أن أراه ويراني المرة والمرات ، ، وربما اصطحبنا في بعض الاحيان صحبة الطريق الى زيارة صديق ، أو الى جلسة انس نروّح بها عن النفس ، أو الى غرض من أغراض الكتابة والنشر ، فكانت الدقائق في صحبته بما يرتجع عليّ من فوائد لا تردُ مردّها الساعات الطوال بين الكتب والأسفار ، فأصوّب الرأي في أخطاء كنت أعتقدها صواباً ، وأزيد من العلم بعض النقص من جهلي ، وأقف على كثير مما لم يكن يستوقف نظري . واني لمثبّت" ههنا ما تكشّف لي من هذه الاتصالات مما يكشف عن نواحٍ متعددة من حياة الكرمي وشخصيته .

اضطر الاستاذ يوسف العيسى ذات مرة الى زيارة فلسطين ، فلم يجد على كثرة من يعرف مَن يخلفه في ترؤس تحرير جريدته «ألف باء» غير الاستاذ الكرمي . وليس يقدر مثل هذه الثقة حقّ قدرها الا من عرف مبلغ حرص الاستاذ العيسى على فاتحة جريدته ، لا يتخلّى عن مكانها الا ما ندر ، لمن عظمت مكانته واشتهر . وانها لثقة متكاملة ، ثقة بالمقدرة ، وثقة بالخلق ، ولا غَنَاء عن احداهما كي لا تكون ثقة تفتقر الى الثقة . وكنتُ أقدّر في مثل هذا الوقف أن يطالعنا الكرميّ بكل مستحدث مما يتّصل بقضايا الساعة على نحو ما يفعل مَهَرة الصحفيين في الجرائد الرصينة ، ولكن سرعان ما خاب الظن اذ ما كدت أقرؤه في أول مقال له ، وعنوانه « ماذا أكتب؟ » وقد دارت معانيه على الحيرة والرّبكة ، حتى أيقنت أن الرجل أديب عبقري ، وما هو بالصحفي ؛ وشتان شتان بين الاثنين ؛ لا يصدر الاول عن رأي لا بعد طول رويّة وتبصرة ، وفسحة من مطالعة ومراجعة ، وليس للثاني غير العجلة تلهبه بسياطها ليخرج في قوله عما يصوّر كلّ شيء خلا الرأي المُحصَد أحكمت معاقده ومقاصده .

وزرته في داره ، وكان مِعزابة لايشاركه فيها أحد ، فاذا في ركن من غرفته جذاذات من الصحف المصرية استراحت فيها مقالات لزعماء التجديد ، وفي الأخص العقاد والمازني آثر الكتاب اليه ، فازددت يقيناً على يقين بشدة تأثره بهما ، وحرصه على قفو اثرهما . واني

وانا اذكر هذه الزيارة ليتخطر لي كيف كان يعيش في مثل داره المتواضعة لا تظلل سماؤها شريكة ولا تضحك شمسها اولد ، وفي مثل غرفته لا ترى جدرانها الى غير الكتب والاوراق ركنت فيها مبعثرة ، بينا هي تضم عبقرية فذة نادرة ، ثم اراني اتساءل عما كان يتخالجه في مثل حاله من غربته بعيداً عن أهله ، ومن فقره غنياً بأمله، ومن انسراق صحته قوياً بعقله ... ماذا كان يتخالجه من هموم جائحة كان يملك علاجها والطب لها بسعادة واحدة هي هذا الأدب الذي يترجم به عن ذات نفسه ومن حوله ، ويتغذى به فيحس الحياة أرفع من الواقع ، وأحقر من أن يحفل بهناتها وأقدارها الزائلة ... وماذا في الفقر المادي حين يكون صاحبه غنياً بثروته الفكرية ومطامحه القصيّة ؛ وماذا في العزوبة وقلة الانسال وله من حياته الفكرية عرائس من الجمال، ونتاج تتصل به حياته خصبة مثمرة الى أبعد الأجيال؟ . . أما أن الأديب الحقّ ليحيا بروحه فيشقى ويسعد بأدبه روح حياته وغاية مطلبه ، ويستهين بكل شيء دونه . انه يعيش في سموات عليا من أفكاره وأحلامه ومثله ، فلا يؤلمه من حياته الأرضية ما يؤلم سواه ممن لا أجنحة لهم يخفقون بها الى القمم والذروات السامية ، وممّن تلهيهم الحقائر الفانية ، فلا تمتدّ عقولهم ، ولا تتسع الا الى القريب القريب .

وعهد اليَّ ذات مرة بترجمة حياة الشاعر الانكليزي «غولد سميث» عن الفرنسية ففعلت . ولقد أعجبته أمانة النقل وصحة الأداء ، ولم يكتمني ذلك .

وقرأ لي نقداً لأحد الشعراء المعاصرين ، فاستزادني من مثله بعد اذ اثنى على ما تخلله من جراة مفحمة وحجج مُلزمة .

وقصّ عليّ من جملة اخباره بمصر انه كان يقضي سحابة ايامه ثم زلفاً من الليل ، ما يحرك القلم بين انامله بكلمة ، حتى اذا ما خلد الناس الى احلامهم في مضاجعهم ، وتهادنوا عن عراك يومهم ، نهض هو الى احلامه وجهاده يستمد بنات افكاره ممّا راى في نهاره ، فكان

في ذلك كأنما يستقطر معانيه المضيئة من الشمس نوراً، ليخطها بسواد من الليل مداداً ، أو كأنه المصوّر يلبث طوال يومه يلتقط الصور سلبية، ثم يخرجها في ثنايا العتمة مجلوّة في ايجابيتها . ولقد نسج على هذا المنوال مدة اشتغاله بالكتابة في أرض النيل ، يعتمل ليلاً نهاراً ، ما يخلد الى الراحة الا غراراً الى أن ساءت صحته ، وانهدّت قوته . ولم يكشف عن لَبْس خطئه ووبال تفريطه الا بعد حين .

وكان أن انقطع ما بيني وبينه على صلة من ولاء ، لا قطيعة من جفاء ، وذلك بسبب مرض عراني وقد امتدّ مداه وعَرَقتني مُداه ، ثم بسبب آخر هو انهماكي بفتح مطبعتي الجديدة وقد استغرق وقتي كلّه .

ويا لَعظَم ما لحقني من الجزع ، وما توزّع قلبي من ألم حتى كاد يتمزع ، حين انتهى اليّ خبر نعيه وانتهاء الزمن من مقياس حياته وهو في الثالثة والثلاثين من عمره لا أكثر ، لم يرحمه السلُّ فاختطفه في غضاضة شبابه ، وعاجله بحمامه قبل تمامه (١) . ثم زادني أسى وحرقة أنه قضى فقيراً ، مغموراً ، لا أهل من حوله ، ولا من يحضر احتضاره، اللهم الا نفراً من الأدباء عارفي قدره . ألا ما أشقّ الموت يقع كالصاعقة الراجفة لا نملك من ضعفنا وجزعنا ما يظهر عليها في عنفوانها ورجّتها . وأكثر ما يكون كذلك حين يصيب قلوبنا فيمين نؤثر ونحب، أو يفجع آمالنا فيمن يكون فقده فقد أمة ، أو يخالفنا في منطقنا فيأبى الا أن يجعل قصيدة الحياة قصيرة البحر مختصرة العمر، وهل كان موت الكرمي الا مأساة قلوب أحبته ، وفجيعة آمال فقدته ، ورزيئة قَدَر عجّلت بها حكمة القدر بما لا يغني فيها الحذر ؟

لقد قضى الكرمي كالغريب في وطنه ، لايكاد يدري به أحد ، وتبخّرت شهرته كطبقة من الدخان ذرتها الريح هباء في الفضاء ، وتناسى قراؤه المعجبون به ما طالعهم من روائع الأدب السريّ والنقد الجريء ، واغتبط بانطواء صفحته أخصامه ممن كان عليهم منجلاً

---

(١) توفي الكرمي عام ١٩٢٧ وكان مولده بمدينة طولكرم بفلسطين عام ١٨٩٤م .

عضباً ، ولم يفز من زملائه وخلّص اصدقـائه بحفلة ذكرى تتكافـأ وعبقريتـــه كأول اديب في نهضتنا الأدبيـــة بثّ روح النقـد الأدبي والاجتماعي ، وشرع المحجّة امام الاقلام ، ونفى عن المدارك كثيراً من الأوهـــام .

ألا ما أسوأحياة الأديب في الشرق!.. ولو هو شاء ان يقابلها بحقها وحقه عليها ، اذن لما حرّك والله قلماً ، ولا عانى من أمرها هماً ، ولآثر عليها أيّ حياة اخرى هي أسلم عاقبة وأردّ سعادة ... فهو يحيي موات النفوس والأفكار ليموت مجهولاً مغموراً ، ويملأ الدنيا نوراً وخـيراً ليُطمس على شهرته واحسانه ، ويحيا لقرائه وأمته صديقاً مخلصاً يمسح على آلامهم ويوسّع من آفاق أفراحهم وآمالهم حتى اذا دهاه الموت ماتت عندهم ذكراه ، وكان نسياً منسياً ، بل ضنوا من حقوقه بكلمة تقال فيه تمجيداً وتخليداً .



أحمد كرد علي

وجه واسع ممتلىء زانه اشراق من الأنس كأنما تبسّمت فيه الشمس ، تلتمع فيه جوهرتان كأنهما جذوتان متقدتان ذهب ببعض بريقهما طول السهر والتسهيد ، ومن فوقهما هامة كأنها ضاقت بما تلبّسها من الشّعر فتجردت من أكثره ، وعلى جانبيها لِمّتان ألمّ بهما المشيب ، تطلان على فمٍ مترام انفرج عن أسنان غادر معظمها مسكنه ، ولصوته غنّة محببّة وفي الأخص اذا خالطها الضحك ، ثم جسم مترهّل مال الى البدانة .. وكان لايسير الا والعصا في يده كأنها بضعة منه لاغناءَ عنها ، وهو إمّا في عمله وراء مكتبه ، أو في أحد المقاهي ، مايقع عليه النظر في غيرهما الاّ ما ندر .

فان أخذتَه بما وراء محاسره الضاحيةأخذَك منه الخُلق السّهل أسلسَ من الماء وألينَ من أعطاف النسيم ، ثم التواضُع في أنفة جمع بينهما على مؤالفة ، ثم الدّعابة يتوخّى بها الى شتى أحاديثه ، فتخرج كلاماً نديّاً على السمع والقلب ، ثم عدم المبالاة بكل ماتبتليه الحياة، أضف الى ذلك التفاؤل برضاه الشامل يميل به عن كل وجدٍ وكآبة وكل ما يتعاضل من الشجون والهموم، ليأخذ الدنيا من وجوه مباهجها ولذاذاتها ضاحكة مشرقة .

وكان كسّاباً وهّاباً ، يربح الكثير والقليل ، فلا يمسك منه شيئاً كأن في يده مثل المصفاة بخروقها يسّاقط منها كل ما فيها .

وكان حبيباً الى كل من عرفه ، كما كان نجيداً لكل من قصده واسترفده .

وكان حبيباً الى كل من عرفه ، كما كان نجيداً لكل مــن قصده واسترفده .

تخلّى له شقيقه الاكبر العلامــة محمد كرد علي عــن جريدته « المقتبس » ، فترأس عــلى تحريرها الى آخر حيــاته ، يسانده في ادارتها شقيقه « عادل » وهو من غير أمه .

وكانت طريقته في كتابة مقالاته أن يبدأها بجملة كأنها «كليشيهة الطبع »فيقول : اذا أنعمنا النظر في كذا وكذا . . .وبعد أسطر معدودة يردف قائلاً : وقابلناه بكذا وكذا . . تبيّن لنا الأمر على وجــه كيت وكيت . . الى أن يختم بجملة : وخلاصةالقول ، أو نستنتج مما تقدم . . وقلّما شذّ عن هذا النّسق أو حــاد ، كأنما هو قالبه القويم الأثــير لايحسن فيغيره التعبير والتفكير ، أو كأنه عنوانه عند قرائه يستشفّونه من ورائه ولو لم يوقّع قوله بامضائه .

بيــد أنه كان يُحسن التركية فيستعين بهــا في نقل الاخبــار وتجليتها . وكان يُعنى بخطّه من حيث لايجد منضد الحــروف في المطبعة أي عناء في مطالعته .

وأنت تقرؤه فما تجد له ميزة بخاصّتها بين الصحفيين ، سواء في لغته أو اسلوبه أو آرائه . لا ولا تجد عنده الروح الأدبية أو التاريخية أو الاجتماعية ، وكأنك وأنت تطالعه لتطالع خبراً من الاخبار وُسِّع في مضمونه وحواشيه بما يلبسه ثوباً فضفاضاً من معانيه ، وليس ثمة من نكتة تزينه ، أو حادث من التاريخ يمثّله ، أو قول مأثور يدعمه، فينمّ عن ثقافة عميقة غنية ، وعن ميزة من ابداع تشير الى صاحبها كبِدْع بين سواه .

وقــد يتخالجك العجب أمام هذا اللّون لايُفيق فيه النظر على جديد ، ثم ما يقابله عند صاحبه من صيت مديد ، ولكن ما أســرع ما يزول منك العجب اذ تذكر انه تولّى تحرير صحيفة كانت لعهدها من أعظم وأرقى الصحف ذيوعاً ومكانة ، وانه شقيقٌ لأخ استفاضت

شهرته العلمية الى أقاصي الاقطار العربية وبعض الاقطار الاجنبية .
وما أشك في اننا نظلم المترجَم اذا حصرنا شهرته هذا الحصر ولم نتدبَّرها بحقها الحقَّ من القدر ، اذ كان أبرع من شقيقه في فن الصحافة اليومية ، ولولاه لما تـأدَّى للمقتبس أن تحتفظ بمكانتها وتنهض برسالتها . فهو اذن قد استفاد وأفاد ، وتأثر وأثَّر، وله في ذلك من الفضل ما لا يُنكر ، ومن الشهرة كفاء ما أبلى وبذل .

أما اتصالي بالمترجَم فقد كان بسبب المطبعة وجريدته التي تُطبع فيها . ولا أنكر ان هذا الاتصال قد أغبَّ علي بعض الألم والانخذال ، بيد أنه لم يلبث الا القليل حتى انقلب الى خير جزيل ، فكان كالليل البهيم ينفرج عن الفجر الوسيم ، وكالحَرَج ينتهي الى الفرج .
وتفصيل ذلك أني ولعت منذ نشأتي بمعالجة الكتابة وبثِّ القرطاس ما يهجس به الخاطر ، كما كان من أعزَ مناي وأحبّها أن يُكتب لي حظ النشر فيما يجود به الفكر ، فلما أن وكّدت لي التجربة تلو التجربة أن الشأن أكبر الشأن لمن يقول ، لا للمقول ، فذاك هو المقياس الذي يقدَّر فيما ينشر ولا يُنشر ، وما يُقدَّم وما يؤخر ــ أنشأت بهذاالمعنى مقالاً الى « المقتبس » ، وسرعان ما نشرته مذيلاً بتعقيب يدعم فيه الرأي بوجوب نصرة الأقلام الناشئة ، فاتخذت من ذلك برهاناً على رحابة الصدر في النشر عند صاحبها ، وان صحيفته لاتجد أي غضاضةفي تعهد الناشئين المتأدبين أوَّل عهدهم بالكتابة متلدِّدين متسكِّعين . .
وشاءت الحقيقة ألاَّ تطول بها الشبهة ، فاذا أنا أكتب وأكتب من بعد وكأنني أخط السطور على الماء ، أو أنفثها دخانا في الفضاء ، فلا ألقي بها الى النشر الا لتُلقى في سلة المهملات . ثم ما راعني الا أن صاحب المقتبس ، لاسواه ، يكتب اليَّ ساخراً هازئاً بأن أستعفيه من درري وجواهري . ولا تسل عما ألمَّ بي آنذاك من الهم والوجد حتى لقد آليت أن أحطم القلم ولا أخطَّ حرفاً من بعد .

ولكنها دورة من الزمن لا أكثر ، حصَّلت فيها ما حصَّلت ، وانتجت ما أنتجت ، ودار باسمي بعضُ الشهرة ، واذا انا في أحد

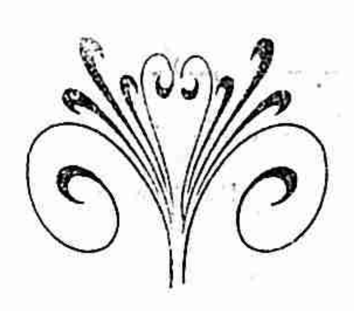
الأيام أتلقى من « المقتبس » خطاباً يعرض عليَّ فيه صاحبها المساهمة في التحرير ، وكان ذلك أيام الثورة السورية عام ١٩٢٦ .

وكان عملي بادىء بدء مقتصراً على حقلين أنقل اليهما أخبار القضية الوطنية عن الصحف الاجنبية ، ثم امتدَّ فعُهد الي بالتصحيح، ثم امتد أكثر الى انشاء بعض الرسائل الأدبية والاجتماعية ، ولم ينقض الشهر الاول حتى كنت أراجع كل ما ينشر ، حتى المقالات الاولى بخط رئيس التحرير ، وهو الذي ينشئها على عجل فلا بدَّ فيها من اعادة النظر .

وانهما لموقفان متناقضان زدت بهما ايماناً على ايمان ، بأن اليأس ينبغي ألا يكون له في حياتنا مكان ، وان الجدَّ كفيل بالنجح مهما يطل به الزمان ... بل تخذت منهما خير زاد في مضاعفة السعي والنشاط مهما يعترضني من عراقيل وعقبات .. وصرت الى الاعتقاد الجازم أن الصدمات التي تنزل بنا يتنزَّل معها الخير ، واننا بمثل هذا الاعتقاد نخفف من وطأتها ونظهر على شدتها ، ونستقبلها على أنها مستبطنة بالحسنات والخيرات .

ومن الأحداث التي لا أذكر المقتبس وصاحبها الا ذكرتها ، ولا تنسينيها الأيام مهما استرخت وتباعدت ، أنني شرعت بكتابة سلسلة من القصص بعنوان « فجائع دمشق » صوَّرت فيها ما تعاضل الشام أيام ثورتها الكبرى من منكرات المستعمرين الطغاة ، وكنتُ أستخفي وراء توقيع « ابن زيدون » فلما كانت القصة الخامسة ، وفيها حديث الحرائق وما أجنت على الثروات والعباد مما سيذهب مثلاً على الظلم والاستعباد ، ما راعني الا واحد الأصدقاء الخُلَّص ممن لهم صلتهم بالدوائر الفرنسية ، يسرع اليَّ محذِّراً ناصحاً اذ نُمي اليه ان القوم في طلبي على جهل من حقيقتي ، وقد بثوا العيون للكشف عمن يكون « ابن زيدون » لينزلوا به أشدَّ البلاء ؛ ولكن اختلط عليهم الأمر ، فتوقفت عن متابعة النشر ، وهكذا خلصت مما كان يترصدني من الشر .

رحم الله الاستاذ أحمد كرد علي ، ما أحمد أيامه في ذكرياتها ثم ما أمرّها بانطواء حياة « المقتبس » ، ثم رديفتها « القبس » ، ثم غيرها وغيرها من صحف لاتكاد لاتحصى ، وكلهـا مما استوفى في دمشق أنفاسه و ووري أرماسه ، كـأن دمشق لاتبقي على حيـاة صحيفة الا مادام صاحبها قيد الحياة ، فان قضى الله بأمره توارت هي في إثره. بل كأنها المقبرة ، مقبرة الصحف تتبخّر فيها المجهودات مهما ترامت وتناهت ، وتدفن معها العبقريات مهما تسامت وجلّت .



أُدبب التقي

فحولة ورجولة تَبْدَهانك أول ما تلقاه في شتى أنحاء قوامه ، من رأسه الى أخمص أقدامه ، وأول ما تستمع الى صوته الهادر بصيغة الناهي الآمر ، ثم حين تتفرّسه مفصّلاً في تقطبه العابس كأنه اليائس ، وفي نظراته من عينيه المتوقدتين وكأن فيهما زرقة السماء أو البحر ، وفي أنفه المتعالي عن ترفّع والمنحدر عن تواضع ، وفي فمه بمرشفيه كاللوزتين الناضجتين ، ثم في عنقه الغلباء فوق صدره بألواحه العريضة ينتهي ببطن منداح ، حملته ساقان عبلتان بردفيهما ، ثقيلتان بوطئهما .

وانه بشقرة شعره ، وزرقة عينيه ، ونصاعة بشرته ، ثم في رزانة مشيته وحركته ونظرته ، لأشبه ما يكون بالانكليز ، حتى لو انه أجاد لغتهم ، وتخفّف بمثل قضافتهم ونحافتهم ، لما خلته والله الا واحداً من أبناء التاميز .

على أن ربالته عارضة طارئة تلبّسته مع تقدّم العمر ، يدل على ذلك أحد أمثلته المصوَّرة في نشأة شبابه وشرّة إهابه ، اذ كان في الجيش العثماني ضابطاً ، وهو في نصف وزنه وحجمه من بعدُ .

لقيتُه ذات يوم وكنت في صحبة صديق مِبْدان في مثل تراكبه واكتنازه ، وكأنه مني في نحولي شخصان اثنان ، فما أن وقع علينا نظره ، ووقّعنا التحيّة متبادلة النّغمة حتى سمعته يقول والدّعابة ملء فمه : يا حبذا لو انصهرتما في قالب متماثل ليخرج أحدكما مثال رفيقه المتكامل ، من حيث لاشطط في الضخامة ، ولا ضآلة في

النحافة . وكأني به كان يترجم عن دخيلته متمنياً على ربه لو يتجرّد هو من كدنته وهذه الزيادات التي شوّهت جسمه ، وأشقته في صحته وحياته .

وحضرته في احدى محاضراته ، في أحد المنتديات ، فقدّرت لحديثه كل مقدّر الا أن يصرفه في الوجه الذي انصرف اليه ، فقد أفاض في التحدث عن وجوب العناية بالصحة الجسدية ،وعن رعايتها في الأخص أيام الفتوّة ، وعن أثر ذلك في نجاح الحياة العملية ، الى غير ذلك مما خصّ به الأطباء قبل الأدباء ، فخلصت مما سمعت الى ما يختلج في فكره ، ويعتلج في صدره من أمر صحته .

وما أذكر أنني قابلته مرة الا هجم عليّ بالنصح جامحاً جارحاً أن أشفق على نفسي، ولا أركبها بمثل ما أركبها جهداً ونَصَباً وضنىً . فكنت أضحك في جوابي اليه بأني قد تعاهدتُ وملك الموت على أن يمدّ من أيامي نسيئة في أجلي بعد اذ أدرك قلة غَنائه في مثل ضعفي وهزالي .

* * *

واذا كان للمرء من اسمه نصيب ، فللاستاذ أديب التقي من اسمه ولقبه أوفى نصيب . فكأنما تكشّف الغيب لبصيرة أبويه حين سمّياه باسمه ، أو كأنما توافقا والقدر على ما سيكون في مستقبله فاستجابا له في تسميته بما هو أهل في فضله ، أو كأني بالمترجم نفسه أبى الا أن يكون رقيباً على نفسه في ألا يراقبه الناس الاّ اسماً على مسمّاه ينزل أحدهما من الآخر نزول الفرند في حمالته ، والسبيك في بوتقته ، فكان تقياً أي تقي ، وأديباً أي أديب ، جمع بينهما في مثل الغادة بلغت غايتها في الحسن ثم زادت فاكتست بالزينة تضاعف جمالها ليكون آية الآيات .

أديبٌ اديب كاسمه لا كمن غدا يسمى اديباً وهو غير أديب
تفرست فيه فهو لاشك آخذ بأوفر حظ في العلى ونصيب

أما التقوى فكانت تقوى الروح والخلق معاً كأن فيها قبساً من روح النبوّة وخلقها ، وأما الأدب فقد ولد في دمه ولحمه وعصبه ، ثم انبثق نوراً من عبقرية على لسانه وقلمه ، فكان له ولادة طبيعية لاشأن له بها ، ثم ولادة لها كل الشأن في حياته والحياة العامة .

عُرف بالتديُّن كما عُرف بالشمائل الرضية الأبية، مثالاً مما ينبغي للمرء في مثل هذا العصر ، أخذاً بروح التقوى، ما يجانب الحق في القول ، والطهارة في الخلق ، والسموّ في العقيدة ، ثم الميل عن التزمت يبلغ مبلغ العصبية الذميمة . ومن أجل ذلك رضي عنه المتقدمون ممن درجوا على السنن القديم في التربية والعقلية ، وفاز باعجاب المجدِّدين شباباً وناشئين ممن ينزعون الى التطوُّر ومجاراة ركب الحضارة والزمن ، فجمع من هنا وهنا ما استوى به صورة محبَّبة للمسلم المؤمن يحافظ ويجدّد في آن واحد .

عاش أبياً أنوفاً ، يأبى أن يتهضَّم أو يستذل ، أو يعمل الا بوحي من عزّته وكرامته ، ورضىً من ربه في دينه وعقيدته ، لايستكين لما اعتدّه له الدهر من قهر وعنده عدته من الصبر ، ومن زيغ وله من ضميره الحيّ النور الذي يهديه سواءَ السبيل . وقد أحلّ الإباء من نفسه أرفع المنازل ، ليكون أبعد من أن تتصل به السفاسف والصغائر ، وأسمى من أن يؤذن فيه للحق أن يؤذى ، أو يهاود في توفية واجبه . ومن ثمّ كان كأنما فيه مثل روح النار في الانفعال اذا ماسّه أقلّ الضيم ، وللمَوْت عنده آنذاك أهون من الهوان .

وما أشكُّ في أن هذا الطراز من الإباء نتاج اعتزاز لا اغترار ، فهو قدرٌ للنفس يسمو بها عن مواطن الصّغار ، ولا يبعث على مثله الا ترخّص قيمة الفضل والتّنكر لأهله في حق نيله . وتلك طبيعة النفوس الحرّة العزيزة يتعاظم فيها شعور الاعتداد بمقدار ما تلقى من حيف واضطهاد بعد طول البذل والجهاد ، فتنكبت بمشاعرها مرتدّة لتنبعث من بعدُ متمردة ، وفي ثناياها السخط والارتماض . أو قل انها لتتوردها أحوال تشعر فيها كأنما انقطعت بالدنيا صلتها،

فهي مما حولها كمن يعيش في مجهلة موحشة ، لا تجد حيثما دارت واتجهت الا ما يفلُّ غرب العزيمة والنشاط ، وما يقصر من طماح الآمال والرجوات ، لتحيا طليقة كالسجين ، نابهة كالمغمور ، نشيطة كالقعيد . فاذا ما أحسَّت بهذا العجز في امتيازها ، داخلتها الحسْرة في زهو ، ثم تملَّكها الاباء اما صاخباً ثائراً ، أو مسالماً مهاوداً على ما يكون صاحبُه من منازع الخير أو الشرّ .

ويتصل بهذا الإباء الأبيّ عند التقي ما أكسبه الزمن في شتى أطواره ، في مهمته كأستاذ مربٍّ وقف حياته على تثقيف النشء آمراً ناهياً ، ثم في وظيفته كضابط حاكماً قائداً ، ثم كمدير في المدارس الرسمية والأهلية مهيباً مطاعاً ثم ككاتب شاعر وعضو في المجامع العلمية مكرماً محترماً . ففي جميع هذه المراحل والمواقف كان لا بدَّ له من تمثيل الارادة الحازمة قولاً وعملاً ، ولا بدَّ كذلك من الأستاذية الراقية لا يجانبها أو يحيد عن واجبها ، فليس بدعاً اذن اذا ما انقطع على الاباء كسجية أصيلة لا تعمُّل فيها ، وقد اقتضتها طبيعة حياته العملية الى جانب طبيعته في حياته النفسية .

وما أروع الإبـــاء في شتى ألوانه ، وفي الأخصّ حين يتفجَّر وطنية من لهيب وشواظ ملء الصدور ، لا صبر فيها على الأذى والهَوْن ، ولا هوادة في النضال والكفاح . ولقد تعاضل سورية من نكد المستعمر وبلائه ما لا يعلم مبلغه الا الله فما ونى الأحرار والله عن المقاومة والمصاولة ولكلٍّ طريقته في الجهاد ، وكان مترجَمنا يبثُّ في طلابه روح التأبي على الظلم والضيم والتنكر للاستبداد والبغي ، وبذل الأرواح بذل السماح في سبيل الوطن ، سواء في دروسه اليومية ، أو فيما ينظم من الأناشيد القومية ، أو في خطبه الحماسية ، أو في كتاباته التاريخية والاجتماعية . وانتهى الى المستعمرين خبره ، وتعاظم في نظرهم خطبه وشره ، بل أصابهم مثل الخَبَل في أن يكون في معاهد العلم مثله ، فلم يجدوا للؤمهم وانتقامهم من وسيلة غير اقصائه عن وظيفته ، وزادوا فاحتجنوا حقه في سابق خدمته . وأكثروا التربّص به حداً

لنشاطه في وظيفته . فما كان منه الا أن انتقل عن أهله لا معين لهم سواه ، وعن وطنه أحبّ ما يكون الى قلبه . فقصد عمان عاصمة الشرق العربي حيث لبث زمناً ليس باليسير ، ثم عاد منها بعد حين .

وكان عصاميّ النشأة ، حصّل ما حصّل بجدّه وذكائه . فهو عصارة أيامه ولياليه عرف كيف يجتنيها خير اجتناء فيما يرتجع عليه خير غذاء ، وكان كلما عصفت به ضيقاً وتحيّفاً زادها من عصف همامته نشاطاً وتوثباً ، وما استلانت له يوماً مغرية غاوية الا استعصى عليها بعصمة من خلقه ودينه ؛ ولقد تذرّع على مصاعبها ونوائبها بالصبر وأطبّ لما فيها من بلاء بالايمان والرجاء ، فصحبها صحبة الخبير الذي لا يغتر بنعمائها ، ولا ييأس في ضرائها ، الى أن ملك من ذاته ما ملك ، وتفوّق كما توفّق . ومن ثمّ كان شديد الحفل بالعصاميين يحفظ الكثير من تراجمهم ، ويقدر منهم من وقف على حياتهم في حياته .

ولك أن تعلم بعد هذا أنه على فحولته ورجولته ، وابائه ورفعته ، لقد كان دعّابة ، يخلّل أحاديثه بالمطايبات والمفاكهات ، ويميل الى المهازلة والممازحة مع الصحبان والخلاّن . ويستخفّه الغزل بمختلف أساليب التشبيب كأنما يمسح به على جراحه وأتراحه ، ويشبّ نار حماسه ، متحولاً الى عالم من الأحاسيس الحلوة العذبة طالما حرم مثلها في مثل حياته المضطربة . والله الله حين تحضره في مجالس أنسه بين خاصة القوم ، مساء كل أربعاء من فصل الشتاء ، وبينهم العالم والأديب والتاجر ، فينشدهم ما حضره من شعر استظهره ، أو شعر جاد به خاطره ، بصوت رخيم ، وغنّة عراقية ، وطريقة ليس أحبّ ولا أندى منها على الأفئدة ؛ فيتمايل الحضور نشوةً من المعنى ونشوةً من المغنى .

وقد تعجب كيف يتفق الجدّ والهزل معاً وهما ضدان لا يتجاوران ولكن ما أسرع ما يفارقك العجب اذ تذكر ناموس الأخلاق في حدود بعضها من بعض من حيث يبتدىء أحدها عند الحدّ الذي ينتهي ما هو على نقيض معناه ، كالكرم والبخل مثلاً لا يتناهى الواحد منهما

حتى يستشرف الآخر ، وكهؤلاء الهزّالين على المسارح لا يتضاحكون ويضحكون الا بعد اذ تكون قد طفحت قلوبهم بالآلام والشجون .

* * *

أما خطُّ التقي فدليل شدّته ، سواء في فُحولة الحروف أو المدامجة بين الكلمات أو الانتهاء بسطوره أعلى منها في البداية . بيد أنه يمتاز بالبعد عن الطرس والطّلس ، وبجودة الخط وتنميقه ، ثم بشكل ما قد يستبهم من الكلمات ، وقاعدته هي « الرقعيّ » الأنيق . وأغلب مايصطنع اليراعةالدقيقة بسنّها، والحبر الأزرق بلونه،والورق الناعم الناصع .

سألته : كيف يكتب ؟ فقال : تعرض لي الفكرة ، فأجيلها فيرأسي مرّة تلو مرّة ، وأحيلها على ما درست واطلعت ، وما خبرته من تجارب ؛ وما أزال حتى تنجلي واضحة وتستقيم ناصحة ، فأنقلها الى القرطاس كمن ينقل شيئاً بين يديه وتحت باصرتيه . بيد أنني قد أستعين أحياناً ببعض المصادر تدعيماً وتبياناً .

والواقع أن التقي في تفكيره وبيانه قد احتذى العرب فيأساليبهم وارتاض بكلامهم حتى لو قرأته ولم تعرفه لما شككت في أنه أحدالأدباء القدماء في بيانه الرصين ، وفيه الكثير مما يمتُّ الى أدبنا أيام زهوه ان في الوصف والتشبيه ، أو حشد المترادف والمتوارد ، أو ضرب الأمثال . بيد أنه ممن يغلب عليه القصر في رحاب البحث ، فما يمتد الا الى الأشواط القريبة حتى كأنه يلمح الفكرة لمحاً من حيث لا جثالة ولا جزالة ، اللهم الا في بعض خطراته التي تحكي القفزات البعيدة بحكم الزكانة والتبصر ، ويقع ذلك حين يجول في التاريخ ، وهو فبه لا يكاد يلحق في مضمار أو يشقُّ له غبار ، بل ما لنا لانزعم بأنه تعشق التاريخ حتى استعبده ، وهو الذي ما أخذ بأطراف موضوع الا امتهد له بطرف من حوادثه الخاليات ، أو خلّله ببعض شواهده ، أو استاق منه المشابه والأمثلة ؟ اما ان النزعة التاريخية هي المسيطرة علىمجمل كتاباته وآرائه ، وهي اللون الطاغي الباهر ، والريح الذي يسطع منها

وينتشر ؛ ولا بِدْع فان طول تمرُّسه ودُربته في هذا العلم جعله كالطبيب الذي اختُصَّ بناحية من الطب ، فلا يعرض له مرض الا نظر اليه من تلك الناحية . أضف الى ذلك ان دراسته على الطريقة القديمة السائدة لبديئة عصرنا الحاضر قد كان لها ولا شك أثرها في أسلوب تفكيره وكتابته معاً . فان هو نجا من بعض قيودها وبدا مجدداً أو شبه مجدِّد ، فلاتصاله ببعض المحاسن في الطريقة الحديثة. ولقد أفاده في هذا السبيل اطلاعه على الأدب التركي ، ثم المامه بشيء من الفرنسية .

كان الزمن الذي نشأ فيه في أواخر عهده من الجهل ، وأول استقباله لرُويحات العلم ، وكانت المدارس أكثرها كتاتيب مغمورة زرية هي أشبه ما تكون بزروب الماشية ، وطرائق التعليم كأنها الطرائق المتبعة في ترويض الحيوان ؛ مبادىء من العلم واليها الضرب والتهديد والشتم ، ومشارب آجنة آسنة هي أشبه بوجر الدواء في الأفواه ، تُغصب العقول الفتية على هضمها غصباً ، فليس أشقّ على الطالب من المضيّ الى زريبته أو كتّابه ، وربما كان الموت أهون عليه من ذلك . ولطالما استن الكثيرون طريق الفرار هرباً مما سيلقون .

في مثل هذه البيئة نشأ مترجَمنا أول ما نشأ ، حتى اذا توفر على استظهار بعض آي الذكر الحكيم والبسائط من عمليات الحساب، نُقل الى المدرسة السلطانية ، احدى المدارس الرسمية ،حيث تغلبت التركية على معظم الدروس حتى الدينية منها .

وماذا لعمرك في مثل هذا التحصيل العقيم أن يثمر ، أو هاتيك النشأة المغمورة أن تُغني وترتجع ، وأي الآمال يستشرف طالب العلم يومذاك أبعد من الوظيفة ؟ وما عساها أن تؤول التربية في بيئة جامدة قاسية لا تعرف غير التعسُّف والتصلف والعصبيات الملتوية وقتل الروح القومية ؟ أليس ثمة واد للمواهب في مهدها ، واستفناء في العزوف عن مناهل العرفان ؟ اما ان مثل هذه الأسئلة ينبغي أن نتدبَّرها بحقها في أجوبتها توضيحاً لشخصية مترجمنا ، وهي لن

تتجه الا الى ما يوكّد الرأي بأن بديئته غير العاقبة ، اذ لـم يكن له من سبيل أن ينتهي الى مثل ثقافته الراقية بمثل بداءته الواهية . فلا بدَّ اذن من عوامل أخرى أثرت في توجيهه واعانته على تقدمه . ولعلَّ أخصَّ هذه العوامل اتصاله بالعلامة السيد محسن الأمين وأخذه عليه كثيراً من علوم العربية والتاريخ والفقه ، ثم دأبه الخاص على المطالعة، ثم توفّره على علم الحقوق ، مما هيأ له ثروة حقيقة بأن تؤهله للشهرة الذائعة لو عرف اليها أسبابها وطرق أبوابها .

وأحرِ بمن ملأ من الأدب القديم وطابه ، ومنح له لبه ولبابه، الى أن غدا عنده الأثير لا يُعدل به سواه ، ويسترخص ما عداه ، أن يتنكَّر للمذاهب الأدبية الطارئة ، ويحطّ من قدر أصحابها ، ومن ثمَّ رأيتــه لا يبغض مثل ما يبغض المجدّدين ، يأخذ عليهم اضطرابهم في النَّسق، وتوعرهم في المعنى ، وضعفهم في الطريقة البيانية ، وغلبة صناعة الترجمة عليهم ، وترسّم الغربيين في آرائهم وأهوائهم ، وفي طليعة هؤلاء الدكتور طه حسين اذ كان كثيراً ما يشنّع عليه لغته وأسلوبه ناعياً فـي الأولى الركاكة والتَّخلف ، وفـي الثاني ضيق الحظيرة والتكرار ، ولا يراه الا كمن يتلمظ الـكلام والمعاني تلمظـاً ويجترُّه اجتراراً ، يفتأ يبدي ويعيد ، مختصراً حيث ينبغي الاشباع ، مطيلاً حيث يستوجب الاختصار، فاذا بقارئه بعد صفحات متعددة من مطالعته لا يعود الا بالزاد الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ؛ ناهيك عـن أن الرجل حميلة على أدباء فرنسه في جلّى منازعه وآرائه ومذاهبه، وقد تنكر لقوميته ودينه بخروجه على تقاليد قومه والبناء بقرينته الفرنسية وتسميته أولاده بأسماء أعجمية ، ثم بمؤلفه في الأدب الجاهليّ . وكأني بالتقي والرافعي سيان في الرأي . ولا عجب فقد اتسعت الهوة بين المحافظين والمجددين في الأدب ، فما نجد من وقف بينهما وسطاً يجمع القديم الى الجديد ، والجديد الى القديم على ما يحفظ للأدب اشراق بيانه ورصانته في قديمه ، وتطوُّر معانيه والمعيَّته في جديده؛ فاما أدبٌ كأن فيه بداوة القرون الاولى للعربية ، واما أدب متهافت متفاوت تغلب عليه الهجنة السّوقية او صناعة الترجمة الأجنبية ،

وليس بينهما من مزج كأسه من هنا وهنا رحيقاً سائغ اللون والمذاق معاً .

ولبث التقي على مذهبه الأدبي حتى أواخر حياته ، لا يستخفه مثل التراث القديم ، وفي الأخص « نهج البلاغة » في المنثور ، وشعر الشريف الرضي في المنظوم ، وقد استظهر منهما الشيء الكثير ،حتى كانت مترادفات « النهج » تتوارد على قلمه عفواً ، وكذلك روح الشريف الرضي ما تكاد تفارقه في قصيده . ولما أن دعته الرجّة الكبرى الأولى الى الانخراط في سلك الجندية بعيداً عن مسقط رأسه لم يختر من سائر كتبه غير كلام علي وشعر الرضي كأنما وجد فيهما غناءً في المطالعة ، وسلوةً في الغربة ، ومتعة في الصحبة . أضف الى ذلك اشتغاله نيفاً وعشر سنوات في تصنيفه عن الشريف الرضي، لم يدع مرجعاً أو مصدراً الا تقصَّاه، ولا رأياً أو حادثاً يماسُ موضوعه الا عرض لمعناه وانصرف الى بيان مرماه ، الى أن جاء غزير المادة ، جمّ الفائدة ، يشهد لصاحبه بطول الباع وسعة الاطلاع ، والتعمق في التحقيق والتدقيق .

هذا وللأستاذ التقي ديوان أسماه « ديوان التقي » تطغى على شعره ديباجة الأولين وألفاظهم ومطاويهم . وله تواليف في التاريخ ولكنها على الأسلوب المدرسي . وترجم عن الفرنسية مع أحد رفاقه قصة لا يحضرني عنوانها ومؤلفها . واشترك مع طائفة من الاساتذة في اخراج سلسلة أدبية تحمل عنوان «الطُّرف» تخيَّروها من أُمهات كتب الأدب، وجلوا غوامض ألفاظها. هذا وقد ترك طائفة من الموضوعات الاجتماعية والذكريات نشرها في الصحف والمجلات ، وبخاصة مجلة « العرفان » الصيداوية .

* * *

أما صلتي بالمترجَم فما أنسى عهدها لأنها مما لا تنسى على بعدها، فهي ترجع الى أيام كنت عاملاً مغموراً وكأن القدر يومذاك أبى الا أن يتورّدني بالمصائب من كل جانب ، فلم يجزئه أن أكون فقيراً لا أملك

حتى ما أقوّم به جسدي في يومي ، وأن أعيش بين الأسى والمهانة حتى زاد في تعسّفه فهجم على عيني اليسرى بالرمد ، وعلى عنقي ببعض الغدد والعُقَد ، وعلى قلبي بكثير من دواعي اليأس ، فما أسمع ولا أرى ولا أحسّ الا عزيف الأسى كأني في مناحة دائمة لانهاية لها .

واني لفي مثل هذه الحال الموجعة اذ يعنّ لي ذات مرة أن أصف هذا الذي يجف في قلبي ويختلج في رأسي ، فأستوكف خواطري على القرطاس يطالعها القراء كيما يتأسّى بها من هو في مثل أساي ، بل أجعل منها شبه متنفّس يخفّف بعض بلواي . ثم مضيت بما خططت الى الاستاذ التقي في داره ، فاستقبلني في فراشه معتذراً بما ألمّ به من زكام أقعده عن القيام .

ولما نظر فيما جئته به أثنى عليّ مكبراً لمثلي أن يصدر عن مثل ما كتبت ، ثم سألني اذا كان يرضيني أن يحوّر ويثوّر ما لا يرضيه وما قد يرى التصويب فيه ، فلما علم أني سأكون شاكراً لكل كلمة أو جملة يجري بها قلمه محوّراً ، راح يطمس ويطلس هنا وهناك حتى لم يبق من الأصل الا مثل ما يبقى من فلول الليل هاجمته طلائع الفجر . ولقد أفدتُ من تصويباته ما يفيد الساري في البيداء يتلمّح بعض الأضواء مما يهديه سواء السبيل ، وشعرت بوقدة في العزيمة تحفزني الى الاستزادة من الكتابة ما دمت أجد من يسدّد خطاي في الاقدام ويدفعني الى الأمام ، وماذا يضيرني أن أعيّث ما أعيّث ثم يتحوّل عجزي الى قوة ، شأن كل من كان مثلي أول حبوه في طريق الأدب .

وأنشأت بعد حين مقالاً عن الطباعة وخطرها ، وكان نصيبه أقلّ من نصيب ما تقدّمه تصحيحاً وتنقيحاً . الا أن التقي زاد فيه بعض التواريخ عن تسرّب الطباعة الى بلاد الشرق ، وقد أشار عليّ بنشره في « العرفان » ففعلت .

وكأني بالتقي قد استهوته دنيا المطابع بعد الذي شاهد من نجح بعضهم فيها ، وبعد طول مخالطتها ، فصمّم على اتخاذها مهنة

تغنيه عن الوظيفة ، بيد أنه لم يخط في هذا السبيل بعض الخطوات حتى رجع عن عزمه كأن ارادة العمل عنده لم تكن كفـاء الارادة في التقدير والتفكير .

ولقيتــه مرة وقد مرَّ بي زمنٌ ليس باليسير لم أره فيه ، فأفضى الي على عادته باضطراب باله وشدة قنوطه ، وشكا كثرة الأحــزان وهموم الزمان ، الى آخر هذه المعزوفة الشجية .. فما كان مني الاَّ أن أنكرت عليه تشاؤمه واصفاً اياه بالكفر والشتيمة للقدر وصانع القدر ، واني لا أراه خليقاً بمثله في اكتناه الحياة وفلسفتها ، بل أجده معنى من البلاء وزيادة البلاء . وهو بهذا المعنى مأثمة في الدنيا قبـل الآخرة ، وليس ثمة أجمل ولا أفضل من أخذ الحياة والوجود مـن الناحية المشرقة المونقة التي تحمل الى النفس التفاؤل واليمن مهما اشتد الخطب وناءَ الدهر .

وسبحتُ في هذه المعاني سبحات بعيدة أفضت بي الى الحديث عن النجاح وخطأ الأكثرين في اكتناهه بحق معناه . وكان من جملة ما قلت : ليس يغني المرء كيما ينجح أن يكون عالماً ، مثقفاً ، شـريف الاخلاق ، قد استجمع كل فضيلة ومكرمة ، بل لابدَّ له من امتـلاك عدَّةِ النجاح ، وانها فن بخاصَّته ان لم تتوفَّر لصاحبها لم يتوفَّر له الخير والجداء في شتى مواهبه ومناقبه ، وعاش كالزهرة التي تعقد وتثمر ولاتؤتي أكلها ..

ثــمَّ أردفت معقِّباً : وان في حيــاة استاذنا لخير شاهد عـلى ما أقول ، فهو على أنه كالبدر علماً وفضلاً ، أراه يطمس على نوره بالسحب الكثيفة من حوله ، بدلاً من أن يرسل أشعته متموجةً نفَّاذةً تطيح بكل سحابة ربداء تعترضها . ثم هـو لايكاد يقع عليــه النظر الا عابساً يائساً ، ولا يخالط من البشر الا أفراداً بأعيانهم ، ولايتكلف نشر هالات الشهرة حول اسمه ، ثم هو بعد هذا كله يشتكي غمط حقه والغضَّ من فضله وقدره ، ولو انصف لعرف واعترف بأنه هو سرَّ شكاته ، وسبب محنته .

وكنت أقدّر أن أسمع من الاستاذ التقي بعد الذي قدمت ما قد يدفع به عن نفسه ، أو ان ينكر علي ما قلت كلّه أو بعضه ، أويرد بلاذعة من لواذعه ، وهو الأبيّ المتأبه . ولكنني سمعته على النقيض يشكر لي صراحتي الناصحة ، ويضرب لي موعداً قريباً للافاضة في مثل حديثي عن النجاح لأنه الحديث الذي يجد فيه المتعة والفائدة معاً .

وأحاديثي معه من هذا القبيل كثيرة ، منها القريب ابن الساعة ، ومنها البعيد المتنوّع ، يتناول الأدب والتاريخ والحياة بصورة عامة ، وكانت الصراحة معتمدنا كما كانت الدعابة بعذوبتها تنسم على مباحثاتنا لتنفي كل أثر من السآمة .

وفي الثامن والعشرين من آذار عام الف وتسعمئة وخمسة وأربعين استُخير الى بارئه اثر مرض عَياء لم يَجْدِ فيه طب الأطباء ، فاختطفته المنون أسرع ما يكون غصناً يانعاً بَسَقَ فرعه وطاب ثمره ونبعه .

والغريب الغريب انه لبث الى لحظاته الأخيرة لايفارقه الأمل بالحياة والرجاء بالنجاة ، حتى لقد التمس وهو يجود بروحه أن يأتوه بكتاب علم أن له تماساً بمؤلفه الجديد عن الشريف الرضي(١) . وقد كان لنعيه رنة أسى شديد عند عارفيه ، ولاسيما عند طلابه وطالباته . وقد رثيته بقصيدة قلت فيها :

فقدت دمشق اليوم بدراً نيِّراً	يا طالما استهدت به الآراء
فقدت أديب بيانها وتقيَّها	فقدت مربّي نشئها الفيحاءُ
فقدت اديباً كان معقد عزّها	يوم الفخار اذا انبرى الأدباء
صمت الهزار وكان يعذب شدوُه	وخبا الذكاء ونوره الوضاء
لهفي عليه وقد رماه من الردى	سهمٌ ترامت دونه الأحشاء

(١) طبع هذا المؤلف بعد وفاته عام ١٩٦١

لهفي عليه والمنايا خوّم ... جارت عليه يمينها الرعناء

سلبته أحوج ما نكون لمثله ... بدراً تتيه بمثله العلياء

فأصابنا ما قد أطاح بصبرنا ... وأصابنا الاذهال والاعياء

وتساءلت منا النفوس عن الحياة : أنحن فيها ذرة وهباء ؟

وعن الخلود وسرّه ما بيننا : ... أحقيقة ، أم خدعة وعفاء ؟

ان الوجود بقاؤه بفنائه ... لولا الفناء لما استدام بقاء



أمين ظاهر خير الله

الشبه قريب بألوانه ، جليّ بعنوانه ، يفجؤ على نحو واحدٍ بين المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، أديب العربية الكبير ، والمرحوم الشيخ أمين ظاهر خير الله ، العالم اللغوي الشهير . واذا ما باعدت بينهما عبقرية البيان والأسلوب ، فان الصلة بينهما لشديدة فيما خلا ذلك ، فهما على منزع واحد في العناية بلغة الضاد ، وهما سيان في النزعة الروحية الدينية ، ثم هما كاتبان وشاعران ، وفوق هذا كله يجمع بينهما الشبه القريب بالصَّمم ، وما يستتبع من ألم لا يرحم ، فيقضي صاحبه العمر أسير الحرمان ، مهتضم الحق ، مُفارق الصحبة ، منكمش الرغبة .

ويتعاظم خطب الصمم عند مترجمنا في انه مقترن بضعف البصر ، فما يسع العين أن تنوب عن الأذن في بعض وظيفتها ، كما هي حكمة الطبيعة في التعويض والمكافأة بين الحواس ، تأخذ من جهة لتعطي من جهة ، وتضعف من هنا لتقوّي من هناك .

وان يتأدّى لك تقدير هذا الخطب في مثل أن تتصل بصاحبه مخاطباً ، فتضطر أن تجعل صوتك في ثغرة أذنه لتتلقّى ردّ جوابه ، وكثيراً ما تلقّفه على غير صوابه ، فتبدي وتعيد مرات ومرات ، بين اقبال وادبار ، واشارة وايماء ، الى أن تبلغ القصد ، أو أنت مكرهٌ على رقم حديثك في ورقة ليمرّ عليها ببصره من وراء مجهر صغير بيده ، ثم تتلقّى الجواب كتابة لتعيد عليها الردّ كتابة مثلها ، وهكذا الى آخر

هذه العملية التي هي أشبه ما تكون بالتمثيل ، الا أنه تمثيلُ عنوةٍ لاقدوة .

ومن آفات الصمم أنه يجعل مسير الصوت مضطرباً ، يسرع متعجلاً أو يخبّ خبباً ، متغيراً كأنما فقد خاصّته فهو كصوت الأطفال ، رفيع النبرات ، مشوّش الحركات ، يتخافت حتى ما تكاد تسمعه ، أو يتعالى ليبلغ درجة التصايح ، أو يتلون ليكون أشبه بالتناوح ، مما يستثير السامع إمّا ضحكاً أو رثاءً ، وكذلك كان صوت الشيخ أمين .

وكأني بالأصمّ يشعر بالشذوذ الذي خصّته به الطبيعة ليكون غير الناس في طبيعتهم ، فيأسى في نفسه وربما حقد عليها وعليهم . بيد أنه لايلبث مع الأيام أن يتبلّد على عاهته ، ويتبدّد بعض همه ، وتتقارب عنده هذه الهوّة بينه وبين السّوى، بل هو ليحيل النقمة نعمة والسيئة حسنة ، اذ هو منها الى خير وفير من استجماع نفسه ، واستجمام حسّه ، وعونٍ ما بعده عَوْن على مجانبة اللغو وما يعكّر الصفو ، واذا لم يكن هذا شأن الصمّ جميعاً فهو من شأن الموهوبين . وفي مثل حياة بتهوڤن واديسون دليل أكبر دليل .

والغريب في الشيخ أمين أنه على علته المزدوجة في الصمم وضعف البصر كان الى ذلك لايتحدّث الا وعيناه مغمضتان كأنما هو يتحدث الى نفسه في أفكاره وأغراضه ، أو كأنما هو لايواتيه الكلام الا سابحاً في الظلام ، بل قل كأنه في موقف امتحان يخشى ابتدار ماليس فيه اعذار من القول . وقد تطول اغماضتُه أو تقصر حتى لتحسب أن قد عقد لسانه ، ثم اذا هو يتكلم كان كمن يلقي خطاباً ، يسترسل تارة وينكفىء تارة ، ولا ينعدل عنه سامعه أو محدثه الا وقد أخذ منه الضجر مأخذه ، ورثى لصاحبه بما خصّه به قدَرُه .

وكان لاتقع عليه العين وهو يطوي طريقه الى بعض غاياته الا مترسّلاً في مشيه ، منتحياً حيد الأفاريز ، وكأنه الجبل قطعة واحدة يتقلع تقلعاً ، متحركاً بجماعه في خطوات رتيبة كخطا الجند .

وقد يحدث أن يرتطم بأحد السابلة ، فيقذفه هذا ببعض غضبه ، فما يلتفت اليه ، أو يردّ عليه ، لأنه في شغل شاغل من نفسه ، اما بموضوع لغوي يتدبره ويتبصّره ، أو شعرٌ يستوحيه ويتخطّره .

وهو بعد هذا ربعة بين الرجال ، وسطٌ بين البدانة والنحافة ، أزهر اللون ، أصلع الرأس ، أشيب الشعر ، ولا تأخذه العين في مظهره الا مأخذ أنداده ممن صرفتهم الحياة الى ما هو أجل من التجمل باللباس والتأبه بالهندام . بيد أن هذه الصورة على جفوتها في المظهر تقابلها صورة أخرى في المخبر ما أروعها وأسطعها ، اذ هي خطوط وألوان من الخلائق القويمة الرصينة تتسامى بصاحبها تسامي الفضل والكرامة ، خلائق من التدين العريق يصحبه الايمان العميق ، ومن التسليم المطلق يغلب على كل همّ وقلق ، ومن البراءَة الوديعة كأن فيها روح الطفولة السعيدة . ولطالما أجدت عليه هذه الخلائق في مثل حياته بين حرمان السمع ، وضعف البصر ، وشظف العيش ، وضآلة الرزق .

ولشدّ ما كنتُ أستريح لروحه المؤمنة الآمنة ، وأغبطه عليها ، وفي الأخص حين كان يتحدث عن القدرة المبدعة ، والحساب بين الثواب والعقاب ، وحياة الخلود ، ثم برّ الوالدين ، والاحسان الى البائسين ، وما الى ذلك مما ورد في الكتب السماوية ، فيتحمس أيّما تحمس حتى كأنه يتكلم بدمه وعصبه وشتى أحاسيسه ، ويورد الآيات متشابهات من القرآن والانجيل والتوراة بما يسلكها جميعاً فكرة واحدة وان اختلفت صيغة وأسلوباً .

وجملة القول في أخلاقه انها مثال الاخلاق الكريمة ، فهو يرسل النفس على السجية كأنه الطفل قرباً في الغضب والثورة ، وميلاً الى الرضى والمياسرة ، واخذاً بالصدق والبراءَة ابداً . وهو في الصبر والجلد دائب السعي ، مرهف العزم ، كثير التصرّف ، يتنقل من بلد الى بلد لبيع تواليفه ممّن يتوسّم فيهم حبّ الأدب والعلم ومناصرة العاملين . وربما قضى الليالي ذوات العدد بين كتب اللغة

باحثاً منقباً ، مستقصياً متعقباً ، ليصيد الحقيقة في تصويب كلمة . وما أهنأه حين يقع على طلبته ، أو يقف على غير ما ذهب اليـه الراي الجامع، فهو في مثل هذا الموقف ليَنْسى الجهد الذي بذل ، والوقتَ الذي أنفق . والغالب انه لايكاد يفرغ من رسالة حتى يبتدر أخرى ، ولا يخلُص من تحقيق لغوي حتى يباشر بوضع قصة، أو نظم قصيدة . فحياته موزعة بين التأليف والكتابة ، والاختلاف الى المطابع ، والضرب في أنحاء سورية ولبنان تصريفاً لبضاعته الفكرية كيما يستعين بهـا على حياته اليومية .

وما رأيته يوماً متسخطاً متبرماً ، كأنه القانع الراضي بما هـو فيه دوماً ، يتلقّى ما يتورّده من الدهر هانئاً باسماً ، بل كأن الصمم في سمعه قد امتدّ الى صميم نفسه صمماً عن كل ما يؤذيها وينال منها ، فما يحفل بما يعلم انه فـوق طوقه وارادته ، وتراه يخرّجـه كالتخريج اللغوي بأنه من ارادة القدر الذي لامردّ لحكمه . بيـد أنه على هذه الطبيعة الهينة اللينة سرعان ما يتحوّل بركاناً متأزز الحمم ، لايكاد يرحم ، وذلك حين يمرّ بمن ينزله غير منزلة أقرانه من العلماء ولا يرى له قَدْره في قدرته اللغوية . فثمة يألم حتى ليتلبّسه من النقمة ما يجعله يـوزّع التهمة قاسية جـاسية على هـؤلاء الذين لايتورّعون في القسوة عليه لمجرّد علّته في صممه لا أكثر ، فيحولوا بينه وبين تسنُّم المراكز السنية في المجامع اللغوية أسوة بمن تسنموها وليس لهم مثل فضله في علمه .

لقد صحب القلم طوال حياته ، وأودع القرطاس جهـد أيامه ، وأخلص الاخلاص كله لعمله في التأليف والتصنيف ، بيد أنه لم يتميز مثل ما تميز في فنون اللغة نحتاً وتخريجاً وتحقيقاً . فهو لايذكر كشاعر أو صحفي أو قصصيّ أو مؤرخ على اشتغاله بهذه الفنـون جميعاً . ومن ثمّ كان روح النظم في شعره أقوى من معانيه واظهر . ولو تأدّى له ولأمثاله اللغويين مـن قوة الاستيحـاء والهمس مثـل ما يتأدّى للشعراء المطبوعين ، اذن لما شُقّ له غبـار ، أو سُبق في

مضمار، اذكان الشعر معنىً ومبنىً معاً ، لايستوي بدونهمامتكافئين، والاّ كان كالحسناء في الأطمار والأسمال ، أو كالدّمية تحمل روح الفتنة ولا روح فيها .

عمل في الصحـافة ، فأرسل جملة مـن المقالات والفصول في الاخلاق والاجتماع ، وفي التاريخ واللغة والأدب .

وعمل في القصة ، فأخرج قصة « أرينب بنت اسحق » .

وعمل في الشعر ، فخلّف قصائـد جمة في أغراض شتى ، بعضها مديح للتكسّب والتقرب ، وبعضها استجابة للمسابقات في الاذاعات ، وقسم" وقف" على العبادات والدينيات .

وعمل في اللغة ، فحقّق كثيراً من المفردات والصّيغ ، وبـالغ في التقصّي والبحث ، وأمعن في التخريج والنحت على مقدرة . ومعظم تواليفه كراسات في عشرات الصفحات ، ناظر فيها علماءاللغة، وبخاصة العالم الأب انستاس الكرملي .

ولـم يصدر عن تآليفه فحسب ، بل زاد عليها من تآليف والده العالم الشهير الشيخ ظاهر ما ساعده الحال على طبعه ونشره ، ولولا رقة حاله وفقدان المال لبعثها جميعاً ، وهي الدفينة في الظلام ، حيّة نيّرة في أنظار الأنام ، وبخاصة تأليفـه في « التخريج » وهو كمـا علمت بِدْع في فنّه ينمُ عن البراعة وطول الباع وسعة الاطلاع .

وكنا في المطابع نستقبله وانتاجه مياسرين مهاودين ، لما نعـلم من فضله وبؤسه ، ثم حسن معاملته وتقيُّده بأصول التصحيـح . بيد أنه كان يحرجنا بأمر واحد ، هو كثرة حفله بالتشكيل ضبطـاً لحركات الحروف حتى ما تكاد تخلو من ذلك جمـلة ، وكان يشدِّد على المرتبين في هذا الباب. وكأني به لم يكن يخفى عليه هذاالاحراج، فكان يعوِّضه بحسن الاخراج ، فيصطنع الخط المنسّق المنمق بالحبر الجليّ على قرطاس مخطّط الأسطر ، لايتخلله اي عوج او التواء ؛ وليس فيه طمس أو زيادة من تحسين واستدراك .

لقد توثقت صلتي به ، ووقفت على كثير من خوافيه ، اذ كان يكثر من زيارتي لينفض على مسمعي جملة احواله كأنني بيت سرّه . واني اذ أذكره الآن لايسعني الا ان اذكره آسفاً ، موجعاً ، لأنه لم يلق في حياته وبعد مماته ولو نصيباً قليلاً مما هو قمين به ، كأن دوره من وجوده انما كان التوغّل في الشقوة ، والغمط في القدر ، والنّبوة في الفضل والاحسان ، لا يقابل بغير الجمود والنكران .

فعاش اليف هموم وآلام كالجندي الباسل المقدام ، الا انه لم يرق الى المرتبة التي يستأهل ، ولم يلق الجزاء الذي يستحق، بينا غيره ممن هم دونه قد تفتحت دونهم ابواب النجح على مصراعيها ، وتأدى لهم من الشهرة أبعدها . ولقد قضى وا أسفاً غريباً مغموراً لم يدر به الا القليل ، ولم يشيّعه الى مقره الأخير الا الأقل ، ولم أسمع بمن ذكره بكلمة وفاء أو قدر بعد انطواء صفحته ، أو أصفى له بعض الودّ كفاءَ ما بذل من كدّ وجدّ في خدمة لغته، أو من حرّك القلم بحثاً وتحقيقاً في مدى عبقريته .

فما أشقى الأدباء في حياتهم ، وما أرخص الحياة لا تعرف لهم قيمتهم الا بعد موتهم .



جميل صليبا

في كل أمة رجال يؤلفون فصلاً كاملاً من جدّهم ونتاجهم وأثرهم في ناحية من نواحي تاريخها ، ويغذّون حياتها بخلاصة مواهبهم من حياتهم ، ويقطعون أيامهم كالنحل يشورون روح الأزاهير ليقدموا العسل الصافي غذاءً وشفاءً للناس . فاذا تَخِلَ التاريخ كانوا الأفذاذ فيه ، يُقوّم أحدهم بالألوف المؤلفة ، ويتناقل فضله الرواة الى ما شاء الله خالداً يمشي به ذكره على عواتق الأجيال .

من هؤلاء الدكتور جميل صليبا ، أحد العلماء الفلاسفة في ربوعنا ، ولقد كان له فضله العميم في تربية النشء ، واليد السابغة في نشر الثقافة وتوسيع آفاق الفكر ، والحظ الوافي في النهضة العلمية الحديثة .

ولعلّ أبرز صفاته فيما يَبْدَه العين من هيئته هذه المسحة الغائمة في محيّاه كأنها الظلال منعكسةً عن شعره الفاحم وقد خالطته خيوط من فضة المشيب الداهم ، ثم تقطيبتُه بحاجبيه الكثيفين ، وكأن الدأب على التفكير جعلهما يستطيبان الزّوْي ما بينهما على انحدار من الجبهة العريضة فوقهما الى الباصرتين من تحتهما ، وهما المتوجتان بنظّارتين لا تفارقهما لتؤديا الواجب مختلفاً ، فتعينهما على استجلاء ما تقعان عليه من جهة ، ثم تحجبان ما يقع على ما وراءَهما في احدى العينين من جهة أخرى . هذا الى فحولة في وثاقة التركيب، وانبساط الألواح ، وامتلاء الجسم ، وجهورة الصوت .

بيد أن هذا المظهر الذي تلقاه في بعض ما لا تحب ما أسرعه في

الاستحالة الى غاية الغايات مما تحب وتستجب ، فتجد فيه ما حفه القدر ، وما يسرح فيه الفكر ، وينشرح الصــدر ، فأنت ثمة تلقـاء مواهب من الجد الدائب ، الى الأحـوذية الوثابة ، فالذكـاء المقترن بالرصانة ، فالطيبة بنحائزها الكريمة . ثم أنت أمـام روح فلسفية متطأمنة الجانب ، ليّنة العِطْف ، واسعة الذّرع ، متصاونة متعففة، برّة بالأقرباء ، وفية للاصدقاء . وما بالك بمن تبلغ به المراتب السنيّة أمانة وزارة المعارف ، ورئاسة لجنــة التربية والتعليــم ، وعضوية المجمع العلمي العربي ، وعمادة كلية التربية ، وغيرها وغيرها ، كـل ذلك بالجدّ الذي لايقف عند حد ، والعصامية التي هي آية الآيـات في النشاط ، والهمامة الساهرة ، والكفاءة النادرة ، وعلى هذا كله تجده في وداعة النفس ورقــة الحس كأنما اتسع قلبـه لصداقات الناس جميعاً ، واحتمل في شعوره مشاعرهم وآلامهم ، فما يعرف غير الانس والبشر يلقى به كل من قصده ، ما يردّه ولا يصدّه الا بالمعروف والحسنى . وما أندرها مزية مثلى عند القادرين أمثاله !. فهو صديق الجميع من طلابه وزملائه ومعارفه ، والجميع يصدقه الحب ويتحفّى به ويبالغ في اكرامه .

والعجيب فيه انه اشتمل ما بين برديه على الشخصية المتضاعفة، فلقد جازت به أوقــات كان فيها مـديراً لبعض « التجهيزيات » ، واستاذاً للفلسفة ، ومؤلفـاً ، ومحاضراً ، ومحرراً . فكان في ذلـك جميعاً موفقاً متفوقاً ، وكأني به لم يكن يتذوّق للراحة طعماً ، أو يعرف في ليله نوماً ، بل هو الحركة الدائبة تفتأ تهدر ما تهدؤ ولا تفتر ، وجميع قواه إلبّ واحد على الجدّ ، أهبة تتبعها أهبة الى مالا نهاية .

قال لي ذات مرة ، وكان ذلك إثر تخلّيه عن كثير من مهامّه ، وتفرغه لوظيفته رئيساً للتعليم الثانوي : اني لتؤلمني حياتي الرتيبة في هذه الأيام ، وهي اشبه ما تكون بسجن ضيّق مظلم ، والنفس فيها في أسار مستحكم ، يركبها السأم من كل جانب في مثل النّصَب الناصب . فلقد مرنت على المجاهدة القاسية وليس دوني الآن غـير

الزهد ، وعلى المبادرة المتواصلة وما عندي الآن غير الاستنامة الى مثل وسنات السهد ، وعلى استحمال النفس على أي جهد وأنا الآن لأعرف غير الاحالة عن كل قصد . فكأنني الأسير رَبَقوه بيديه ورجليه، لا حيلة له في حريته وطماحه . اني أمثل دور « الرسميّات » لا أكثر، فأستقبل ، وأودِّع ، وأثرثر ، مستنفداً قواي جميعاً في هذا النوع من الواجب المحدود المرصود . ألا ما أشقّ الوظيفة عليّ ، وأنا اشعر بأنها تبلّد الهمة ، وتلبّد الذهن ، وتبدّد كل نشاط ، فهي في الحق روح السمّ للأرواح الحرة التي تعشّقت الحرية والطماح .

ومن المشهور عن مترجَمنا أنه كان في دراسته من الأوائل في مختلف أطوار حياته ،وقد بدت عليه منذ نعومة أظفاره مخائل النجابة مقرونة باتقاد الهمة واستحصاد العزيمة . ثم لم يلبث أن كان أحد أفراد قلائل أيضاً ممن أحرزوا التوفيق متفوقاً ، فمُنح حقّ استكمال التحصيل العالي في فرنسة على نفقة الحكومة . وما هي الاسنوات حتى أصاب شهادة الدكتوراه من الصوربون مجلّياً مبرّزاً على أقرانه . ولما أنعاد الى وطنه لم يذهب بنفسه مذهب الخُيَلاء ، ولم يجتزىء بما استحصد له من علم واسع وثقافة ممتازة ، كما هو الشأن عند الأكثرين لا يُكاد أحدهم ينتهي الى شهادته حتى يجعلها خاتمة المطاف ، لا تطرف عينه بعدها في كتاب ، ولا يستزيد على ما أصاب أي جديد من اكتساب ، يخلد الى الكسل والدعة كأن ما طوّف به لم يعد بعده أي مجال لمتعة . أما مترجَمنا فقد لبث على شأنه في التحصيل يستولد من معرفته معارف أخرى ، ويحفل بموضوعات الفلسفة وعلم النفس ما يقف عند حدٍّ منها ، ويحتمل النفس على الاستزادة من كل جديد في دنيا الفكر، كأنما هو الجائع النائع لا تشبع له معدة ، والهائم الهيفان يتأجج صدره عطشاً ؛ الى أن غدا عَلَماً من اعلامنا بين علمائنا المرموقين .

ولقد عرفتُ الكثيرين أبطرهم زادهم العلمي، أو استخفهم مركزهم السنيُّ ، أو اجنت عليهم ثقافتهم المروق والتحرُّف في العقيدة والخلق، فكانوا كالشجرة التي تعقد على غير ثمر ، والسلاح لا يُغبُ على مقتنيه

غير الضرر ، ومن الخير أن مترجَمنا قد نجا من هذه العلل جميعاً ، وكان من عمله ما يكون للجوهر لا يزيده الصقل الا صفاءً والتماعاً .

والدكتور صليبا أحد مواليد « البقاع » على مسافة قريبة من دمشق . ومما يتشرّف به ويتعزّز أنه لم يولد على الحرير ، على نغمات الزغاريد ، في ظلال النعيم ، اذ لم يكن سرُّ وجوده الا أب قروي معمار يحيا بكدّ اليمين وعرق الجبين ليل نهار ، وأمٌّ هي الطهر بوجهه الناصع مطبوعاً في وجهها الرائع ، وهي مثال الكرامة بما ضمت بين جنبيها من أكرم الأحاسيس .

ولطالما منحتنا الصحراء والقرية والضاحية وما اليهن من المناحي النائية أهلّة نورانية من العصامية هي فخر الحياة والانسانية ، ومن شأنها أن تديل مما تدلُّ به المدن والحواضر بمشاهيرها وكبرائها ، فان في جفوة القفار ، وتواضع الوديان ، وشظف الأكواخ ، لمنابت خصبة لعقول وقلوب تعزُّ مثيلاً ، ولا يجود بها الزمن الا قليلاً .

وما أسعدنا في شرقنا يوم نصدق في فريضة التعليم الاجباري ، ووصل أسلاك نور العلم بين المدن والقرى على سواء ، فنمتهد للمواهب حيثما تنبت كيما تنبثق متفتحة ، رفّافة الأجنحة ، محلّقة نهّاضة الى أبعد الآماد من الغايات .

أخرجتْ للدكتور صليبا في مطابعي جملة من التآليف . ولست أغضبه وهو الذي تعشق الحقيقة حين أحكم على خطّه بأنه مما يغضب ابن مقلة سواء في المدامجة بين الحروف والسطور ، أو التعمية والمجمجة ، أو الطلس والطمس . فهو لا يستأني كأن الأناة تتأبى عليه تلقاء ازدخار الأفكار فيعاجلها بالاثبات قبل الفوات . وكثيراً ما طمس الكلمة أو الجملة لم ترد على ما أراد ، أو استقام له ما هو خيرٌ منها وأجلى . وتبلغ به هذه الحال اشدّها حين يترجم ويستقصي ، فلا يجد مندوحة عن التحوير والتثوير ، أو الاضافة والإفاضة . وهو على ذلك يخطئه التصحيح في كثير من الأخطاء اذ يغلب ذهنه على بصره في المعنى فلا يدقّق الكلم والحروف في المبنى .

وجلُّ انتاجه ان لم نقل كله يدور على « الفلسفة » مايكاد يتعداها ويتجاوزها ، فقد أخرج كتابه « الفلسفة في علم النفس والأخلاق » في جزأين اثنين لبث الطلاب ينهلون منهما زمناً طويلاً ، وأخرج كتاب « من أفلاطون الى ابن سينا »، وكتاب « ابن سينا » ، وكتاب « حي ابن يقظان » بالاشتراك مع الدكتور كامل عياد ، وكتاب « مستقبل الوطن العربي » .

وساهم في تحرير مجلة « الثقافة » التي لم يمتدَّ عمرها أكثر من عام ، وفي مجلة « المعلـم » وغيرهما ، وحقَّق بعض المؤلفات من تراثنا القديم في المجمع العلمي العربي . وألقى كثيراً من المحاضرات في الأندية والاذاعات ، ورحل الى البلدان الغربية مساهماً فـي عدة مؤتمرات ثقافية .

ولا جَرَم أن انهماكه بالفلسفة وايثارها بخاصتها على غيرها من العلوم انما يرجع الى اتجاهه الفكري الذي استوثقت فيه الأسباب ، وعنَّاه حبُّ الحقيقة ونشدانها في النِّصاب . فهو لولا أن جازت به مؤثرات العقائد وشكوكها من جراء أرثوذكسيته وتفتح ذهنه على المبادىء المسيحية في مدارسها ، ثم تحوُّله الى المعاهد الاسلامية ووقوفه على كثير من أسرار الدين الحنيف وحكمته واعجازه ؛ ولولا نزعته الأصيلة في تعشق الحقيقة والخير ، واستجلاء اليقين ، واكتناه أسرار النفس والحياة الانسانية بصورة عامة ، اذن لما آثـر الفلسفة بعلمها الذي واءم فطرته ورغبته ، ووجد عنده ضالته وطلبته ، فأقبل عليه اقبال الصادي على المنهل العذب ، ودأب في تقصِّيه غاية الدأب، ووقف عليه حياته فما يرتاح فكره أو نظره الى أمرٍ الا عالجه بروحه الفلسفية كأنما خلق يوم خلق والفلسفة ملتصقة به ، في لحمه ودمه وعصبه ، ملازمة له كخياله ، يدور عليها في شتى احواله وآمالـه .
من اجل هذا كان كل ما يبض به قلمه متسماً بالطابع العلمي ، تفكيراًواسلوباًولغة، فاذاماتحدث عن الأخلاق لم يجدفي براعةالاستهلال خيراً من الاستشهاد بالفيلسوف « كانت » حيث يقول « هجرتُ العلم

لأترك في قلبي محلاً للأخلاق » ، ثم يعرض لخصوم العلم مزاعمهم معتلاً بمثل ابن خلدون ، الى ان ينتهي بقارئه الى الاقرار بأن العلم والمثل الأعلى متحدان ، وأن طلب السعادة ينبغي ان يكون عن طريق واحدة ، هي العلم . ولماذا ؟ لأن السعادة والكمال والعقل والوجود هي شيء واحـــد .

واذا تحدث عن «القلق» في نفوس السوريين فانه لا يجد ما يدير عليه القول غير «الابداع والاتباع» لأن هذا القلق يرجع في نصابه الى أن المثل الأعلى الذي تصوروه أعلى من الواقع الذي غرقوا فيه، ورغبوا في التخلص منه ، ولأن الأفق الذي ارتقوا اليه أوسع نطاقاً من البيئة التي ضاقت بأحلامهم . فهذا الاختلاف هو سر التقليد او الاتباع ، لأنهم يقلّدون الحضارة الغربية تارة ، ويتبعون صور الحياة الماضية أخرى ، فيقعون في بحران التردد والتّلدد . وأنت ملاقٍ في حديثه أسانيد جمّة للغزالي وبرغسون ، ولابن سينا ووليم جيمس ، ثـم تشابيه علمية ومعاني نفسية وألفاظاً فلسفية .

وهو حين يعرض لبحث « العبقرية والثقافة » يبني الرأي والحكم على القواعد العلمية الثابتة ، فينفي عن العبقرية الابداع ثم يثبته ، ويضع بين يديك الصلة جلية موثّقة بين النفي والاثبات ، أو ان شئت فقل بين الفطرة والكسب من حيث التأثير . فلا بدّ للعبقرية من المزاج والاستعداد والتركيب الجسدي والصحة ، ولا بـدّ لها كذلك من الكسب والصقل وحسن الاصطناع ، لأن انتاج الأرض التي لم تنل نصيبها من الحرث لا يمكن أن يستوي كفاء انتاج الأرض المحروثة على الطرائق الحديثة . ومن ثم لا تجد عبقرياً الا كأن في حياته درس منظم ، وعمل ارادي ، وجهد شعوري ، فاشراقة العفوي مسبوق بكل الأسباب والحوافز الضرورية .

تلك هي طريقته في بحوثه لا يخرج فيها عن دائرة العلمُ ، ولا يختلج في اطوائها بريق من خيال ، أو خفق من شعور ، كأنما هو من العلم في سجن أحكم رتاجه ، وليس فيه نافذة على روض من رياض

الأدب تنسم عليه رياحه من روح عبقه وفتنته . ففيلسوفنا يعيد ويستعيد ما توفَّر عليه في دراسته ، ويستقي من مصادر بخاصتها هي هي لا يصدر عن غيرها . وان في ذلك لنوعاً من التبلّد الذهني لا يحمد اذا استحصد ، ونعيذ مترجمنا من مثله وهو الذي لا ينكر أن لا بدَّ من الابداع في الاختصاص ، والا آل اختصاصاً بلا ابداع . ولقد اختَصَّ بالفلسفة وتضلَّع من علمها حتى غدا من الراسخين وذوي البسطة فيها ، فحقَّ عليه أن يصدر من تحقيقاته عما يرفُّ بالجديد على الفكر ، شأن العلماء المبدعين الذين يجعلون مما حصَّلوه سلماً الى الفتوحات المستحدثة . وأذكر أني صارحته بهذا المعنى ، واستسقطته الحديث عما اذا كان قد انتهى من طول تجاربه ومطالعاته الى ما يصحُّ أن يتأدَّى طريقة أو حقيقة أو مذهباً في المعرفة الجديدة لا عهد لها بمثله من قبل كما فعل صاحبه برغسون أو اينشتاين ، فكان في جوابه مثل الدليل على أنه جادٌّ في هذا السبيل، ولسوف يلقي الى النشر ما يعتقده جديداً مستحدثاً في عالم الفكر .

وان اشتغال المترجَم بالعلم والتدريس ضمن دائرة محدَّدة جعل أسلوبه على نحو أسلوب أمثاله العلماء يتطرق اليه اللَبْس والغموض في كثير من الاحيان ، فما يتأتَّى الا لفئة خاصة أن ترتشف من معين معانيه ، وأن تهضم أسلوبه في مطاويه . ويا حبذا لو عمل هو وأمثاله من الفلاسفة بوصاة « فرانس » من نفض اللَّبس عن كل رأي الى أن يغدو في عمقه واستغلاقه مبيناً جلياً ، فترتدَّ فائدته أجلَّ وأوفر .

هذا وقد اتصل ما بيني وبين المترجَم عن طريق مؤلفاته التي أخرجتها له مطابعي ؛ واشهد أني لقيتُ منه كلَّ ما يترطَّب اللسان بذكره ونشره من سعة العلم ، ونبالة الخلق ، وشرف المعاملة وفضيلة التسامح والصدق . وزاد ما بيننا من اِلفة اخوَّةُ المبادىء الحرة ، وصلة الأدب ، والشَّبه في بعض وجوه الحياة ان لم اقل في اكثر وجوهها ووجهاتها .

خليل مردم

يمتاز في هيئته بامتداد قامته ، واسوداد عينيه ، وضخامة أنفه . وهو حنطيُّ اللون ، عريض الألواح ، واسع ما بين المنكبين ؛ أميل الى الربالة ، فحل الرجولة ، أنيق في ملبسه ، عدا عليه جيش المشيب مبكراً ، فردَّه بالخضاب مندحراً .

ولقد جمع بين أرستقراطية الطلعة وديمقراطية النزعة ، فألَّف صيغة موحَّدة من الشخصية المحبَّبة تتبدَّى في مظهره الراقي المحتشم ، وفي حديثه الرصين الرزين ، وفي تأبِّيه المهذَّب المعتدل .

وان في حديثه لمثل هدوء الجدول الصافي ، وغنَّة الطير الشادي ، ولثغة الطفولة المستعذبة . ثم ان في طلعة محيَّاه لصورة الجدِّ الوقور ، يخالطه المرح والحبور ، فينفي عنه الجهامة والنفور . وما خالطه أحد ، أو اتصل به بسبب ، الا تعرَّف فضله في خلائقه الرفيعة ، واعترف بأنه نمطٌ من المثالية الكريمة الراقية التي يُرجى للعربي الحرِّ أن يتوفر عليها في هذا العصر .

نشأ في بيت وجاهة عريق الصلة بالأتراك ، وابتدر حياته في الشام متصلاً بعلمائها ونخبة أدبائها وكبرائها ، وتخيَّر الثقافة الانكليزية بين الثقافات الأجنبية ؛ فكان له من مجمل هذه المصادر الثلاثة المتباينة مزية التركي في زهوه وذوقه ، والعربي في إبائه وسماحته ، والانكليزي في رصانته واناته .

وليس من ينزلق الى الحياة على الحصير فقيراً محدوداً كمن

تستقبله الحياة على الحرير غنياً مجدوداً ، فان للنشأة الاولى أثرها العميق العريق في الانسان اذ كان لها من طبيعتها متوجَّه مقصود يستشرف الغاية من جنسها ، الا أن يعترضها ما يتحيَّفها وينحرف بها ، مخالفاً السنة ، نادّاً عن المألوف . فالغنيُّ مُذْ يكون في المهد صبياً مدعوٌ الى عزيمة الأمرة والحكم والتسلط ، وهو مرموق الرخاء ، مومومق الاخاء ، لأن له الى ذلك مدداً لا ينقطع من غناه ووجاهته ، ولأن الحياة تبسم ناعمة في وجهه ، وتنسم عليه بالعزة والطاعة ، فما يكاد تنفرج شفتاه عن مطلب حتى تستجيب له مذعنة ، ولا يحرّك القدم في سبيل حتى تمتهد من دونه العراقيل ، ثم هو ما إن يزلُّ متعثراً حتى يستحيل كل شيء من حوله أياديَ سحرية لاقالته من عثرته. أما البائس الفقير ، وأيامه مقعدة ، وعمره عمرٌ كامل من الشقوة والشدّة ، وحكمه من زمنه أن ينزل أبداً على حكم الحاجة والضرورة ، فهو كأنما كتب عليه أن يعيش شقياً في مثل الحبة بين شقَّي الرحى شريداً طريداً لا يجد أمامه غير اشتداد الضيق وانسداد الطريق .

والعجب العاجب سواء في الغنى أو الفقر هو الشذوذ ؛ شذوذ الكتاب غير عنوانه ، والحاصل غير مقدّره ، والمتوقَّع غير الواقع .

والمألوف المعروف عن الأثرياء أن يتخرَّج أبناؤهم أعياناً ووجوهاً في الدولة ، أو رؤساء وكبراء في التجارات وعلى الامارات ، أو يحيون متبذخين متنبلين ، كسالى عن العمل عاطلين ، كأنهم في مجتمعهم مباءة علل ، لا يرجى فيهم أمل ؛ فان ندَّ أحدهم عن خطة أقرانه ونفر ، فذاك هو الشاذ الذي يسترعي النظر .

ومترجَمُنا مغرقٌ في الوجاهة والثراء ، ورثهما كابراً عن كابر ؛ فليس ببدع ان هو أشبه أمثاله في خاصّ مآتيهم وأحوالهم ، وانما البدع غاية البدع إن يخرج على غير مثالهم ، مستناً غير سبيلهم ، ليكون في غناه المعنوي فوق غناه الماديّ ، وليجعل من نفسه ترجماناً لأمته في مشاعرها وامانيها ، فرحة او مستيئسة ، حرّة اومستعبدة ، راضية أو ساخطة . ولقد كان في الحق ترجمان صدق اذ طالما

استنزف من روح قريحته مثل الحمم القاصفة والرعود العاصفة غضباً وسخيمة على القوم الغاشمين ؛ وبعثت فيه المأوية الراحمة خفقات الحنوّ والعطف على البائسين المساكين ؛ فكان لهم كالطير الأم تظلل صغارها بجناحيها رأماً وحدباً : لقد رسم بقلمه من مداد احاسيسه الشيءالكثير وصفاً لبلاده فيما توردها من نكدالمستعمرين، وكيد الكائدين ، ووصفاً لما استمازت من فتنة وروعة في الطبيعة ، ثم وصفاً لأمجادها وخلودها في طارفها وتليدها ، ونشدها من عرائسه ما يفجّر فيها ينابيع الوطنية والنخوة ، وما يحيل مصائبها في جراحها الى مناعة وقوة .

وحيثما اجتمع صدق التعبير والاداء ، ودقة الهمس والايحاء ، مع عمق في النظرة والفكرة فثمة الشعر النابغ يضفي على صاحبه المجد والخلود .

وشاعرية الاستاذ مردم تسلكه بخصائصها والفحولِ من شعرائنا؛ فهو فصيح فحل في لغته ، نبيه عف في أغراضه ، ذواقة في تخير موضوعاته ، يَقِلّ على براعة وسراوة ، وله سَبَحات في الوصف تشارف الكمال ويعز من بعضها المثال . وبالجملة تجد في شعره ما ينم عن تأثره البليغ بالبلاغة العربية حتى كأنك في مطالعته تلقاء أحد الفحول من شعرائنا القدامى ، بيد أنه على ما انطوى بحر شعره من درر ولآلىء لاتجده في الاستجلاء الا المسالم الهادىء حتى في عنفوان ثورته هجاء أو استهزاءً .

واذا كان الشعر مرآة صاحبه فليس والله أصدق من شعر الخليل في تصوير شخصيته في هدوئها ورصانتها واباثها وسائر خلالها . وهل يُطلب من الشاعر الا أن يترجم عما يختلج في صدره وفكره ، ويصدق في ذلك حقّ الصدق ، وهل في موحيات شاعرنا الا هذا الصدق مبيناً منطوياً على أدق الخلجات والومضات بما يتكافأ وحياته كوجيه أصيل ، وغني نبيل ، نشأ نشأته في ظلال النعمة والسراوة، ولم يخالط الا العلية والصفوة ؟.

فاذا هو لم يعربد كغيره في شعره ، ولم يتعبَّده التطرف او التحيُّف ، فلأن حياته كانت هادئة النسيم ، رخيَّة النعيم ، واذا تمكَّنت منه البلاغة العربية فلانه لم يفتح عينيه على الأدب الا في آثاره القديمة الجليلة التي لم تقحم عليها اللوثات الأعجمية والعامية، ثم اذا هو من بعد قد نسمت على آثاره رويحات من الروح العصرية فلأنه زاد الى زاده القديم بعض الجديد ، وبخاصة ما أفاد من الثقافة الانكليزية .

ومما استماز به الاستاذ مردم أنه كان شاعرا وكاتباً واستاذا معاً ، وقد جلّى في هذه الميادين جميعاً . فأرسل روحه شعراً تتموَّج فيه ألوان الحياة في مختلف المفارح والآلام ، وصورا من الأحداث التي تورَّدت الشام ، ونفثات حارَّة في دغدغة الآمال والاحلام . وأرسل يراعه ناثراً في تقصي أخبار بعض رجال الأدب في تاريخ العرب ، كما نشر ذخائر من الثقافة العربية ، وحقَّق بعض آثارها المغيَّبة . ودرَّس النشء استاذاً للأدب . هذا الى عمله الدائب في المجمع العلمي العربي بدمشق كاتماً لسرّه وقائماً بأمره ، ثم رئيساً له في أخريات أيامه ، والى اشتراكه في تأسيس جمعية « الرابطة الادبية » ، وتحرير مجلتها ومجلة « الثقافة » على أثرها .

وقد تسنَّم وزارة المعارف السورية كرَّتين : قُبيل العهد الوطني وبعد الانقلاب .

⁂

عَرَفتُه عن بعد من آثاره في « المقتبس » مجلةً وجريدةً، ثم عرفته عن قرب يوم أن طبع مؤلَّفه « شعراء الشام » في أعقاب الرجَّة العالمية الاولى ، فتوليَّت تنضيده وتصحيحه . وكنت في ذلك الحين انشيءُ في «المقتبس» بعض الفصول ، وكأنها استرعت انتباه العلامة محمد كرد علي واعجابه ، فلما أن عرف من صديقه الاستاذ مردم من اكون في عملي وسني عزم عليه أن يراني بصحبته، ففعل .

ثم تعاقبت الأيام واستحكمت صلتي بالمترجم ، فكنت أزوره في داره أو في المجمع العلمي ، وكان لايضنُ عليَّ بزيارته عـلى سمو منزلته كلـَّما جاز بمطبعتي ، فنجلس على أحاديث متنوعة ممتعـة كأنما نحن منها في جنة حالية بكل ما يروع النـاظر ويأسر القلب والخاطر ، وهي الروح تتحدث لا اللسـان ولا الجنان .

واني ليحضرني من هاتيك الاحاديث ما اقتصـَّه عليَّ اثر عودته من لندن وكان قد شدَّ اليها الرحال خلَلَ الثورة السورية عام١٩٢٦ قـال :

صدرت الصحف اللندنية ذات صباح تستقل في صدرها صورة الزعيم الهندي غندي لمناسبة زورته للعاصمة الانكليزية، واليها التعليقات تشيد بمآثره ومفاخره في مذهبه السلمي وسياسته الرفيقة . ثم ما هي الا أيام حتى شاع وذاع خبر دعوته الى القصر الملكي ، ولـم يكن يتخطـَّر في بال أحد أن هذه الدعوة ستكون مثار معضلة خطيرة ، اذ كان من خاصـَّة التقاليد الانكليزية أن لابدَّ في الزيارات الملكية من ارتداء الملابس الرسمية . بيد أن غندي تنكر لمثل هذا التقليد الذي لم يَرَ فيه غير التعبـُّد والتقييد ، وأبى مقابلة العاهل البريطاني الا بردائه الصوفي وكـُفـَّتـه على كتفيه من صنع يده ونتاج بلده. وكان في جملة ما بَدَهَ به مخاطبيه : عجبي كيف يُؤثـَر المرء بمظهره دون مخبره وهل يقابل المليك غندي بشخصه مما يرتديه أم بشخصيته من معانيه ؟ وثبت عند هذا الرأي ما يتحلحل عنه كما ثبت القوم على شنشنتهم في تقاليدهم، وكانت العقبى الانثناء عن الزيارة التي ذهبت بحديثها مثلاً .

ثم قصَّ عليَّ مردفاً :

وانهال على غندي سيل الدعوات من كل جانب يدعونه فيها الى القاء بعض المحاضرات ، فكان يردُّها شاكراً معتذراً ، الى أن أحرجه القوم فأعلن عن تقبـُّله حضور حفلة واحـدة على الاَّ يحضرها غـير الاطفال ممن لم تتجاوز سنهم الثانية عشرة . ولا تسل عمـَّا أورثه هذا الشرط البدْع بين الطبقات حتى لقد بات ملهج الألسن في سـائر

لنـــدن ، ومثار تسآل وحدس في كل نفس . وما ان أزفت الحفلة بموعدها وتكاملت بعدد من حضرها حتى اقبل من أقيمت بسببه ، بهيكله الناحل كأنه الخيال الماثل يكاد من لم يعرفه ما يلقي اليه أي بال، ولا يستشف ما بين برديه مـــن خلال هي آية الآيـــات في معـــاني الجلال والكمال .

وأبى الا أن يجعل جلسته في بَهْرَةِ الحفل ، بـــين هؤلاء الصغار الذين راحوا يتطلعون اليه وفي أبصارهم مثل الاستغراب والاستغراق من قيافته وسحنته . ولكنه ما ان أدار لسانه بالانكليزية كأهلها ، نافضاً على الاسماع النكتة في أعقاب النكتة ، وأطراف القاعة تتماوج ضحكاً ومرحاً ، وما أن أحس أنه استولى على القلوب الغضة واستأثر بخالص حبها ـ حتى ابتدر من الحديث ما قد وطأ به لساعته دُرْبَةً وتخلصاً اليه .

قـــال : أي رفاقي الصغار! . ألستم تحبون آباءكم وأمهاتكم وأخواتكم وأقرباءكم ؟.. قالوا : بلى . قال : واذا ما عدا عليهم عاد ، وابتدأهم بالسوء باد ، أفلا تحزنون ؟ أجابوا عن لسان واحد : نعم . قـــال : ولقد خطبتكم بلغتكم ما خطبت ، وألقيت اليـــكم ما ألقيت ، وتألف ما بيننا في أقل من القليل ، فاذا أحدنا من الآخر كالخليل ، فهل أنكرتم مني شيئاً ، أو أخذتم عليَّ سوءا ؟ أجابوا : كلا ثم كلا ..

قال : الا فاعلموا اذن أن لي أهلاً كأهلكم ولكنهم يحيون الحياة التي يفضلها المـــوت ، اذ يسامون الخسف والعنف ، والتشـــريد والتسهيد ، وكلَّ داهية من البلاء ، وذلك على أيدي أناس يزعمون أنهم أصابوا من الرقي والحضارة السهم الأوفر ، على انهم لايحملون في قلوبهم للرحمة اي اثر ، ولا يعرفون الرقي الا طمعاً ، ولا الحضارة الا توحشاً . واني لأسألكم عما عسى أن تقابلوا مثل هؤلاء المعتدين، واي حكم عليهم تحكمون ؟.. قالوا : ليس لهم عندنا غير المقت سخطاً وغضباً ، ولا حكم غير الوحشية ذميمة دميمة !..

قـــال : اما والامر كما سمعت ، فاني لآمل ان تطبعوا قصتي في

قلوبكم الى أن تشبوا وتبلغوا اشدَّكم ، فتأخذوا بناصر أولئك المستضعفين ، وتدرؤوا عنهم كيد الباغين ،على ما تقتضيه الأخوة الانسانية .

وهنا دوَّت القاعة : ويلٌ للظالمين ، ويلٌ للظالمين !..

ثم انتقلت هذه الخطبة انتقالها السريع من الصغار الى الكبار ، ولبثت ردحاً من الزمن ملء الأفواه والاسماع ، وحديث الصحافة في شتى الأصقاع ، يذكرها البريطانيون في لواذعها متأذين ، ويذكرون صاحبها في إحكام قصدها معجبين .

⁂

وكان الاستاذ مردم يرى من آيات العجب سيطرة الشعر على النثر عند العرب ، ولكنه يعود فيعتل لذلك بالثقافة البدائية في طبيعتها من الميل الى المنظوم أثيراً على المنثور .

وكنت في حديث معه عن علاَّمة نيَّفت تآليفه على المائة ، ولكنها من نوع الجمع لا النبع ، فكان من رأيه أن انتاج بعض صفحات لا أكثر يأتي صاحبها بجديد من الأثر ، خيرٌ وأبقى من الألوف المؤلفة لا فضل فيها غير الحوش والحبش من هنا وهناك ، وضرب على ذلك مثلا أحد شعراء الانكليز وقد خَلَّدَ بعشرة من أبياته لبث في نظمها طوال حياته .

وشاعرية الشام بلقبها لبثت كأنها الكرة يتجاذبها وصديقه الاستاذ شفيق جبري ، فهي لأحدهما منقطعة على انفراد ، معقودة التاج ، عند فريق دون آخر . ولا جرم أن أمثال هذا اللقب في دولة الأدب لاتستقيم صادقة متوافقة اذ كان لكل أديب خاصَّته في التفوق ، فالمتنبي وأبو العلاء شاعران ولا سبيل للترجيح بينهما ولكلٍ عبقريته ، وشوقي وحافظ شاعران وفرسا رهان ، ولكل وجهته ؛ وكذلك المنفلوطي والرافعي أديبان مجوّدان ، ولا سبيل بينهما الى مفاضلة . وقل مثل ذلك في اديبنا جبري ومردم ، يطالعك الواحد بما لايطالعك الآخر ، فتكاد تحكم له ، ثم لاتلبث ان تسترجع الحكم في مطالعات اخرى مستأنفاً او مميزاً الى ما لا نهاية .

وكان يعجبني من المترجم خطّه الذي يتكافأ في استطالة حروفه مع طول قامته ، ثم التوسيع ما بين كلماته وسطوره اتساع حلمه صدره ، ثم الذوق في جمال قاعدته وكأنها خلاصة ذوقه في مجمل أحواله ، وأغلب كتاباته كان على الورق المسطور المصقول من الحجم المتوسط . ويا لحظوة هذا الورق الذي يُملأُ ما بين جوانبه على غير طمس أو طلس ، وهو بما فيه من عناية يمنع كلَّ عناء على المنضدين في المطابع .

وجماع القول في الخليل انه أحد شعراء العربية الذين عاصروا بداءَة النهضة الأدبية والعلمية في ديار الشام ، فساهم فيها مساهمة يذكرها له التاريخ قدراً وفخراً .

وليس الفوز بقدر التاريخ وفخاره بالأمر الهيِّن اليسير .



زكي المحاسني

وجه كأنه فَلَق الصبح ما أعرف الا النادر من مثله في الرجال وهو على ان صاحبه قد بلغ الخمسين وما فوقها لتحسبنَّه محيًا ابن الثلاثين وما تحتها مهما بالغت في التقدير والحسبان : نضرة متفتحة كالزهر ما بين أطرافه ، متلبسة شتى معانيه ، ففي صفحتي الخدَّين نضرة الشمس وقعت على الورد ، وفي العينين نضرة الجدول ترقرق بالصفاء ورف بالضياء ، وفي الحاجبين نضرة وطْف هو في الكثافة غاية اللطافة ، وفي الفم نضرة الدر الباسم يفيض نورا من داخل النفس لينشر على ما حوله طيوفاً من الرقة والعذوبة . هذا الى قامة هي الى الطول ناهدة متصاعدة ، وبدونة دخلت عليه في سنيه الأخيرة لتزيد الرجولة فحولة ، وخاصةٍ في الصوت يصدر عن نبرات كسجع الكنار أو شدوِ الهزار ، بل قل عن موسيقى حلوة ناعمة كأنما السمع يتنفس فيها تناغيم المطربين . ولك أن توجز فتزعم أن لمترجمنا نصيباً أكبر نصيب من اسمه وكنيته حتى كان أبويه لم يسمِّياه بالزكي الا ليكون في كل أوصافه زكياً ، ولم ينتسب الى آل المحاسني الا ليكون آية في محاسنه ما علن منها وما بطن .

وما أدري أهي خصائصُهُ في ضاحي خلقته ظلالُ مِثْلِها في مستكن خلائقه ، أم هي هذه الخلائق المغيَّبة منبعث لهاتيك الخلقة الظاهرة كموجات النور تدل على جمالها من أصلها .

فثمة الجد يكاد لايكون له حد اذ يتنكَّر لكل عجز وقعود وانخزال ، ويمضي بالعزيمة الماضية الى البعيد البعيد مما تطمع به الهمم المستحصدة ، ويتجرَّد لغايته بجماع قوته من عقله وعمله

الى أن يفوز بأمله مهما اشتط النأي وشق السعي . فكأنه المعني بقول الشاعر سعد بن ناشب حين قال :

اذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

وثمة طهارة النفس تطفره أبدا الى محجة الفضيلة ، بعيدا عن الخسائس والصغائر مما يسف اليه الطبع ويتدنّس به الخلق ؛ ولقد استغنى بما ملك من دينه ووجدانه عن كل فقر الى الطمع الجائر ، والحرام الكافر ، واستن خطة الكرام في مآتيهم ، لا ليكون تشبّهه بهم فلاحاً وصلاحاً فحسب ، وانما ليضرب لغيره ، وهو المعلّم المربي ، خير الأمثال ترسماً واحتذاء .

وثمة السذاجة تلوح كالغفلة وهي معنى رفيع من الطيبة ، والشك يخامر ويؤامر بأثر من حسن الفطنة ، والتردد يؤخذ مأخذ الضعف أو الهوس وانه نتاج وفرة الذكاء واتساع شعاب الحس .

وكأني به وقد تجانفه الدهر منذ الصغر يتماً باكراً وبؤساً عاثراً، ثم رأى الى ما حوله ، وقد تفتّح عقله، أن لغنى المال عزّته ونبله يرفع من قدر صاحبه وان كان جاهلا بما لا يتأدى مثله للعالم فقيراً مرملاً، وان المادة هي المحور في النصر والهزيمة ، والسعادة والشقوة ، في مثل حياتنا الراهنة ، فمن أصفرت يداه فما له قبلة ولا دبرة من أمره ، وذلك على نقيض من ادثر وأيسر ، فكل شيء مرتهن بيديه وطوع ارادته ، يخطب الناس ودّه ، ويمشون في ركابه ، ساعين لمرضاته في غاياته — كأني به نظر هذه النظرة ، وتفهّم الحياة على أنها لا عدّة فيها مثل الغنى لابدّ من التصنع له والجدّ في طلبه ، والشباب ما فتيء في ابانه ، والعزم في عنفوانه ، كيلا يحكي الرأي يسنح بعد الفوت ويرى في عاقبته ما لم يرَ في صدره ، فما يجدي غير الندم والألم ، فراح يعتدّ لدهره من اسباب جدّه واقتصاده ومطمحه ما يجعل قدحه هو الفائز المعلى ، سواء في العلم يتسنّم مراقيه حتى يبلغ ذراه ، أو في الحياة المادية يستغني فيها عن سواه ، ثم في الحالين معاً ليمثل العصامية في صورتها المزدوجة

علماً هو كنز من الثروة المعنوية ، وثروة من المادة هي خير معوان على الحياة المتواضعة الكريمة .

واشتهر بحب التقرب من المشاهير والاقطاب ، وفي الأخص من لمع نجمهم في سماء العلوم والآداب ، واستفاضت شهرتهم ، وليس من الميسور الحظوة بصداقتهم وهم في حظهم المرموق من السمو كالكواكب نأيا وتأبياً . فكان يلتمس الى ذلك الاسباب حتى اذا ما فاتته لم تفته الحيلة في خلقها ، ولم يعجزه التدارك في دركها . ولطالما أجدت عليه جرأته في هذا الباب ، وأغنته الفرص ينتهزها سانحة لغايته ، وبحسبه أنه فاز بصداقات الكثيرين ، وفي الأخص الدكتور طه حسين بمصر ، وهو الذي أخذ بيده ، ومكّنه من مراده، اذ أطلبه طلبته في دخول الجامعة المصرية ونيل شهادتها السنية .

تلك بعض الصفات النفسية عند مترجمنا ، أما صفاته الاخرى، فبوسعنا أن نتعرفها فيه ونتعرفه فيها اذا ما تدبّرناه في أدبه واسلوب كتابته . اذ كان نتاج الكاتب واسلوبه في بيانه أصدق دليل على مزاجه في فطرته كما ان مزاجه هذا هو الذي يدل صادقاً على بيانه واسلوبه .

ومترجمنا اذا أنت طالعته في شعره ونثره تكشف لك عن الاسلوب الفحل المشرق المهذّب ، تتجاوب فيه شواكل السداد مع حسن التصرف ، فينم في جملة ما ينم عن رصانة الطبع وصفاء النفس وشرف الخلق ، فضلاً عن الزكانة والرزانة . وكلها صفات من المزاج الذي يتميز بالنشاط والطموح وحب المرح ، فان كان فيها ما يند عن هذا المزاج في بعض الاحيان ، فهناك ولا شك أثر الألمعية التي تومض ومضاتها لتنحرف بالمزاج في نصابه وفطرته على ما يسمو به عالياً عالياً أو يزيد او ينقص من معناه هنا وهناك .

ان ادب المحاسني ليتميز عن نظيره عند كثير من ادباء عصره من حيث المادة الغزيرة ، وسعة الاطلاع ، وكثرة المحفوظ ، ومن حيث اللغة وهي عنده المهذّبة في لفظها ، الأنيقة بديباجتها ، السائغة

في أسلوبها ، ثم من حيث جمعه بين المنظوم والمنثور ، مع اجادة واحسان ، فهو في الشعر قد شأى الكثيرين ، وهو في النثر من خيرة المترسّلين المتفوقين ، زد على ما تقدم انه محاضر سمح القريحة، جهير المنطق ، عذب الصوت والبيان .

وله من المؤلفات « النواسي » و « أبو العلاء » و « شعر الحرب في أدب العرب » وقد نال بها الدكتوراه، و « ابراهيم طوقان» و « المتنبي » و « دراسات تاريخية » و « أحمد أمين » ، هذا الى بحوث ومقالات في الأدب والنقد يكاد لايحصرها العد ، وهي موزعة منتشرة في مجلاّت وصحف العالم العربي ولو تأدى لها أن تجمع يوماً لبلغت عدة مجلدات .

ومما أذكره عن مترجمنا أنه تلقى دراسته الثانوية بتجهيز دمشق، وهو الذي كان يدعى « مكتب عنبر » ، ولقد برّز في الامتحان هو واثنان ، هما الاستاذ الشيخ علي الطنطاوي ، والاستاذ الشاعر أنور العطار ، فخصّهما المجمع العلمي العربي بحفلة تكريم . ثم جرى الدهر وكرّت الأيام ، فاذا الطنطاوي كاتب من الطراز الاول ، واذا العطار شاعر من أرق وأرشق الشعراء ، واذا مترجمنا قد قرن بين الصناعتين ، كاتباً من أكابر المنشئين ، وشاعراً من أماثل الشعراء .

وما أدري وأنا أذكر اقتران مترجمنا بالأديبة الفضلى وداد السكاكيني ، وأذكر أثر المرأة البليغ في الرجل وبخاصة في أصحاب المواهب ، ثم أذكر شهرتهما وتفوقهما معا في عالم الفكر ، قلت ما أدري أيهما كان أقوى على الآخر في التأثير والأثر ، وأيهما كان الشمس أو القمر ، بل أيهما ينعكس بنوره ليكون هو المصدر ؟. من كان قطب الرحى في هذا النخيل الدقيق من الأدب صدر عنهما ، وهذا الزبد مخض فيه السقاء ليرتدّ خالصاً في لذة الطعم ووفرة الغذاء ؟.. ما احسب الا انهما كانا في الشركة على معدلة ، ينتصب الواحد من الآخر كالمرآة يرى فيها نفسه ، وكالراووق يستصفي نتاجه ، او قل كالصقال يشحذ به ما عنده ويجلوه . ولطالما تخيلتهما جوادين شُدّا الى عجلة الأدب ليَغِذّا في السير ، ما يعرفان الخور

أو الزلل لان لكل منهما سنداً من رفيقه ، قوة الى ضعف وضعفاً الى قوة ، وجماحاً الى استقامة واستقامة الى جماح ، وهل أمتع وأروع في الحياة الأدبية من الأثر يتضاعف فيه التفكير والنظر ، ليخرج كالرحيق المكرَّر خلواً من أي كدر ، وليكون الاعجاب به مثل الاعجاب بالجمال في فطرته زيد جمالاً من صنعته فراح نوراً على نور ؟. أما ان وراء كل حرف وكلمة وجملة سواء في أدب المحاسني او ادب السكاكيني لقلماً من عقلين وبصيرتين ، ومادّة من روحين ومزاجين ، واحساناً من عبقريتين متكاملتين . ومن ثم كان لكلٍّ منهما امتيازه بحياله ، ولكنه الامتياز الذي جمع بين ثقافة الرجل وثقافة المرأة على سواء ، فله من كليهما خواصهما على اقتران كاقتران صاحبيهما في الحياة .

ان للمحاسني أن يحمد قدَرَه ، اذ كان القدَر الذي وفّق فوافق ، وابتدع فأبدع ، وقرن فقارن ، فخرج عن مثال قلَّ أن يخرج عن مثله في دنيا الزواج .

وان للأدب كذلك أن يفخر بهذا القدَر بمقدار ما نعم بسببه من خصب وكسب ، وهو الذي طالما اشتكى الجدب والنضب حتى لقد آل لعهدنا الى مثل القفر فقراً بالعبقريات الخيرة والقرائح النيِّرة والآثار الباهرة .

شفيق جبري

اذا أخذت الاستاذ جبري بطلعته قابلتك منه قامة ممشوقة فرعاء ، في جسم ملء إهابه ، ثم وجه متعبس أبداً كأن الحياة طبعت في أساريره العنوان المبهم لما استكنّ وراءه ، أو كأن فيه روح الشمس وقد داخلتها السحب ، ثم عينان كاللوزتين الصغيرتين ، ثم أنف أبيّ متطاول على ما حوله ، ثم فم ضيق لاينفرج عن الكلام الا في الفرط والنّدرة لان الصمت شيمته ، والكلم عنده بمثابة الذهب لاتتلقى الا بمعيار ، ولا تنثر الا على نزارة لمجرّد الحاجة والضرورة .

وان أنت أخذته سائراً ، رأيت مثل الطّود يتحرك قطعة واحدة وكأنه يتقلّع خطاه على الأرض تقلّعاً ، ويتقادعها تقادعاً ، أو كأنه يقدّها قداً ما تزيد حداً ، قربا أو بعدا ، وتستوي في اتزانها متّسقة مرصّفة كخطوات الجند لاتجوّز فيها ولا تسمّح .

على انك قلّما عثرت عليه في غير مكانه من وظيفته يوم كان موظفاً ، والاّ فهو اما عند أحد صحبانه من التجار في سوق الحميدية ، أو في جلسة مع صديق من أرباب الصحف ، أو في أحد الأندية والمقاهي ، والنرجيلة الى جانبه يداعبها ويقرقر بها كالحالم الساهم . فان افتقدته في هذه المواطن فهو في مصيفه في بلودان يقصد اليه على فسحة من وقته ، أو ضيق في ذات صدره ، منكمشاً عن الناس ، وفي ذلك يقول :

ومالي وما للناس ابغي وصالهم فما وصلهم نعمى ولا هجرهم بؤسا

وما كان تعبّسه الجاهم الدائم الا وليد خلقه الرصين ، وطبيعته في الهدوء والسكون ، وما هو لعمري ان خطبت له الشبه مثلاً الا النقاب على وجه الحسناء يزيدها جمالاً . فمن دونه نفس في مثل نور الفجر تبلّجاً ، وعبقرية كأنها سطوع الشمس توقداً وتوهجاً ، ثم شخصية هي الزهر ينسم بالسحر على من يدانيها وينتشيها . ولطالما شبّه لي هذا التعبّس رصداً من الارصاد يحمي ما وراءه من ثمين الكنوز والذخائر ، وعلى أي حال ، فسواء أكان عن ألم مرير ، أو طول مران على التفكير ، أو ميل الى العزلة والانفراد ، أو مَرَد على الحياة ، فما في واحدة من هذه جميعاً ما يتسبّب للنقد لان الملابسة فيها بيّنة موثّقة .

واني اذ أتخطّر خطّه ليتكشّف لي عن الاستواء والوضوح ، وعن مزيته في الترويح ما بين الكلم والسطور ، ثم التجويد وحسن الترقين . فأنت في مخطوطاته كأنك في روض تغشاه الشمس ويتخلله النسيم في شتى أطرافه .

طالعتُه أول ما طالعته في « المقتبس » اذ كان يخصها بما ينشىء وينظم . وكان ذلك في أعقاب الرجّة العالمية الاولى . وطريقته يومذاك أن يجعل من استهلاله حكاية من الحكايات التاريخية والأدبية ، أو واقعة حال شخصية ، أو أحد البواعث ، ثم يخلُص الى الموضوع الذي أراغ التحدث عنه ، ومن ثمّ يفيض ما وسعته الافاضة وما أمدّته القريحة ، ليختم بالرأي أو الحكم قاطعاً مانعاً . ولقد لبث على طريقته هذه من بعدُ ، لم يتطرّق اليها تغيير ، اللهم الا في شيء واحد ، هو أنه لم يعد يُقنعه الاستنتاج القريب البدَهي ، ولا يلذّه الا مواجهة بحثه بالتفكير البعيد ليخرج بالحقائق التي تغذّي العقل كما تغذي الشعور ، والتي يُشرق عليها الاسلوب الراقي الرصين .

واذا كان من الحق أن ليس للكاتب أن يجري بالقلم الا كما يتحدث ويتكلم ، ليترجم عما يجول في فكره ويحكّ في صدره من غير تعمّل ولا تكلّف ، فالاستاذ جبري هو ولا شك من الأدباء النوادر

الذين ينقلون الخواطر والمشاعر على السجية المرسلة ، فتطالعه في يسر وسهولة ، بل وكأنك تسايره في طريق ممهدة معبَّدة ، لا عِوَج فيها ولا التواء ، ولا شيء مما قد يرتبق ويعتاق : معان بعيدة يكتنفها الغموض والابهام ما يزال في معالجتها حتى تغدو أقرب ما تكون من الأفهام ، وألفاظ تكاد تدرجها في العامي وهي من الفصيح السني . وليس يدرك قيمة هذا الاسلوب من السهل الممتنع الا من حاول ترسُّم آثاره والطبع على غراره ، فيعز عليه ما هو فيه ، ويحس المشقة فيما يعانيه .

ومزاج الاستاذ جبري مطبوع على الأناة والهدوء كمزاج الانكليز ، شديد الثقة بنفسه ، مستقل بطبعه ، وأستاذيته وليدة سنين متطاولة من المران ، ودراسته للأدبين العربي والفرنسي متَّسقة مستفيضة ، واستعداده الفطري قوي ، وخليق بمثل هذه الخصائص مجتمعة متآلفة أن تخلق شخصية قوية ، تتَّسم بروح العبقرية .

والذين تقصَّوا آثار الاستاذ جبري في حياته الفكرية لا يند عنهم مبلغ التباين بين شخصيته بالأمس الغابر ، وشخصيته لعهده الحاضر . فثمة الأدب الذي كان يقتصر على التفكير القريب في الموضوعات العابرة ، وهنا الأدب المختمر الهامس أنضجه طول التجربة واستغراق النظر في الحياة والعالم ، ثم استمرار المطالعة في مصادرها الناجعة . فاذا هو الخبير البصير بالرأي يلقيه كخبرته بالمعنى الذي يحتويه وبكل كلمة انتظمت فيه ، واذا هو بأسلوبه يرضي الفصحى في غير تقعر أو توعر ، ويرضي مذاهب الأدب الجديد في غير اسفاف أو اجحاف ، ولا يتأثر بغير المحاسن من الآداب الغربية وبخاصة الأدب الفرنسي .

ان في أدب جبري لزادا من المعرفة هو خلاصتها وزبدتها في كثير من مطاويها ، وهو غذاء للفكر والحس في شتى مطالبهما ، ومن ثمَّ يُقبل القارىء على موائده السخية في لذة وشهية ، مستيقناً النفع والمساغ مهما التقم وجدَّ به النَّهم ، لانه تلقاء طعام انضجته

يدٌ صناع أزكى انضاج ، وأخرجته خير اخراج .

ولا جرم أن الزاد الفكري الذي نفتقر الى مثله في مثل حياتنا الخاملة بعد العصور المتطاولة لهو الزاد الذي يجمع بين تراثنا القديم الحافل بالجليل من الذخائر، وبين الخصب الثقافي الحاضر ، فيصلنا بماضينا العزيز الغابر ، ولاينحرف بنا عن الرقي في الحاضر . وان الجمع في هذا الباب ليقتضينا حسن الاختيار والأخذ بالخالص اللباب مما يتكافأ ومزاجنا فيسدِّد خطانا في الوجهات القويمة الى الغايات المرسومة .

ومن الخير أن يكون أدب مترجمنا من هذا الطراز المتضاعف الذي جمع بين الروح العربية الرصينة والروح الغربية الراقية ، فجاء طعماً لذاً من ثمر ذي طعمين ، بل جمالاً من حسنيين . وما أذكر اني طالعته مرة الا خيِّل الي أن روحاً من مشاهير أدبائنا الأقدمين قد تلبسَّت روحاً مثلها لأيامنا ، فهي في نتاجها تنشر جواً عبقاً بالتالد والطريف .

لقد استقصى الاستاذ جبري حياة الجاحظ والمتنبي ، ثم حاضر بهما ، وألَّف فيهما ، ولكن بروح الأديب المعاصر الذي يعتمد التعليل والتحليل ، والتمحيص والتمييز ، والمقارنة والموازنة ، الى أن يخرج بما يقرِّه العقل ويستقيم في المنطق حقيقة في الحكم الجازم وحكماً هو الحقيقة بروحها . فكان موفَّقاً الى الغاية من التوفيق اذ حسر عن دفائن كانت مغيَّبة ، وصوَّب ما اعتسف السَّداد ، وأنار السبيل في كثير مما فيه شبهة واعتراض .

وأجرى اليراع في كثير من الموضوعات التي تدور على الأدب والعلم والفن والتاريخ ، مزوِّداً بها الصحف في مختلف الاقطار العربية ، كما أنه قدَّم لكثير من التآليف بمقدمات بارعات كانت كالغرة في جبينها ، والدرَّة في عقدها .

وآخر ما ألَّف كتابه عن رحلته الى العالم الجديد ، وقد أسماه

« أرض السحر » فكان في الحق سحراً من البيان . ولقد سبق أن زار بعض البلدان الاوربية فضلاً عن الجزيرة العربية .

أما الشعر فهو في دنياه أحد أماثل قلائل في الشام ، دان لهم القريض بصيته العريض : لاتحس في قوافيه جفوة ولا مللاً ، ولا تصدر عن معانيه الا مترنحاً ثملاً . فكأنك من بدائعه في روض أريض ، بسقت أغصانه ، ورفّت نسائمه ، ورقّت جداوله ، وأينعت ثماره ، وسحرت مناظره . فما تقع فيه العين الا على بدْع في المعاني الجليلة ، والصور الآسرة ، والتشابيه الحلوة العذبة .

وما أن يُذكر الأدب في ربوعنا الاّ برز اسم مترجمنا في الطليعة بين الأدباء والشعراء الشيوخ ، وبزّ الكثيرين في دنيا العرب . بل ان الاكثرين على أنه شاعر الشام بلا نزاع ، قد انتهت اليه أمارة الشعر ، ويخالفهم آخرون ليعقدوها خالصة للاستاذ خليل مردم ، فهي بينهما متراوحة .

ومزيته في شعره هي هي مزيته في نثره ، يفصّل الالفاظ على قدر المعاني ، وينزل المعاني منزلتها من اللفظ ، دون تزيّد أو تنقّص ، ودون نبوّ أو حشو . هذا الى رصانة في السليقة ، واشراق في الديباجة ، وشرف في المقاصد .

وكان اتصالي به أول العهد على يد المرحوم أديب التقي صديقه وصديقي ، فقد زوّدني اليه ، وهو يومئذ في وزارة المعارف ، بألوكة يوصيه فيها بأن يصل يدي بملتمسي في كتابة كلمة عن مؤلفي « العبر » ، وهو باكورة آثاري ، وما أن وقف على غرضي حتى استمهلني أياماً ، ثم بلّغني ما في نفسي وأمكنني من بغيتي .

ثم دارت الأيام فاذا انا أخرج له في مطابعي كتابه عن المتنبي ، وهو دراسة وافية القيت على شكل محاضرات في كلية الآداب بدمشق ، ونشرت تباعاً في صحيفة « المقتبس » ، ثم جمعت فأخرجت كتاباً بحيالها . وقد أدارها على جمّ من القواعد والشواهد

في الأدب الفرنسي من حيث اصول النقد وشرح النصوص ، واقتبس فيها الكثير عن أدباء الفرنجة وبخاصة أناتول فرانس .

ثم دارت الأيام أيضاً فاذا نحن نجتمع في مناسبات شتى تقتضيها أعمال الطباعة والنشر . ولا أنسى أنني رجوت منه كتابة تصدير لكتابي عن « أناتول فرانس » ، وسرعان ما لبَّى طلبي واستجاب لمرتغبي .

هذا ولا يغيبنَّ عن القارىء أن الاستاذ جبري أحد أعضاءالمجمع العلمي العربي بدمشق، وقد شغل كثيرا من المناصب ، وأخصها رئاسة ديوان وزارة المعارف ، ثم غضبت عليه السياسة متجنية وناهضته متنزِّية ، وما زال الى أن صحا الجو ، وتقلَّم ظفر المستعمر العدو ، فتسنَّم وظيفة عميد كلية الآداب في الجامعة السورية . وله في الفترة التي قضاها ضحية النقمة السياسية قصائد وطنية مشهورة وبخاصة خريدته يوم « الجلاء » وقد حلَّق فيها وأجاد الى أبعد الغايات .

ثم هو عاش خالصاً لأدبه ، حميلةً على أعصابه ، بعيداً عمن يسكن اليه بروحه وقلبه ، اذ سلخ طوال السنين وقد ناهز السبعين، معزابة متأبداً ، لم يرخ أستار بيته على امرأة ولم يرزق ولداً . وهو بهذا الشذوذ قد أشبه أمثاله من عباقرة الفكر يحيون لحياة فنهم فوق ما يحيون لفن حياتهم .

والذي نخلص اليه مما بسطناه هو أن الاستاذ جبري علمٌ من أعلام الأدب في دنيا العرب ، وأحد الكواكب الساطعة في النهضة الحديثة ، ومن المخضرمين الذين أخذوا عن القديم ولم يتنكروا للجديد فيما يفيد ، فكان في الحق الكاتب العبهري المتفوق ، والشاعر المتفنن المفلق .

شكيب أرسلان

لا مِرية في أن المعاصرة حجاب، تحول دون كثير من حدَب الناس بعضهم على بعض على ما تقتضي النَّصفة ويفرض الصواب ، وتقوم في الغالب الأعم كالحرب الشعواء بما يتخللها من محسدة وخصومة وبلاء، فتنتقص من الأقدار ، ولا تحفل بغير المصائب تقتصها أو تختلقها، لتجعل من النور ظلاماً ، والجوهر حطاماً ، ومن الخصب جدباً ، والهنيء المريء جشباً ، وما تزال حتى يحل الموت ، ويقع الفَوْت ، فتنقطع الاسباب ، وينجلي مدلهمّ السحاب ، وتخمد نيران الأحقاد، وينتفي الانقباض والبعاد ، فاذا ثمة المياسرة والحلم والتغاضي عن الخصومات ، واذا العقل هو وحده الذي يتحدث بعيدا عن النزوات الحاقدة والنزعات الحاسدة . وما شك في أن مترجمنا قد لاقى الألاقي في هذا الباب حتى اذا ضحى ظله وتصرَّم أجله ، تكشف فضله ، وكأنه البدر خرج من بين السحب الفاحمة يغمر الدنيا بأضوائه المضطرمة .

وُلد الأمير شكيب عام ١٢٨٦ في بيروت ، في حي «المصيطبة» بدار يقال لها « برج الجمَّال » . وابتدر الدراسة على الشيخ مرعي شاهين سلمان ، فالاستاذ أسعد فيصل . ثم انتسب الى مدرسة الامريكان في الشويفات ، ومنها الى مدرسة الحكمة ببيروت ، وقد لبث فيها من عام ١٨٧٩ الى عام ١٨٨٦ . ثم دخل الى المدرسة السلطانية حيث توفَّر على الفقه وعلى التركية، وكان ذلك عام ١٨٨٧م.

ثم شغل قائمقامية الشويفات زمن مظفر باشا وزمن يوسف باشا فرانكو .

ولما أن نشبت حرب البلقان وشبّت منها النيران ، وكان يومذاك في الآستانة ، كلّفته جمعية الهلال الاحمر المصري أن يكون مفتشا على بعثاتها لدى الدولة .

ومضى عام ١٩١١ الى طرابلس الغرب مجاهداً ، وأقام في برقه زهاء ثمانيــة أشهر في معسكر عــين منصور فوق درنة ، ثــم في معسكر بني غازي ، وبرحها على الأثر ، أي عــام ١٩١٢ قافلاً الى الآستانة .

ولما أن احتل الفرنسيون سورية كان بعيداً عنها ، وبرغم ما بذله أهلوه في سبيل اقناعه بالعودة الى بلاده فقــد أبى مقسما ألا يراه وطنه الأبي وفيه أجنبي .

ولقد اتخذ مستقراً له في أوروبة ، برلين تارة ، وجنيف تارة ، وله فيهما مسكنان ملكاً .

ودعاه دي جوفنيل عام ١٩٢٥ في باريس ، وحــادثه في أمر الاتفاق بين فرنسه وسورية ، ورغب اليه أن يرافقه ليكون عونه على تمهيد العقاب وازالة الصعاب واستشراف اتفاق يرضى به الطرفان، فأبى أن يتوجّه الى سورية مسافرا قبل أن يسفر وجه الاتفــاق في باريس نفسها ، وتوقع عليه فرنسة ، ويُبلّغ جمعية الأمم .

وزار الحجاز عام ١٣٤٤هـ. وانتخب لامانة السر العامة في المؤتمر الاسلامي العام ، كما أنه أعاد الكرة فزار الحجاز بعد ثلاث سنوات ؛ واعتلَّ في مكة فصعد الى الطائف مستشفياً . وقــد لزمه يومذاك فوزي القاوقجي بطل الثورة السورية عام ١٩٢٥ والثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦

وكانت له اليد السابغة في عقد المؤتمر السوري الفلسطيني في شهر أغسطس عام ١٩٢١ بجنيف ، وقد دام شهرين اثنين ، وغايته الاحتجاج على احتلال الفرنسيس لسورية ، والانكليز لفلسطين .

وحضر كثيراً من المؤتمرات، وفي جملتها مؤتمر مكافحة الاستعمار في ٩ كانون الاول ١٩٢٧ ، وفي هذة السنة سافر الى أمريكة منافحاً فيها عن حق العرب ، مستنهضا همم المهاجرين للذود عن حياض أوطانهم .

على أن معظم اقامته في غربته كان في « جنيف » حيث أصدر مجلة « الأمة العربية » باللغة الفرنسية ، بصحبة السيد احسان الجابري ، كيما يَسمع صوت أمته بلادَ الغرب وجمعية الأمم .

ولطالما عُرضت عليه من الملوك وغيرهم أرفع المناصب ، وما اليها من عطايا ومكاسب ، فكان يردّها الردّ الجميل مؤثراً عليها الجهاد الحرّ الطويل .

ومن حظوته لدن أرباب الشأن أن العاهلين عبد العزيز ، ويحيى حميد الدين ، قد توسّطا الى ملك الانكليز بالاستئذان له بدخول فلسطين للقيا والدته ، فأجاب طلبتهما .

بيد أنه مني بمثل ما يُمنى به أمثاله المجاهدون العاملون والمصلحون النابهون ، اذ تعاوى من حوله من راح ينحت من أثلته ، ويغمز من قناته ، وينحو عليه بكل ملامة ومذمة ، ناسباً اليه مختلف التهم ، رائشاً سهام النقم ، فهو تارةً صنيعة العثمانيين وجمال السفاح ، وتارة داعية الطليان الأمين كما زوّرت جريدة الجامعة العربية في فلسطين ، وآناً مظنة سوء كما وقع له حين دعا الى الوحدة بين سورية والعراق . فكان هدفاً للتخرصات والأقاويل ، والشراك والأحابيل ، كما كان طريد دول الاستعمار في الشرق ، كلاهما عدوُّ الآخر الألد .

على أنه عرف بحنكته كيف يعتصم بجأشه وينافح عن كرامته ، اذ ما كادت الهزّة العالمية الاولى تختم صفحتها حتى نشر مذكّراته عن بلاده وأمته ، وما قدّم لسورية من جليل الخدمة في تلطيف الويلات المستحكمة ، ولا سيما كبح جماح جمال في سياسته الجائرة المنتقمة . ولقد أذاع هذه المذكرات الخطيرة في مجلة المنار بمصر ، وجريدة مرآة الغرب بنيويورك ، فكان لها صداها البعيد واثرها

الشديد . وكذلك فقد حاجَّ أخصامه فيما املى عليهم شيطانهم من ميله وممالأته للطليان ، ومن إستنكاره التوحيد بين الاقطار العربية .

وفي عام ١٩٣٦ وقد زال كابوس السياسة عنه آب الى وطنه معزَّزاً مكرَّماً ، ثم ما لبث أن عاد أدراجه الى ديار الغرب نازحاً ، وما زال حتى تمَّ الجلاء فعاد ثانية الى الأرض التي عبدها ، وكأنه عاد الى الجنة التي وعد بها ، لتطوى صفحة حياته ، وينعم ثرى الوطن برفاته بعد إذ سلخ الثمانين مجاهداً مناهداً .

أمَّا شخصيته فان القلم ليضطرب اضطرابه حتى ليكاد يخطئه صوابه ، فيما يأخذ ويدع من حياته الحافلة بجليل المآتي ، وواسع المساعي ،ومآثر الآثار . ولا شبهة في أنه عزيز الشبه ، ذو شخصية جامعة فذة لاينعم بمثلها الا من كتب لهم الخلود .

فهو في علمه أحد الجهابذة في التاريخ الاسلامي والعربي ، له كتاب « حاضر العالم الاسلامي » و « الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف » و « آخر بني سراج » و « خلاصة تاريخ الأندلس » و « الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية » و « تاريخ الامام الأوزاعي » و « حقوق النساء في الاسلام » و « فتوحات العرب في ايطالية وفرنسة » .

وهو في أدبه من العباقرة ، صدر عن الكثير الموفور من المنظوم والمنثور . أما شعره فمن الجزل الفحل الذي تعتز بمثله الفصحى رصانة وفصاحة في اللفظ، ورشاقة ودقة ، وشرف غاية في المعنى. وأما بيانه فمن الطراز الأعلى الذي عُرف به البلغاء في رفيع انشائهم واسلوبهم . ومن تآليفه « روض الشقيق » ديوان أخيه الأمير عادل، حافلاً بالتعليقات المفيدة ، وكتاب" في الشاعر الخالد أحمد شوقي ، وكتاب « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » ، ورسالة « لماذا تأخر المسلمون؟ » و « اناطول فرانس في مباذله » ، وديوان « الباكورة » ، وغير ذلك من المؤلفات المتعدِّدة .

وهو في الصحافة أحد فرسانها المرجَّبين وأبطالها المغاوير ، اذ طالما نفح صحف مصر وفلسطين وسورية ولبنان والعراق ، فضلاً عن صحف أمريكا بآياتٍ رائعات في فصول ممتعةتدورعلى السياسة والتاريخ والاجتماع واللغة . وبحسبه مجلته « لاناسيون آراب » في جنيف ، وقد أصدرها بالفرنسية التي يجيدها اجادته للتركية .

وهو الى ذلك سياسيٌ أريب كان له في نُصرة أمته أوفى نصيب، وكانت له مبادئه القويمة الحرة ، لم يتحلحل عنها قيد شعرة . وقد اتصل بالملوك والأمراء والمصلحين والعلماء وكلِّ ذي شأن في شتى الأنحاء ، ما يبغي غير الاستجابة لداعي الضمير ، وتجنيب العروبة سوءَ المصير .

لذلك تعدَّدت الألوان في شخصية الأمير ليطغى فيها لون جهاده السياسي في الدفاع عن حرية أوطانه ، وشرف لغته ، وعزة تاريخه. وأنعمْ بها شخصية شاملة متفردة ، على سواء ، تتسربل بالامتياز والندرة ، ما يتوفر على مثلها الا القليل ، وتتّسم في بعض أطرافها بالاعجاز ، لان في الشرق علماء فطاحل ، وشعراء عباقرة ، وأدباء أجلاء ، ومصلحين مخلصين، وزعماء وأمراء قادرين . . . أما أن تجتمع راجحات صفاتهم في اِهاب واحد كالأزاهير المتغايرة في أضمومة واحدة ، ثم تطغي احدى هاتيك الصفات منسجمة حقَّ الانسجام مع ما يدور بها ، كما هي الحال في الأمير أرسلان ، فتلك فلتة من فلتات الزمان ، بل هي احدى الخوارق في بني الانسان .

وما قولك بأمير أصيل من أمراء الشرق تفتَّحت بين يديه أبواب السعادة والنعيم على مصراعيها ، وانفسح دونه ما يستدرجه على هَوْن الى المتعة بأطايب الحياة الدنيا في زينتها وزخرفها ، كما هو الشأن عند معظم امرائنا ، وعلى ذلك فهو قد مال عن هذا الذي يستخفه الى حياة رازحة فادحة ، تنتابه بالنُوَب السود ، وتتورَّده بفنون من العذاب الكنود ، مما لا يكاد يطيقه بشر ؟ . . أما ان في هذا الايثار لمأثرة بل مآثر هي الفخار بل روح الفخار ، ولأَنْ استحق الأمير

إمارة البيـــان ببلاغته وتجويده فيما كتب وأنشأ ، فان أمارته في النضال والكفاح لأرحب مدىً وأوجب حكماً ، لان للأولى مشابه عدة، وليس يشبه الأخرى الا القليل الأقل ، ثم ان الجمع بين الأمارتين هو البلاغة غاية البلاغة في عبقرية العلم وعبقرية العمل معاً . وهل العلم الا بثمره ، وهل سيان علم لايجدي عملاً ، وعملٌ لا علم فيه ؟.

وكان اجتماعي بالأمير أول ما اجتمعت به في دار الاستاذ خليل مردم . وما أن تسرَّب اسمي الى سمعه حتى سطع محياه باسماً ثم ابتدرني قائلاً : وكيف هي « ولاَّدتك » يا ابن زيدون ؟ أما والله اني لأهنئك باختيار هذا العنوان الذي عُرفتَ به في كتاباتك ، وعُرفتْ به مطبعتك ، اذ استحييت به وزير الأندلس وشاعرها وعاشقها .

ورحتَ أتفرَّسه آنذاك، فاذا أنا لاتشبعني منه النظرة والنظرات، ويُطمعني بالمزيد كرات وكرات ، كأنني من هيئته وهيبته في مثل سابق اعجابي بأدبه وترسُّله ، رجولة فحلة مستحكمة توحي بالاخلاص والاباء ورجاحة العقل والسناء ، وأمارة في دنيا من أمارة الأخـلاق العربية الأصيلة النبيلة تُطالعك في محيا متنضِّر زانته جبهة عريضة ناصعة ، من فوقها رأس كبير الجرم اشتمل على دماغ ضخم ، أطلَّ على عينين كجوهرتين كبيرتين سطع فيهما الذكاء سطـوع ذُكاء ، وملامح متناسبة القسمات ، بارعة اللمحات ، يجلّلها الوقار بهيبته نوراً على نور .

أخبرني الاستاذ عبد القادر المغربي أن رئـاسة تحرير جريدة « الشرق » خلال الحرب العالمية الاولى كانت معقودة للأمير ، وكان هو والاستاذ محمد كرد علي من أعوانه في التحرير ، ولما عـلم بأن مشاهرته ضعف مشاهرة رفيقيه عَصَفت به الحمية الاَّ يرضى بغير السوية .

فاذا أضفنا الى هذه الرواية ما هو بسبيلها اذ كان المترجم يدبِّج ما يدبِّج للصحف عفواً لايتقاضى عليـه شيئاً ، وقد اشتهر عنـه الاعتذار للخديوي عباس حلمي عمّا قدمه اليه من مال يستعين به

في سفره الى طرابلس الغرب بغية الجهاد والنضال ، وكان في معاملته مثال الأمانة والشهامة ـ تكشفت لنا خلائقه السريَّة ومخائله الزكيَّة.
ولقد أجملها في جمالها الامام السيد رشيد رضا حين وصفها في « مناره » فقال : « ان الأمير شكيب أكبر رجال السياسة من زعماء الأمة العربية ، وأشهرُ كتابها الذائدين عن حوضها والمنافحين عن حقوقها والعاملين لمصالحها . وله مكانة اسلامية سامية عند طلاب الاصلاح الديني المدني الذي يقتضيه هذا العصر من عرب المسلمين وشعوب عجمهم الكثيرة ، ولا سيما الاتراك والهنود ؛ لما له في خدمة الدولة العثمانية عندما كانت تمثل الزعامة الإسلامية ، ثم ما جاهد به ملاحدة الترك بعد جهرهم بنبذ الاسلام ومعاداته بالقول والفعل . ولما له من الدفاع عن الاسلام والمسلمين في مواقع أخرى كثيرة .

والأمير من مريدي أستاذينا موقظي الشرق الامام محمد عبده المصري والسيد جمال الدين الافغاني ، وله غيرة على دينه الإسلامي، ودفاع عنه ، لايطيق صبراً على من نال منه بلسانه أو قلمه . على أنه لطيف التساهل ، فكه المعاشرة ، وله أصدقاء كثيرون في بلاده السورية وفي مصر والاستانة واوربة مختلفو الملل والاجناس ، ولكنه حديد المزاج ، ألدّ الخصام ، فهو كما قال ابن دريد :
سهلٌ اذا لوينتُ ، لدنٌ معطفي   ألوي اذا خوشِنتُ مرهوب الشذى

وعندي أن ليس ما يبرهن على روحه الدينية وأخلاقه مثل قوله: « ولو لم يكن للمرء غير تلك الساعة الرهيبة التي هي السؤال عنه قبل دفنه وانتظار جواب الناس عنه ـ لكان ذلك كافياً في الزجر عن المعاصي وفي الحث على الفضائل » .

***

والذين طالعوا الأمير في نتاجه الغزير مجمعون بلسان واحد على انه في النثر اقوى منه في الشعر . ولقد اشار الى مصادره في اللغة ومقوّماته البيانية ، فقال : ان « مقامات الحريري » من المنثور الذي حفظه يساعد الأديب كثيراً على حفظ مفردات اللغة . وقال عن

« مقامات البديع ورسائله » : لقد كنت من عهد حداثتي كثير المطالعة لرسائل بديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي ، أتلو تلك الرسائل المرة بعد المرة الى أن استظهرت كثيراً منها » . ولا ندري كيف غاب عن الأمير ذكر « نهج البلاغة » للإمام علي ، وهو الذي لايقتاس به سواه ، وقد استماز على ما عداه حتى قال فيه ابن الحديد : « انه بعد كلام القرآن وكلام النبوّة » .

أما اتصالي بالمترجم فكان عن طريق المطبعة ، اذ اختصّني وهو في جنيف بطبع ديوان أخيه « روض الشقيق في الجزل الرقيق » وذلك عام ١٩٣٥ ، فأنجزته مطابعي في مئتين وثمان وسبعين صفحة . ولم يُخف الأمير عظيم ارتياحه واغتباطه لما لمس من دقة التصحيح، وسرعة الانجاز ، والعناية في الاخراج ، فأرسل اليّ مثنياً أطيب الثناء ، ثم عقّب فأرسل بكتابه « إخاء أربعين سنة » وهو سفرٌ ضخم اشتمل ما بين دفّتيه على ثمانمائة واربع وثلاثين صفحة من القطع الكبير ، فاستقصيت الى اتقان طبعه كل ذريعة ، وتوخّيت له وجوه النجح ، الى أن نال من رضى صاحبه كل منال ، فخصّني بكلمة جميلة من الاطراء أنستني ما بذلت من جهد وعناء ، وأربت عندي في القدر على ما نلتُ من أجر .

وينفرد الأمير بحسن خطّه بين المؤلفين وضوحاً واستواءً وتحسيناً وترقيناً، وقاعدته هي النسخ الذي تأنس العين الى مطالعته، وتجد الرّوح في متابعته . ثم انه لايثوّر أو يغيّر ، ولا يلزّز بين الحروف والسطور ، فتخرج صحائفه كالروض غمره النسيم والنور .

وكتبت اليه كثيراً وكتب اليّ رجع ما كتبت ، تارة من برلين ، وتارة من جنيف ، وآنة أخرى من مصر . والغالب على أحاديثنا ما يماسّ الطبع والتأليف ، ومع هذا فلم تخل هذه الكتابات من بعض البحوث الأدبية واللغوية والقومية . وأذكر من ذلك ما كتبهُ الي اثر انتقاد الدكتور كاظم الداغستاني لكتابه « إخاء أربعين سنة » فقال : « أما انتقاد كاظم الداغسطاني لمثل الشيخ رشيد رضا بعد وفاته

فنترك الحكم عليه لأرباب العقول ونسألهم : هل في العالم كثير مثل السيد رشيد رضا ؟.. ونسألهم : هل تكون مكافأة الناس للشيخ رشيد على خدمة نصف قرن للاسلام بمثل هذا الانتقاد ؟.. أما انا فأرجو الله أن لايخليني من مثل هذه الانتقادات التي تدلّ على ماهنالك من الأمور .. فأعرف عدوّي من صديقي » .

وتداولنا ذات مرة بحث « الشيوعية » فكتب اليّ يغمز منها ويتنكّر لها قائلاً : « ... انكم لاتجهلون مبادىء الشيوعية ، وهم لايقدرون أن ينكروها ، وما أهنأ سورية وأسعدها اذا فشت فيها مبادىء الشيوعية !!! » .

وسَرَت اليه شائعة تحسَّر لها وتضور ، فأسرع يتسقطني جليّة الخبر قائلاً : أمس قيل لي انه ألقيت قنبرة على عربة جميل مردم بك، ولكنه لم يصب بضرر ، فقد راعني هذا الخبر جداً لأنه يؤذن بشرّ مستطير ... ولكني في هذا النهار قرأت « الطان » فلم أجد فيه الخبر ، فعسى أن يكون مجرّد إشاعة ، إن محاولات الاغتيال ، لاسيما اليوم ، لأقطاب الكتلة الوطنية ، معناها إثارة السوريين ، بعضهم على بعض ، حتى تتعرقل قضية الاستقلال السوري . وليس لها مغزى آخر ... » .

***

رحم الله الأمير شكيب اذ لم يكن هلكه هلك واحد ، كما يقول الشاعر ، ولكنه بنيان قوم تهدّما .

رحمه الله وأحسن مثواه ، وقد كان أميراً في حسبه ونسبه ، في ثقافته وأدبه ، في علمه وعمله ، في فضله ونبله ، فاستجمع من الامارات ما رفعه فخراً بين الرجال يعز منه المثال .

رحمه الله وهو الذي أبلى خير البلاء في ردّ كيد الأعداء ، واستنزل مثل الحمم الماحقة والزلازل الصاعقة ، دحضاً لأباطيلهم ، وتسفيهاً لأعمالهم ، ونقضاً لأحابيلهم ، وتشنيعاً على خططهم ومؤامراتهم .

رحمه الله فيما قدّم للفصحى من حماية ورعاية ، وللدين من نصرة في المبادىء والغاية ، وللعروبة من ولاءٍ بلغ أقصى النهاية .

ثم وثم له الرحمة على ما قاسى من قسوة دهره ونكره ، غريباً عن الأهل والديار ، نضو إجحاف وأسفار ... يرى الى وطنه الحبيب عن بعد ، في حرقة ووجد ، ويدفع ويدافع عن حوزته ثم لايعدم من يتهمه كيداً بخيانته وخفر ذمته .

أما إن في آلام حياته لما يسلكه بحياة الآلمين من المصلحين ، وينزله في مثل منزلة الرُسل الصالحين . وتلك هي الحياة الفضلى في حياة الخلود ، وتلك هي المنزلة المثلى في الحد الانساني ينتهي عند الحد الالهي .



ظافر القاسمي

في حياة الزمن الذي يدفن بعضه بعضاً ، ويدفن معه حياتنا دراكاً ، فترات كأنها ليست منه بسبب من خلودها واستدامة وجودها وعمق انطباعها ، اذ هو سرعان ما يحول ويزول بينا هي كأنما اكتسبت روح الورد من جنان الخلد بقاءً لايعتوره أي تفتت أو ذبول . وانها وتلك خاصّتها لتجدنّها في ذكرى صورها بنت ساعتها في ذكرها ان لم تكن أشدّ سطوعاً ونصوعاً في حاضرها منها في الغابر بعد اذ تنقّحها الأيام مما تلبّسها من أوهام وابهام متميّزةً خالصة أشبه بالنور يملّس من بين السحب والغيوم بخاصّته من روح ضيائه .

تلك هي فترات العمر ، أو ان شئت فقل هي العمر في مطالع فصوله ، ومعالمه في سير سيرته . وما أعزّها وأكرمها على صاحبها وهي خلاصة العمر ، إمّا استماز بها نسخة لها الشأن كل الشأن من امتيازها ، أو نسخة عابرة غاية وجودها أنها زيادة زائدة في الوجود .

واني وأنا أروىء النظر في ماضيَّ لأجد فترات انطوت على ذكريات عزيزة اذا هي قد امتدت بأصولها بعيدةَ الغَوْر في المصدر ، فانها لعمري قريبة قريبة قيد البصر .

ومن جملتها تلك التي عُقد فيها ما بيني وبين الاستاذ ظافر القاسمي بما يرجع عهده الى أوائل عام ١٩٣٤ حيث لم تكن تطلع عليَّ الشمس يومذاك الا نعمتُ بشمس محيّاه ترفُّ بالتحية ابتسم

فيها الذوق الرفيع ، ونَعِمَ مسمعي بحديثه الطليّ يتحدّر باللهجة السائغة تميّزت بنغمات من التطريب واليها الأدب جمّ الظارف والتهذيب .

ولا بِدع فهو من آل القاسمي الألى فازوا بالقسمة الجلّى من الفضل والفضائل ، بل هو ابن عميدهم وفخارهم العلامة الشيخ جمال الدين ، أحد فراقد العلم والإمامة والكرامة ، وعَلَم عصره في جلائل اثره ، فورث عنه وعنهم ما يرثه الفرع الرطب في الشجرة الفينانة زكا أصلها وطاب مغرسها وأربت بخيراتها ، فمن أين جئتها بدهتك بسحرٍ من المعاني الكريمة والمرائي الوسيمة .

ومن ثمّ كان مترجمنا خليفة أبيه في جلّى محاسنه : في علمه الوفير وزاد عليه علوم عصره ، وفي فضله العميم وقد تعهّده فضل تعهّد كيما يستديم مُوَطّد الاركان ، متشامخ البنيان ، وفي كرامته السموح اذ استحمل اليه محبّة الملأ مضاعفةً عن أبيه في ماضيه وعنه هو في مستجدّ مآتيه، وفي شهرته المستفيضة حيث مدّ فيها الأسباب موصولة والأواصر معقودة ، فكان في ذلك خير البنين لخير الآباء ، طريفاً قلّ ما تطرف على مثله الابصار لتليد أعزّ ما يعتز به المجد والفخار .

ولئن أخذ عن أبيه هذا الأخذ المبارك من طيب الشمائل فلقد أخذ كذلك بعض صفاته في مرآه ، فهو ربعة بين الرجال ، لا بالطويل البائن ولا القصير المتردّد ، قَصْدٌ لا بالجسيم المترهل ولا النحيف القضيف ، يحمل محيّاً متناسب القسمات ، حلو المعاني ، تزينه جبهة وسيعة تطل على عينين تغزلان غزل السحر خيوطاً من شعاع الذكاء ، واليهما انف حلو الاستواء كأنما اعتزّ بما حوله وبخاصة المبسم الذي اشبه ثغر الأقاحي رقة وبشاشة ، وما أجمله وخصلة من شعره ترف ابداً على جانب رأسه كأنها توكد للناظر دوام شبابه ونشاط حيويته رغم تذريفه على الخمسين . وبالاجمال فهو من خَبَر ضاحي سحنته كخُبْرِه في مغيب شخصيته قد استجمع اليه ما يحبّبه الى النظر والى القلب على سواء .

لَقِنَ مترجمنا مبـادىء العـلم في كتاتيب دمشق كما هي في تواضعها لعهدها ، ثم تحـوّل الى المكتب السلطاني (مكتب عنبـر) حيث تخرّج منه بالشهادة الثانوية على أيدي فحول مـن الاساتذة كالجندي والمبارك والبزم وبقدونس وصليبا . ثم انتسب الى معهد الحقوق ، وما هو الا القليل حتى نال شهادته في المحاماة متفوقاً ، ثم عمل متمرناً ، ثم استاذاً ، فأحرز من الشهرة ما جعـله مؤتمن الكثيرين على دعاواهم . ونال عنـد زملائه المحامين الحظـوة التي حفزتهم الى انتخابه نقيباً عليهم .

وينبغي ألا ننسى انه في عهد دراسته في مكتب عنبر كـان أحد ثلاثة ، هو والصديقان داود التكريتي وعصام الانكليزي ، وقد وحّدت بينهم السنّ والألفة والتحصيل والنزعة حتى استووا مثالاً واحداً لصور مكرورة إن هي تباينت في مجتلاها لـم تتباين في معناها ، مدلّلين بثبات وحدتهم على أن العـدد غير ثابت اذ يتضاعف وهـو الواحد ، ويتوحد وهو المتضاعف ، وعلى أن ثمة مثل مرائي المـادة في مرائي الناس ، تنعكس فيها الارواح والنفوس بعضها عن بعض حين تتماثل في عنصرها وتتحد في تجاوبها وتجاذبها .

ولنعم هي الوحدة وحدتهم لأنها أعقبت الخير متعاقب الفيض في نشر آيات مـن تراثنا العلمي والأدبي وبعض الآثار المأثورة مـن الأدب الحديث . فلقد توفّر مترجمنا يشدّ إزره رفيقاه وزميـلاه على انشاء مكتب أطلقوا عليه « مكتب النشر العربي » . صدر عـن تآليف جليلة أذكر منها «المنقذ من الضلال للغزالي» و « حيّ بن يقظان لابن طفيل » و « البخلاء للجاحظ » ثم « الثقافتان الصفراء والبيضاء للشيخ بهجة البيطار » و « الحياة الأدبية في جزيرة العرب للدكتور طه حسين » و « قواعد التحديث للشيخ جمال الدين القاسمي » .

ثم انفرد مترجمنا من بعدُ باخراج احد آثار والده ، وهو المسمّى « قاموس الصناعات الشامية » والذي قدّم له المستشرق الفرنسي

لويس ماسينيون ، فأعلن عن خطره من الوجهتين العلمية والتاريخية وقد أخرج في جزأين كبيرين .

ويجدُ مترجمنا لهذا العهد بطبع مؤلفه الجديد عن الحياة الدراسية في « مكتب عنبر » الشهير ، وكان قد نشر فصوله في صحيفة « الأيام » تباعاً ، ولقي الاستحسان اجماعاً ، بما ضمَّنه من تراجم لأساتيذ في العِلم والتعليم هم الرواسخ والدعائم ، لبنيان الثقافة والنهضة الحديثة ، وما اقتصَّه من حقائق ودقائق ، وأوابد وشوارد، عن فترة من تاريخ الحياة السورية العربية تُعدُّ من أيقظ الفترات الوطنية والسياسية، مما لا قبل بالتوفر على مثله الا لمن عاشها مثله، فبلاها في خيرها وشرها، وصفوها وكدرها. وما نشك على حال في أن هذا الكتاب سوف يزيد في خطره على الأيام كمرجع تاريخي هام لاغَناء عنه للمحققين المؤرخين في المستقبل فيما غنيت صفحاته من إفادة واجادة ، وكفاية في التحري بلغت الغاية ، فضلاً عن التجرُّد في الحديث يستجلي الأحداث بحقها من صدق التعبير ، ودقة التفكير .

وأنت اذا ذهبت تعتبر المترجم في كتابته لرأيت أنه أحد قلائل ممن استجمعوا اليهم براعة الوصف مع أناقة اللفظ، وجمال الترسل مع جلال المعنى ، وسداد المنطق مع ألمعية الذهن . هذا الى سلاسة في الاسلوب والسَّرد ، يتخللهما الصدق في الشعور وإشعاع الروح . فاذا تحوَّلت الى الكتابة بذاتها في نمطيَّة خطِّها طالعك كذلك اليسر في المطالعة برغم مشقها في التحبير وسرعتها في التسطير .

وعلى أن مترجمنا قد انصرف الى المحاماة في لغتها الجامدة بمادَّتها من موادِّها ونظام اسلوبها من أنظمتها ، فقد لبث على عهده أميناً للفصحى ، نشطاً في إرعائها ، ضنيناً بتعشقها ، يعلو بها عمَّا يشينها ويعيبها . وتلك مزية يتعاظم خطرها بل يعزُّ مثالها حين نذكر الضعف والركاكة يمنى بهما أكثر المشتغلين تحت قوس العدالة ، فيعدلون مع الأيام عن الفصيح من اللفظ ، والرفيع من البيان ، لايشغلهم مثل مايشغلهم قراع الحجج بأضدادها ولو وردت من اللغة التي يلعن بعضها بعضاً في مواردها .

ومما لابدّ من التنويه به أن مترجمنا على شدّة عنايته بلغته قد بذل مثل هذه العناية في اللغة الفرنسية التي مرن عليها منذ الحداثة ، ثم مكّن لها بالمطالعة المتصلة ، الى أن برع فيها ترجمة وحواراً كأبنائها .

وما أنا والله بالمغالي حين أختم بأن الاستاذ القاسمي نادرة بين الرجال لم أعرف من مثله الا القليل والأقل بين من عرفتهم على طول العهد وامتداد العمر : أصالةٌ في الحسب والنسب ، وسجاحةٌ في الخليقة والطبيعة ، وبسطةٌ في العلم والمعرفة ، مع احسان الى ميزة في الأدب والبيان ، وسداد في الرأي كأن فيه ألوهية الفكر . وجدٌ دؤوب هو الأحوذية في غاية غاياتها .

وماذا بعد هذا غير أن أزعم بأنه ابن نفسه ، قد ازدحمت عنده الخصائص والميزات من كسب خصه به ربه ، واكتساب هو جني سعيه ، فما تدري ما تأخذ من ذلك وما تدع ، ولكنك لاتخطىء حين تستجمع ذلك كله في أنه أحد أمثلة العبقرية الناجحة في فن الحياة المثلى .



عبد القادر المغربي

أول ما يبده من مرأى الاستاذ المغربي هندامه العلمي ، وهو في احتشامه يبعث على هيبته واحترامه : جبة ناهضة القوام ، بلغت تمام الحدود ، وحدّ التمام ، منذ أعلى العنق حتى أخمص الأقدام ، وراحت بفتخة ردنيها متّسعة اتساع الشيء آل ضعفيه ، ثم عمّة من الأبيض اليَقَق كأنها منبثق الفجر ، لاهي بالضخمة تزيّدت في تلافيفها ، ولا بالخفيفة شذبت من أطرافها وانما هي عوان بين ذلك، وقد انتصبت في مكانها الأعلى لتكون تاجاً ناصعاً متصلاً من بياضه بنسب قريب مع الشعر من تحته بعد اذ نوّره المشيب . هذا الى لحية كثة متخفّفة أطلّ عليها فمٌ ظليل البسمات ، حلو النفحات بما يصدر عن لهجة عذبة ترافقها النكتة المحبّبة .

فاذا أنت تحوّلت عن هذا المظهر الى ما استكنّ وراءه مما لايتناوله النظر ، من سليقة في النفس ، ونوازع في الحس ، وخصائص ومقوّمات في أعماق الذات ، لم يعجزك ما أنت في سبيله ، وبحسبك من صاحبك الجلسة أو الجلستان لتكتنه من خوافيه ما لا مزيد فيه وان جالسته السنين الطوال .

فهو على طبيعة سهلة الجانب ، سلسة القياد ، فُطرت على المسايرة والمياسرة ، حتى كأن فيها روح النسيم في أعطافه وألطافه. وليس يهمّها أن تتّهم بالعجز أو المحاباة والإمّعية ، اذ لا وزن لمثل هذه التهم في مقياسها الذي لاترجح فيه الا غاية المقاصد ، ومقصد الغايات . ولعلّ مردّ ذلك الى الحياة الدينية والعلمية التي نشأ فيها على التقية فآلت من بعد الى عادة فخلق فأصالة في الطبع ، ثم الى

العصر المستبدّ الغاشم الذي نشأ فيه وتقلّب في مطاويه ، وركبه من تجاربه ونوائبه ما طبع أثره البليغ في مجمل طباعه ، ومال به الى ايثار المهاودة والمحاباة والتحبّب والمصافاة على ما يناهضها . وهذه الخلال اذا تجلّت في مآتيه فهي تتجلى كذلك فيما يخطّه يراعه ويوشّيه ، وبخاصة ما كان له صلة بالمناظرة والمجادلة ، فما يعدل بالقول الرصين قولاً ، ولا يبغي عن أدب الحديث محولاً ، وربما لاذ بأكناف الصمت حيثما يراه غيره معنىً من العجز ، ولا يراه هو الا معنى الصواب وفصل الخطاب .

وما أيسرَ أن تنتزع منه سرّه ، فهو في ذلك غير ضنين ، لايمنعه منه مانع من سوء التأويل ، وله فيه ألف ألف مانع من التدليل والتعليل ، وليس يؤسيه أن يحمل قوله على السوء وهو مستيقن أنه لايصدر الا عن سجيّة وحسن طويّة ، ولن يرتجع عليه ما قال بأية أذيّة . بيد أنه على الأغلب لايفتح مغاليق قلبه الا لصحبانه وأحبابه ممن استوثق من حبهم وقربهم . وانه ليعلم من أخلاق الناس وطبائعهم ما يعلم ، ويحاول أن ينكمش على نفسه ويتكتّم ، ولكن طيبته تغلب عليه ، وخلق التحبّب يأبى الا أن يجعله مع غيره مثله مع ذاته في ضميره ، فتندّ عنه هنات لامظنة فيها الا حين تؤخذ من معانيها في التثريب والمؤاخذة .

ثم ان المغربي من المتديّنين ، والمعرقين في الايمان واليقين ، يستمسك من الحياة الدينية بروحها وجوهرها ، لابزبدها وجفائها ، وينعى ما تدسّس اليها مع الزمن فشوّه جمالها واستطلع السحب الربداء حولها ، الى أن أحالها غير صورتها في حقيقتها كأنها الدّمنة الخربة المتهافتة وهي الحياة القويمة جمعت اليها أطراف السعادة والفلاح . ومن ثم تراه مجتهداً أبعد ما يكون من التزمّت ، آخذاً بما يقتضيه التطور الدائم والتغيّر القائم . وكأنه في ذلك نسخة عن أستاذيه المصلحين الشهيرين الامام محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغاني ، وهما هما في التيسير والتوسيع وفتح المنافذ المستغلقة على كثير من الحقائق والدقائق مما ألبسها طول العهد مزقاً متهدّلة

من المحرّمات ، وترك فيها رواسب من التهويل والأضاليل ، فكانت سبباً أيما سبب في تأخر المسلمين وجمودهم .

وما أذكر أني وقعت على المترجم في مكان الا كان لهـذا المكان علاقة بالعلم أو الأدب أو الدين ، فهو من أحرص الناس على ألا يظهر في غير ما يتكافأ ومكانته وقدره . من أجـل ذلك درج على أن يقسم وقته بين داره في جسر عرنوس ، ومركز عمله في المجمـع العلمي العربي بباب البريد ، فان شذّ فلكيما يختلف الى مصر حيث المجمع اللغويّ ، وهو من أعضائه .

ولك أن تفتـح الحديث في حضـرته في شتى الشؤون الا في السياسة التي يمجّها ويستكرهها ، واذا تطرقت الى مسمعه لم تجز صماخ أذنه ، وحوّلها مجرى من الحكمة أو النكتة .

ويجب ألاّ ننسى أنه ولد في طرابلس الشام وكانت من أعمـال سورية ، وأن أصله الى المغرب ككنيته ، يرجع الى بيت عريق بالعلم . فهو يجمع في أخلاقه ما اشتهر عن المغرب العربي من ذكاء وفطنـة وحفاظ ، ثم ما عرف عن الشآميين من لين وعريكة ونشاط ، زدْ على ما تقدّم ما اقتبسه في أسفاره ، وفي الأخص الى أرض الكنانة حيث اتصل عن كثب بالامام عبده والأفغاني كما قدّمنا من قبل .

⁂

واذا أخذنا المغربي بخطّه ، وتدبرناه على حقه في مجمل نسقه ، طالعنا بمثل صورة صاحبه في سهولة جبلته ، وأناقته في ملبسه ، وقوامه في سليقته ، ثم هو وكتاباته لايحملها الا الورق من القطـع الصغير لتنمّ عن طبعه الأصيل في الميل عن الاسهاب والتطويل .

واذكر اني كنت ذات مرة في المجمـع العلمي أتجاذب والاستاذ المغربي أطراف الحديث عن الأدب العربي ، فسألته الرأي في بعض الأدباء ، ثم عرّجت الى استخباره عن طريقته في الكتابة والانشاء . فاذا هو يُنهي الي أنه يعيّن موضوعه ، ثم يُعنى باثبات ما يعنّ له من معانيه في أقصوصات يدّخرها لهذه الغاية ، ثم ماينفك حتى يستيقن

انه استنفض ما عنده ، واستجمع من الآراء ما فيه الكفاء . ومن ثمّ يقبل على ما بين يديه ، ينسّقه على ما يستطيب ذوقه ، ويعمل فيه حذفاً وزيادة كما يقتضي مساقه ، الى أن ينتهي من ذلك فيكون الموضوع قد استوفى نهايته واستكمل غايته .

ولقد طالعت المترجَم في أكثر آثاره ، فخرجت بما يعدّ مزية ظاهرة ، ولكنه لايعدو فيها الحدّ الى العبقرية النادرة ، يتقدّم حيث يجلّي ويستبق ، ويتخلّف حيث ينخزل ويرتبق . فهو في أسلوبه كأسلوب الكثيرين ممن استحكمت عندهم أسباب اللغة والبيان ، يبنون على سعة الأجادة في المبنى ، وعلى قلة وانحصار في المعنى ، وربما داخلهم الاضطراب في الأخير ... وانك لتقرؤ المغربي، فاذا أنت تلقاء أسلوب جميل كالسلسبيل ، أو هو الجدول الصافي يتعاقب في هون وهوادة على التوافي ، ليس فيه ما يستوقف الخاطر ، أو يأسرك منه المعنى النادر ، أو يتسبّب بما يشعرك العمق، أو يأخذ بيدك الى الجديد الذي لاعهد لك بمثله من قبل . فاذا أعجبتك منه السهولة في التعبير ، وما يتخللها من أمثال وحكايات ومداعبات ، فما أنت كذلك فيما انسدلت عليه من المعاني القريبة التي لم يتعب الفكر في تسهيلها صعبة ، وتقريبها بعيدة . وهو في الغالب لايصدر عن غير تحقيقات لغوية وأدبية ، وموضوعات أخلاقية واجتماعية ، وعلى شدة المحاولة والحفل باظهارها مظهر الجديد فهي أبداً من القديم والى القديم مصدراً ومآلاً . ولطالما عرض بضاعته في النحت والتصويب اللغوي ، فكان لها أثرها في تقويم الأقلام وردّها الى الفصيح من الكلام ، وفي تخريج ألفاظ ناشئة لمسمّيات طارئة لم تكن تجد مبانيها من معانيها . بيد أن له في هذا الباب ما يغضب الصواب ، بل ما يغلب عليه الاستغراب . وليس في ذلك ما يمنعنا من الاعتراف له باليد السابغة على اللغة في كثير مما وفق اليه ولم يتأدّ مثله لغيره من اللغويين .

وعلى الجملة فهو في آثاره من المقلّين ، تستدرّه فما يجود بغير النّطف والنّغب مما لا ينضح الغليل ويشفي الأوام . ولا أدلّ على

ذلك من أن تطالع له المقالة أو المحاضرة الواحدة يبدؤها ويعيدها مرات وكرات ، كما هو الشأن في محاضرته عن جزيرة الواق الواق التي كرّر نشرها وأخذ عليه العارفون ضعف مصادرها واسانيدها.

وما نحن والله بظالميه حين نزعم بأن آثاره إطلاقاً لاتؤلف إلا الثروة الفقيرة التي لاتحمل من الخطر ما يرتفع بصاحبها مرموق النظر ، اذ ليس فيها مما تعرفناه وتعرفه قراؤه ما يتّسم بالبدع والابداع ، واذا استثنينا مؤلفه في « الاشتقاق والتعريب » و « الاخلاق والواجبات » و « البينات » وما هو في مرتبتها وعلى نمطيّتها ، فما نجد بين أيدينا الا نبذاً من محاضرات خفيفة الوزن ، لاتستقل شيئاً من ومضات الذهن ، ومقالات عابرة يتخالج أكثرها الشك ولا تثبت على النقد . وأين هذا لعمرك من بضاعة الخالدين في المجامع العلمية العالمية وقد تبلغ عند أحدهم العشرات ، وتنفرد ببعض الآراء والنظريات، ولا يترك أحدهم دنياه الا بعد اذ يترك فيها دوياً يقترن به اسمه ، وتتميّز به شخصيته .

أما والشأن كما بسطنا فلنا أن نتساءل اذن عن مصدر الشهرة عند مترجمنا ، وإنّ رَجْع ذلك لهيّأ عتيد ليس بالبعيد ، فقد كان للزمن والتطوّر أول بداءته ، وللبيئة وهي بالجمود والجهالة كأنها الموبوءَة ، وللصحافة والعهد بها قريب ، من تسنّم غاربها رفعته في الأنظار ووصلت بينه وبين أهل الفكر والعلم والحكم ، أجل لقد كان لهذه العوامل مجتمعة في مثل مطامح مترجمنا ومنازعه المتطلعة ، ومثل نشأته في بيت عريق بالعلم والدين والوجاهة ، شأن كل الشأن في قنص الشهرة وامتدادها مع الأيام بحكم الاستمرار . وإلاّ فاعرض هذه الشهرة على محك النقد والتمحيص ، ثم انظر أي شيء يتبقى منها ، وهو الذي لايرتفع بمثله المجد الأدبي والعلمي الذي انتهى بصاحبه الى أرفع الدرجات حتى تسنّم الرئاسة والعضوية في المجامع العلمية الكبرى .

كذلك تأدّى للمغربي ان يمسك بناصية شهرته ، لقد تمرّس على الصحافة في مصر والشام في زمن لم يكن أسهل على المرء فيه

من أن تسجع الألسن بذكره ، ويسطع كالشمس بنوره ، اذا ما كان على مسكة من اللغة في تحريك اليراع ، ثم هو قد شغل بعض المناصب العلمية آن لم يكن العلم الا بمثابة السّراج الباهت تجاه الكهرباء الساطعة الباهرة ، ولم يكن للأستاذية من شأن اكثر من زاد المعارف البدائية التي لاترتفع حتى الى زاد الشهادات المتواضعة لعهدنا(١) .

ولكن ما انتهى اليه المغربي لم ينته الى مثله سواه من أمثاله في نشأته وفي عهده . وهنا مكمن الحقيقة في فضله ، بل فضله في حقيقته ، اذ هو على جمود عصره وبيئته، وقلة وسائل العلم وندرته، وعلى أنه لم يتتلمذ على غير والده وبعض أسرته ، ثم في القليل على الشيخ حسين الجسر ، لقد وسعه أن يفلت من ربقة الجمود ، ويولّي وجهه شطر التجديد ، ويعقد الصلة بمن استفاضت شهرتهم من العلماء والأدباء ، ثم لم يجزئه ذلك فقصد الى مصر ، وهي يومئذ محجة القصّاد والرواد ، ومجتمع أساطين الفكر والاصلاح ، وهناك طوّع مواهبه للصحافة ، فجرى مع الجارين في حلبتها ، وصال وجال في ساحها ، واتصل بالكثير من فرسانها . فلما أن عاد الى وطنه عاد غنيّ الزاد ، موفور العتاد ، نابه السّمعة ، كأنما هو غيره يوم غادره .

وكانت الرجفة العالمية الاولى، وقد وسع مترجمنا آنذاك أن يفوز برضى الاتراك ، وينال الحظوة عند مثل جمال السفاح ، بلين عريكته، وكياسته في سياسته، بل في براعة تقيته، وما أحسب الا أن كنيته من اسمه هي التي أقصته عن البلاء ، وقضت له غير القضاء الذي نزل بالسوريين الاحرار ، شأنه في ذلك شأن زميله العلامة كرد علي على سواء وقد نفعته «كرديَّته » كما نفعت المغربي « مغربيته » ، فاذا الاثنان ينتخبان الى جانب الأمير شكيب ارسلان لتحرير صحيفة

---

(١) رحل الى مصر عام ١٩٠٥ حيث عين كاتب فتوى ، ثم حرر فيجريدة (الظاهر) و (المؤيد) حتى عام ١٩٠٨ حيث اعلن الدستور العثماني وعاد الى سورية .

« الشرق » التي لم تصدر الا لتمجيد الاتراك في حكمهم القائم وظلمهم الغاشم .

ولما انطوى ظل الحكم الطوراني، وأعقبه العهد الفيصلي ، وانشيء المجمع العلمي العربي في أواخر عام ١٩١٩ ، لم يكن من البدع الغريب ان يدخله مترجمنا عضواً باعتباره رفيق رفقاء مؤسسين ، وأحد افراد قليلين ، بزّوا غيرهم بشهرتهم العلمية . ثم انه عرَف بذكائه وجدّه كيف يحتفظ بعضويته ويحيلها عاملة ويقفز منها الى الرئاسة، كما عرف كيف يدخل استاذاً في كلية الآداب التي أنشئت لزمن قصير أيام الانتداب ، وأن يفوز من بعدُ بعضوية مجمع اللغة العربية الملكي بمصر عن الشام عام ١٩٣٤ ، وعضوية المجمع العلمي العراقي عام ١٩٤٩ ، ووسام « ضابط في المعارف » من الحكومة الفرنسية عام ١٩٢٥ ، كل ذلك بسبب الشهرة المستفيضة التي اكتسبها على الأيام ، وبفضل مساهلته وتحبّبه الى الحكام ، وبالاجمال لأنه ممن اتقنوا فن النجاح في فن الحياة .

أما صلتي بالاستاذ المغربي فسببُها مجلة المجمع العلمي العربي ، يوم تحوّلت الى مطبعتي في عهد رئاسته ، أي في مطلع الحرب العالمية الثانية ، فكنت أختلف اليه في المجمع ، وأحضر كثيراً من أحاديثه ومناقلاته وملحه ونكاته ، سواء مع زواره أو مع كاتم سرّ المجمع الاستاذ عز الدين التنوخي . وقد خلصت من ذلك الى أن للرجل دنياه الخاصّة بينه وبين نفسه ، ودنياه العامة مع السّوى، والشقة بينهما بعيدة ، ولكل منهما أفانينه وأساليبه .

وكانت وفاته رحمه الله أوائل حزيران من عام ١٩٥٦ ففارق دنياه ليكون حديثه بعده حديث أحد البناة في نهضتنا العلمية والأدبية . الا ان ما ابتناه لم يكن الا جهد الرفيق في الموقف الوسط، ما يتعدّاه الى مستوى الاستاذية القديرة المبدعة . واذا كان الجهد متبوعاً بنصيبه فنصيب شيخنا المغربي من جهده أناف بلا شك على حدّه ، اذ كان نصيب القدر المسالم الموائم في سوانح عطائه واجتبائه .

فخري البارودي

انك لتنظر اليه فما تدري أهي ابتسامته المشرقة المونقة فوق فمه هي التي قد ضوأت جوانب محيّاه الزاهر ، أم ذاك قلبه ما زالت تتورّده الشجون متكررة معتكرة الى أن بلغت حدّها فاستصفت ثم فاضت على صفحة وجهه فَرَحاً مشعاً هو في الحق نتاج للألم وخلاصته .

ولا بدع فهل كان المتعبّسون الجاهمون في الأعم الأغلب إلاّ أسرى شعورهم العنيف بفرح الحياة ؟ وأولئك الساخرون الناقمون هل هم الا من صهرت الشقوة حبات قلوبهم بعد اذ ركبتهم صروف الدهر بأثقالها في أدوار حياتهم ؟

أما إن في الوجوه الآدمية لأسراراً حتى لكأنها تتلبّس فوقها أقنعة من وجوه أخرى تواريها وتستر عليها في حقيقتها ، فما تحسر عن جليّتها الا النظرة المستغرقة النفّاذة في شبه الأشعة التي تحسر عن بواطن الجسم وخوافيه من خلال ظاهره وضاحيه .

تلك هي أول نظرة في مترجمنا وأنت ترسل البصر في معانيه، فتجذبك اليه لتصرفك عما عداها كالشمس اذ تشع بنورها مثل اللهيب فتتوارى من دونها سائر الكواكب وتغيب .

فثمة الى جانب الابتسامة الحلوة السائغة تضحك للدنيا أو تضحك منها ، عينان وسيعتان من الزمرّد النقي ، توهّج انسانهما ببريق لك أن تسمّيه الذكاء والألمعية ، أو الطيبة ، أو روح الانسانية، فالمعنى في ذلك سواء .

وثمة الأهداب مريشة تقوّست على الحاجبين متحنية ، ليطلّ منهما أنف مستوٍ حلو القنا ، فَصَل بين وجنتين ناضرتين كأنما جالت فيهما الشمس النّقا ووضاءة ، وقد استدارتا منحدرتين ليصل بينهما الفم بشفتيه الناعمتين والشارب الحليق وكان فيماسبق كثيفاً طريراً .

وعلى الجملة فأنت من صورة صاحبنا في وجهه تلقاء معارف صدقت في شتى المعاني الا في معنى واحد ، هو انها تتكذّب على الناظر بما سلخ صاحبهامن سنين ، فتظهره في الأربعين أو الخمسين وقد نيّف على السبعين .

أضف الى ما تقدّم حسن الأناقة في الملبس تشفّ عن الذوق الرفيع والترّف الأصيل ، وتطفّ لتكون مثال الرجولة في النعومة، أو نعومة الأنوثة في الفحولة . وهي أبداً الى تزايد في الجهر مع تزايد العمر كأنها تأبى الا أن تُظهر من تلبّسته جميلاً دائماً أبداً ، اِن في دخيلته أو علانيته .

وتلك الوردة التي نيطت بصدره تستمع الى نبضات قلبه ، ساكنةً اليه أهنأ ما تكون، بل أنعمَ وأودعمنها فيصدر أمها الطبيعة، كيما تريق من فتنتها على من استقلّها وتروق هي أيضاً زيادة في الرواء والتنضّر — لهي في توسّمها كالوسام من الطبيعة الوفية الى من تخوّنه الوفاء كثيراً من الطبيعة الانسانية حوله ، وانها بزهوها لتخيّل للناظر أنها أنما تزغرد تيهاً واعجاباً في عرس من مزايا الصدر الذي تربّعت على عرشه ، وتبسم هانئة بروح من صاحبها كما تبسم روحه هو بمثل ألوانها وتموّجها ، ما يعتريها أي ذبول أو نحول ما دام لها مما حولها ما يبعث فيها نسغ الحياة مستديماً لاينفد .

كذلك ارى الى البارودي في سمته الضاحي ، وكذلك أترجمه في معانيه من ورائها. واضيف لأقول اذا كانالابتسام وروحالابتسام خاصتّه في طلعة وجهه فان الدّعابة اجلى مزاياه في خلائقه جميعاً،

وهي تزيد عنده على الأيام في تعاقبها كالخمرة تعذب سائغة ما طال تعتيقها ، وانه لا يستتيب الجدّ أو يستغفره في مجونها واعابيثها ، ومهاترها ومنادرها ، لانها تتجاذبه على مرغمة في كل قول حتى في المواقف التي تستوجب الرصانة . وان من الناس من يتكلّف تكلفا للهزل والمجانة كالعجوز المتصابية في روغ الجمال المجتلب المصنوع لايعقبها غير القبح المضاعف، أما البارودي فدعابته كأنها حاسّة سادسة لا أثر فيها للتعمّل ، ولا يسوقها أو ينساق بها الا عن طبع لا تطبّع، وعن طواعية لا أثارة فيها من تصنّع فترد حلوة سائغة مفتنَّة في التفكه ، بارعة في النكتة وآية في الفطنة .

واني لأظلم البارودي والله ان أنا لم أسارع الى بسط القول في مزية مزاياه ، وأعني « وطنيته » التي سار بذكرها الركبان ، وشاعت لدى الخاص والعام ، ولم يؤاخذ فيها بتهمة في يوم من الايام ، بل قد رفع منها بعضهم الى الذروة السامقة بين الوطنيات المعهودة ليومنا .

وفي الحق أنه عاش آية في اخلاصه وتجرّده اذ وصل بوطنه حياته منذ نعومة أظفاره ، فكان لا يشقى الا بشقائه ولا يسعد الا بسعادته ، بل لا يلذّ مثل التضحية في سبيل رفعته . ولطالما رفع الصوت مدوّياً والألسن خرس، وشهر السلاح ماضياً يفادي بالنفس ، وثار على المستعمر الغاشم عدواً ألدّ عدوّ يؤلب عليه الرأي العام ، ويصليه نيران النقمة والانتقام ... ومَن منا لا يذكر اضراب سورية عام ١٩٣٦ ستين يوماً بلياليها العابسات من أجله يوم اعتقاله حتى اضطرت الحكومة المنتدبة الى اخلاء سبيله ، فاذا الأمة بقضّها وقضيضها تخف لاستقباله ، واذا الساحات والشوارع والمشارف كتلات متراصة كأنها الجبال تميد بمن فيها لتحييه تحية المليك آب من ساح الوغى متوّج الهام بأكاليل الظفر . ولقد شهد تاريخ دمشق الطويل أياماً محجّلة ، فما عرف مثل يومه ذاك شاهداً على الوفاء، وعلى اجتماع الكلمة ، وعلى الفرحة تملأ القلوب والأفئدة .

والباروديّ من بعدُ كريم معوان ، ما عرفت أياديه الا بسط

الراح والبنان ، حتى ليسبق عنده البذلَ السؤال ، ويحظى قاصده بما يُريغ ويلتمس، ما يخيب. ومن فضله في الكرم والنبل أنه لايتبعه منـاً من الفضل ، وانما يرسله واجباً من أريحيته وكـرم نفسيته مشفوعاً بالكرامة لنائله .

وما قولك بمن يترك له والـده ، وهو من أكابر وجهاء دمشق ، ما يكاد لا يقع عليه عدٌ أو حدٌ من المال والمقتنيات والمستملكات ، ثم اذا هو لا يبقي على شيء منها ، ويستنفدها مرتخصة خالصة لوجـه أمته وبلاده ؛ ثم ما قولك برفاق له في الجهاد لم يرفقوا بضمائرهم ولم يرعوا حقَّ أمتهم ، فجعلوها معركة لاهبة في ظاهرها رحمة من التفدية والنضال ، ولكنها في الباطن سوأة من الوراط والاستثمار ؛ بل ما أنت قائل اذ تستعرض الأكثرين ممن اشتهروا بوطنيتهم فما تجد بينهم من لم يخل من تهمة ووصمة ، فان عرضت لمترجمنا لـم يواتك القول الا نزيهاً بريئاً في نزاهته وبراءته ، ثم تجرُّده من أي مأخذ في جهاده وتضحيته ؟.. أما ان البارودي لسوف يفارق دنياه الفانيـة ككل حيٍّ ، وسيخبو نوره في جلّى ظـاهره وخبيئتـه ، وسيختلف القول في حقيقته ؛ ولكن الشيء الذي لن يفارق اسمه ، والنور الذي يلبث مجلّلا رسمه ، والقول الذي لا يتورَّده باطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو أنه عاش ومات وطنيَّ المنازع في تفكيره وعمله وقوله .

والى هذا الكرم والوطنية نجد النشاط والأحوذية.. نجد العزيمة الحذَّاء المهزوزة مستوفزةً أبداً كوقد اللظى أو أشدَّ اضطراماً ، ما عرفت للهون يوماً أيَّ معنىً ، تبعد وتبعد في المرمى الجليل حتى الى ما يخيل أنه في مرتبة المستحيل، وتتقدم على المصاعب متهزئة بالعراقيل ، حتى اذا ما عرض لها ما يردُّها أو يقف بها موقف التردُّد ، جـازت أمضى حماساً وأشد صريمة منها عن ذي قبل ، كأنما ثمة موارد تمتح من معين لاينضب، كلما استُنزف زاد فيضاً . وما مشروع «الفرنك» الا واحداً من عشرات توفَّر عليها على قلة المساعد وكثرة المثبِّط . لقد ساهم في كل حركة وكل مشروع ، فكان الحركة الدائبة ،

بل قطب الرحى، لا يسأم أو يتبرم ، ويضحي بالوقت والمال ، محتملاً التبعات ، متخطياً العقبات ، وغايته التي لا غاية سواها أن ينهض ببلاده ليحقق لها مثل تقدمها القديم ، وليؤتي قومه النجح ، فيجاروا مَن شآهم وغلب عليهم . فكان بذلك والله أمة وحده ، وكان النجم الثاقب في سماء بلاده .

هذا ولقد تصبَّاه حبُّ الفن بجماله ، وكذا الجمال بفتنته ، إن في الأدب أو الموسيقى أو الغناء أو الطبيعة ، فخصَّه بشطر كبير من سويدائه ، وتكلَّف له بما لا يعلم الا الله مبلغ عنائه ، الى أن خلص منه بآثار مأثورة تشهد له الى جانب الجدّ والدأب بالذوق والغيرة .

واذا كانت ميول المرء في بديئته قلما تعرف بحقها لما يساورها من غموض وابهام ، وتحيُّف مع الأيام ، فان هذه الميول لا تصدق مثل ما تصدق في أعجاز العمر بعد التأدّي الى الكهولة والشيخوخة، فثمة تستبين جلية نيِّرة مترجمة عن روح صاحبها في منازعه وأهوائه . ومن يزر البارودي ليومه في كهولته يجده منصرفاً بجماع همته الى مكتبته ، كاتباً منقباً ، وباحثاً مؤلفاً . وذاك دليل أكبر دليل على نزعته الفنية ، وهوى الفن والجمال العميق في حسِّه ، ثم الشذوذ في بعض مزاجه يرى غريباً ، وما هو كذلك لأنه من ملابسات الطبيعة الفنية .

ومما يترجم بعض مناحي نفسيته، ويجلّي صورته في دخيلته، ويتعلّل لكثير من مآتيه ، أنه عرف كيف يستدرك حرمان الطبيعة اياه من النسل ، فصرف هذا الذي كان يتجشمه في تربية البنين والتكلّف للأسرة ، الى أمته متفرغاً لها ، مستفرغاً تفكيره وجهده من أجلها ، باذلاً من ذاته ما يبذله الأب البرُّ بأولاده ، متطلعاً أبداً الى مدّها بما سوف تمدُّه هي من طيب الأحدوثة كما يمتد ذكر الآباء بالأبناء .

وهكذا يبين لنا ناموس الطبيعة في إعجازها ، كيف أنها لا تحرم من جهة الا هيَّأت ما يتكافأ وحرمانها من جهة أخرى ، فلا يضارّ بها

الانسان اذا ما عرف كيف يتدبّر على نحوها في زكانتها ، فيحرص على استجماع المناقب ، ويحرك الخطا في الطريق اللاحب ، ويغلّب الحسنى في استشراف المطالب والمنى ؛ والا آل الحرمان عنده الى نقائص من النقص بديلاً من أن يستوي نقصه الى زيادة تغلب على كل نقص . وما أرحم الطبيعة وأبرعها في هذا المعنى ومعظم الموهوبين والعباقرة المجلّين انما ابتنوا مجدهم ومنبهتهم على ما كان يعتد في ظاهره شراً وبلاءً بينا هو في حقه خير أعظم خير في بناء حياتهم ، اذ كان السر في تفوقهم وامتيازهم ، لولاه ما بزّوا السوّي ولا أوتوا الخلود في الوجود .

فان سألت من بعد ما عسى أن يكون نتاج البارودي في دنيا الأدب والفن ، فاعلم أن له من الأناشيد الوطنية والاجتماعية ما يؤلف ديواناً ، وكثير منها عم وشاع في شتى الاصقاع ، ثم له كتيب في مأساة دمشق من أبرع ما كتب فيها ، ثم كتاب في المنتخبات ، ثم مجموعات قيمة في الفن الموسيقي ، وآخر ما صدر عنه ديواناه : قلب يتكلم ، وتاريخ يتكلم . وقد تميز في كتاباته بخفة الظل ، وتوقد الذهن، ودقة الحس، وطرافة الاسلوب، وبخاصة ما كان في النقد . . ومن عادته اذا ما اعترضه سيبويه في بعض طريقه لم يلق اليه بالاً واستجهل عليه ميلاً وانعدالاً . وهو ، كما أشهد ، ممن يرحمون الطباعين بكتاباتهم فما يرسلها اليهم الا مرقومة على الآلة الكاتبة تسهيلاً للنظر ، وتيسيراً للعمل .

أما علاقتي به فقد لبثت علاقة ودّ عن بعد ، الى أن تهيأ لي طبع بعض تآليفه ، ثم ابتياع داره المعروفة بدار الأمة في القنوات، فلقيت منه ما حقّق الخبر الخبَر ، كرماً لايجارى ، ودعابة لاتبارى ، وظرفاً مستحصداً قلّما عرفت له شبهاً ، هذا الى مياسرة هي دليل غنى النفس ورهافة الحس . ولقد خالطته مخالطة جوار سبعة أشهر كاملات ، وليس يعرف المرء بكامن أسراره في مثل جواره ، فما زادني ذلك الا استوثاقاً برجحان فضله ، وأصالة نبله،

ونزعته الى فرح الحياة في ميوله ، واستمازته بالوفـاء يوفي بـه على الغاية .

ألا ان البارودي في حقل العروبة لهو الدوحة الحيـة التي آتت أكلها ثماراً جنيَّة شهية ، وامتدت بظلالها من حولها وارفة رخيَّة . وجازت بها الأعاصير راعدة مدوية ، فاجتازتها غير متأوِّدة بعودها ، أو منقطعة بجودها . وقد تمادى قطافها ولم تتبدَّل أوصافها ، بل لبثت هي هي كأنَّما ترفّها رويحات من الجنان . وعندي أن التاريخ العربي سيذكر حياة البارودي في خلائقهـا المتنوعة ، ولكنه سوف يقف وقفته الطُّولى تلقاء حسنتهـا الكبرى : في الأمانة الوفيـة ، والوفاء الوطني ، والوطنية المجرَّدة الخالصة .



ماري عجمي

ثلاثة دراريّ متألقات كأنما انبثقن من وراء حدود السموات لينرن الغبراء فأرسلن غمْراً من اِشراقهن وزينة سحرهن في أرجاء الشرق العربي : احداهن على شواطىء النيل ، وهي « ماري زيادة »، والثانية « ماري ينّي » في ظلال الأرز ، والثالثة « ماري عجمي » مترجمتنا في هذا الفصل ، على ضفاف بردى وسفوح قاسيون . وقد نزلت منهن الأسماء على سواء ووفاق ليكنّ ثلاث « ماريات » في مثل الأزاهير المتأرجات اذا اختلفت فيهن الألوان ، واختلف المكان ، لم يختلف شذاهنّ الفوّاح وجمالهن الوضّاح .

ومارِيّتُنا هي أديبة الشام في الحركة الفكرية، وأسبق السوريات حفلاً بالنهضة النسوية ، وأخت الرجال في المطامح القصية .

عرفتها يوم جازت سنّ النّصف مشرفةً على الخمسين ، قصيرة متدانية الخلق ، ريّانة ممتلئة البدن ، سمراء كأنما طال لثم الشمس اِياها ، فتركت فيها حرقة جواها ، يتميّز محياها بالعينين كحلهما السواد بمثل المداد ، وبالحاجبين زجّ ما بينهما ، وبالفم المترامي ، والأنف المستوي . وبالأجمال ليس فيها من ظاهر الجمال وفتنته ما يجد فيه مثل « رافائيل » آي طلبته .

والمعروف عن الطبيعة انها لاتأخذ من جهة الا لتعطي من جهة . واذا كانت مترجمتنا لم تنعم بالجمال الصّوري فقد نعمت بالحظ الأوفى من الجمال الروحيّ والفكري . وشتان شتان بين الجمالين في الخطر ، يبهر احدهما النظر ليمّحي على الأثر ، ويخلد الآخر على

الزمن لاتزيده الأيام الا اشراقاً وائتلاقاً ، وينحصر الأول متعة شخص أو أشخاص بأعيانهم ، بينا يتسع الثاني ليكون ملكاً للانسانية جمعاء.

وهبت أديبتنا الى القلم أيقظ أوقاتها من حياتها لتعيش كالوردة النائية في الأعالي تنسم بشذاها وليس ليد أن تنالها ، وكالنجمة المتوقدة لاتتصل بغيرها الا بنورها ، بل كانت في الحق كالراهبة في محرابها ، منقطعة لعبادتها ، ولكنها وسعت الجميع بحبها . والى هذا الشذوذ مردُّ كثير من خلائقها وأطوارها .

عرفتها في خصائصها نجيبة ، أبيَّة ، مجدَّة ، آيةً في الذكاء والترفع والعزيمة .

وعرفتها في أحاسيسها غنية ، وفي مزاجها عصبيَّة ، وفي مطامحها قصيَّة .

ثم عرفتها في الوطنية شديدة الحمية ، صعبة القياد ، صادقة البأس ، مشيَّعة الفؤاد .

وهي الى هذا أخت الرجال في صولة النضال ، وشدِّ الرحال الى الأسفار ، واحتمال النوازل والأخطار ، حتى كأنها المعنيَّة بقول المتنبي حينما قال :

ولو كان النساء كمن وصفنا   لفُضِّلت النساء على الرجال

وما إن يُذكر اسم مترجمتنا المعروف حتى يقترن للحال باسم مجلتها « العروس » ، وهي التي صاحبتها عشر سنوات من العمر ، أودعتها عصارتها من الشعور والفكر ، وخلاصة مطالعاتها ومراجعاتها في الأدبين العربي والانكليزي ، فكانت وحيدة عملها ، جبَّارة فيما استقلَّت من روازح حملها ، فهي المترجمة والمحررة ، والمصحِّحة والمقرِّرة ، والمديرة والمدبِّرة ، انها كل شيء في « عروسها » كأنها « العروس » في استجماع الأبصار اليها .

وليس يغيب عني الآن ، على بعد ما ترامى من الزمان ، كيف كانت تستقلُّ الينا موادُّ مجلَّتها مرقومةً على قصاصات طويلة من

كلماته وأسطاره حتى لتحتل الكلمة الواحـدة محلـّها من ثـلاث ، وتتوارد الأسطر المتعددة لتملأ السطر الفرد من المطبوع ، وليست تخلو صفحة من تحوير وتثوير ، أو طرس وطلس ، وربما تـلوّت السطور ليبدأ أولها موكداً ، ثم يعوجّ متأوّداً ، الى ان ينتهي متصاعداً . هذا الى أنها كانت تؤثر في طبع مجلتها الحرف الدقيق ، ولاترضى بغير التضييق في التنضيد والتنسيق ، لتخرج الصفحات غنية بالمادة ، وافية الفائدة .

عُنيت بحياة المرأة ، وبخاصة في الشرق ، فأرسلت قلمها في بحوث بنات حواء ، وضعاً ونقلاً وترجمـة ، تستجلي الحقـائق ، وتستقصي الدقائق ، مستنهضة العزائم والهمم لاقتفاء آثار مـن نجح وتقدم من الأمم ، داعية الى الخروج من ليل الجمود البهيم بعد اذ انشق عن فجر الوعي المبين ، وما أكثر ما استقطرت المداد صادحة أو نائحة في هذا السبيل ، لايلذها مثل أن ترى أختها الشرقية آخذة بأسباب الرقي والفلاح ، ويسخطها كل السخط أن تتسكع في دياجير التعسّف والاستعباد ، وكانت تصدق حملاتها حيثما لاحت التقاليد الكاذبة ، ولا ترضى بغير ما يرضي الضمير والفضيلة من التطورات الدخيلة ، حتى اذا عوى من حولها الجامدون الناقمون أو تمحّـل المتحذلقون الواهمون عرفت كيف تلقمهم الحجارة من حججها الدامغة وآرائها النيّرة .

وصورة المترجمة لاتستوي مبينة بأثرها ، حالية بخطرها ، ولا توفّى حقّها من جلالها في خلالها ، الا اذا تدبّرناها في ثلاث : أولاً كمثقّفة راقية سبقت زمنها ، وتأدّى لها الاتصال بالأسر الكريمة حيث كانت تبث أفكار التطور والتحرر ، وتجلو عن الأفهام صدأ الأوهام ، فكان لها فضلها المجيد الحميد ، ثم كمعلّمة مربّيـة وقفت شطراً كبيراً من أوقاتها على التدريس ، فأسدت الى الناشئات أمهات الغد أجمل العوارف وأجزلها ، اذ فتحت في أذهانهن مثل المنافذ الوسيعة يطللن منها على الحياة الكريمة ، واستوقدت عزائمهن الى التشبّه بمن حفل التاريخ بذكرهن وطيب الثناء عليهن ، ثم كأديبة شاعرة

وكاتبة جاهدت ناهـدة مستبسلة الى أقصى الحدود في الاصـلاح الاجتماعي والرقي الفكري والأدبي ، في زمن مكفهر مدلهمّ بالجهالة الوخيمة والعصبية الذميمة وبالحكم لايعرف غير الظلم ، فليس لبنت حواء غير بيتها يطبق عليها كالقبر ، وليس لها أن تتعلّم لأن تعليمهـا هو الجناية بمثابة الكفر ، وهو المزلة الى مصارع البغي والعهر .

ولنضف الى ما تقدّم أن مترجمتنا عاشت عصامية ، لم يمنعها ضيق ذات اليد من اطّلاب المجد ، ولا تمطّي ليل الجهل من قبس أنوار الثقافة ، ولا فقدان النصير من ان يكون لها من عزيمتها وبصيرتها خير معين ، ولا اختلاج الدهر من أن تغلب عليه بالصبر . وما زالت حتى ملكت من عبقريتها ما جعلها غنية بروحها ، غنية بعلمها وأدبها ، غنية بالمحمدة من شهرتها ، والميزة بخلائقها ، تباركها العصامية مثالاً بين ربّات الجمال يعزّ منها المثال .

والمؤلم المؤلم أن مجلتها لم تلبث ان حمّ بها القضاء ، وكتب عليها الدثور بعد عشر سنوات من النشور ، لقلّة النصير والظهير ، وعدم المكسبة رغم المتعبة ، وفشل الأمل بعد طول العمـل . واذكر أني سألتها عما اذا كانت ستستأنف عملها عـوداً على بدء ، فكان دبيب اليأس ماثلاً في كل كلمة من رجع جوابها حيث قالت : «وهل لمن يستقلّ جبلاً ثم يتحلّل منه أن يعود فيحمله ؟ » . فهي اذن قد آدها الجهد، واستروحت الخير اذ نفضت منه اليد ، ولا سبيل الى مثله من بعد . وهي اذن قد تدسّس اليها اليـأس كما يتدسّس الى الشجرة داءُ اليبس ليحيلها بعد نضرتها الحية حطباً وحطاماً . ولقد حاولتْ من بعدُ أن تخفق بجناحيها من جديد ، فأصابها الإخفاق الذي يصيب الطائر المهيض نَسَلَ ريشه وانشلّت حركته وتلبّسه الموت حياً .

وليس والله أثقل على القلب ولا أدعى للأسى والكرب من العبقرية بامتيازها واعجازها يتحيفها الزمن ويبلوها بالمحن ، لتؤول كالزهرة عصفت بها الريح الجائرة ، فانطوت على نفسها ذاوية وارتمت لُقىً على الأرض هاوية ، اجمل ما تكون متوهجة متأرّجة .

وما كانت مترجمتنا الا الوردة في جنان الأدب ، لها اختيالها من جمالها ، وفتنتها من فنها ، ومزيتها في عبقريتها ، ولكنها لم تجد بليلَها من الطلّ الغنيم ، وحرارتها من النور العميم ، ورفيفها من مداعبات النسيم .

فما لبثت أن تحوّل عندها اليأس الى مثل المسّ يخالطها ويختبلها حتى خرجت به عن ذاتها ، فما تنتفع بها ، وانحطت بنبوغها من جنون فوق الطاقة يخرق العادة الى النبوغ تلبّسه التخبيل وامتلخ فيه العقل ، فكانت وسميّتها ماري زيادة بمصر كأنهما على مشرعة مرسومة الى النهاية المحتومة من شذوذ العقل نابهاً بعبقريته ، ثم شذوذه شائهاً كأنما فقد نسغه من عصارته .

وان اتصالي الطويل بالمترجمة ليمدّ في حديثي عنها مستطيلاً ، ولكنني أجتزىء بما يغني القليل منه عن الافاضة والتطويل .

كانت معجبة بالملك فيصل الأول أيّما اعجاب ، متعصّبة لحكمه توطّد له الأطناب ، موالية لسياسته توليه النصر بقلمها وخطبها ، قادرة لفضله تشيد بجهوده التي يبذلها ، وترى فيه العاهل المنقذ اجتمعت اليه أسباب القيادة العربية ، فما تحسن الاّ له ولا يحسن الاّ لها .

وكانت معجبة كذلك بالشهيدين بتروباولي وجورج حداد . وأديب المهجر الأكبر جبران خليل جبران ، فنوّهت بفضلهم فضل تنويه ، وفصّلت من مآتيهم ومحامدهم ما استوعب الفصول الطوال من مجلتها ، ورفعت من ذكرهم امثلة نادرة بين الرجال ، بيد ان اعجابها بالأديب أحمد شاكر الكرمي قد أوفى على غيره حتى لقد استحال الى حب وايثار ، وليس أدل على ذلك من قصيدتها الرائعة في مرثيته اثر منيّته ، وقد أودعتها من لواعج حبها الشديد ما لازيادة وراءه لمستزيد ، ولم يكن هو بها اقل هياماً وكلفاً ، اذ كان يكثر من الاختلاف اليها في دارها ، ويصحبها في تنقلاتها وبعض اسفارها ، ويعينها على مرادها في مضطرباتها ، ولا يرضى الحديث عنها الا بما يرضيها

ولو أدّى ذلك الى القطيعة بينه وبين أعز الناس عليه . ومن ذلك ما وقع له حين زارها برفقة أحد الشعراء ، فلما صدرا عنها قال الشاعر : اني ليدهشني في الحق كيف تسكن مثل روحها الجميلة الساحرة معنىً الى مبنى هو نقيضها . فكانت هذه الكلمة كافية للقطيعة الدائمة بينهما .

وإن أنس لا أنس شدّة عطفها عليّ وحسن تلطفها بي وجميل نصائحها اليّ ، اذ كانت تزورنا في المطبعة كل يوم لعدة ساعات تقضيها في الاشراف على مجلتها . ولقد أسرّت اليّ ذات مرة وفي عينيها بريق السرور بأنها تقدر فيّ جميل الخلال ، على خلاف بقية العمال ، ولو كانت من ذوات اليسار ، لأرسلت بي الى معاهد العلم أتزوّد فيها بما يزيدني تحصيلاً واقتباساً . وما أكثر ما أخذت عليّ اهمال صحتي ونحافتي وضروعي . ثم ما أكثر ما استزارتني لتوقّع على مسمعي ما استجدّ من نظمها ومطالعاتها ، ولتكشف لي من ألمها في حياتها وحياتها في ألمها ما نتوافى به على مشرعة واحدة من السعي والمجاهدة في تربة قاحلة لا يُستنبت فيها زرع ، أو يُستحلب ضرع .

وكان يُغضبها من طالباتها انصرافهنّ الى التقليد فيما لا يفيد ، تبرّجاً يتجاوز الحدّ ، ولهواً ينقلب في معناه الى الضد ، وانقطاعاً الى صراخ الرغبة ونداء الجسد يقطع عليهن الطريق الى اجتناء ثمرات العلم والثقافة .

ولما حظيت دمشق بزيارة ميّ نابغة الأدب ، وأكرمها النادي الأدبي الارثوذكسي ، وعقد لها الخطباء تيجاناً من القدر على عروش من الثناء والحمد ، كانت مترجمتنا في خطبتها كالشمس كسفت ما حولها ، وكشفت عن تفوقها عمقاً في التفكير ، ودقة في الملاحظة ، وسعة في الاطلاع .

ولقد انبأتني بأنها رحلت الى أرض النيل قبيل الحرب العالمية الاولى حيث عملت في صحافتها ، وبخاصة مجلة « اللطائف المصوّرة » ، وهي المجلة الوحيدة التي كانت لعهدها تطبع بطريقة الروتوغراف .

وانتسبت الى جمعية الرابطة الأدبية بدمشق ، ولما أصدرت هذه مجلتها خصَّت بلجنة النقــد ، فكانت المراة الوحيــدة بين الاعضاء الرجــال .

وروت لي احدى شقيقاتها أن جملة من مؤلفاتها في الأدب العربي، ومترجماتها عن الأدب الانكليزي ، قد عبث به بعض الجيران خلَل غيبتها في لبنان ، وان ما استنقذته مــن بقية آثارها وكتبها قــد أودعته مكتبة الكنيسة المريمية بدمشق .

وبالاجمال لقد كانت الآنسة عجمي احدى الأديبات النابغــات على ندورة في عصرنا وديارنا . ولولا ما تحيَّفها إبان نضجها ممــا أقعدها حِلْس دارها فقعد بها عن توفية رسالتها ، اذن لكانت في سموِّها الأدبي لايشقُّ لها غبار ، ولحفظ لها تاريــخ الأدب العربي أجمل الأثر في أجــلّ الآثار ، ولكنــه القدر ما أقســاه إذ يعصف بالعبقريات فيجني عليها بما لا تغتفره الطبيعة الانسانية وان اغتفرته الحياة بحكمتها الأبدية .

لهفي عليها وقد استأثر الأدب بقلبها وحبها ، واستنزف أيقظ أوقاتها من شبابها ، وكأني به لم يجزئه منها ذلك كله حتى غلب عليها، فاستلب عقلها كما تستلب الجوهرة أثمن ما تكون عنــد صاحبها ؛ فاذا هي من بعد لاتنتفع بنفسها من أدبها ، واذا هو نفسه لاينتفــع بحبها. وتلك هي أبعد المراتب في الحب ، بل أقسى وأشقى ماتبتلى به العبقرية في جنون من ابتلي بها .

ويا لهفي عليها ما زالت بفكرهــا حتى تشبَّع فشعَّ متوهجاً ، ثم راحت تنشر على ما حولها من ذوبه مثل ما تنشر الشمس مــن مستطير اشراقها ، وكان مبكراً في انبعاثه ، قويَّ البهر في ائتلاقه وسطوعه ، فخمد خمود الجمرة طال توقدها وآن خمودها ، فخسرت حياتها قبل أن تخسرها الحياة ، وخسر بها الأدب نجماً كان نبعاً من النور فآل نبعاً ولكن من الذكريات القاتمة الشجية .

ماري زيادة

هي « ماري زيادة » في حقيقة اسمها ، أو « ميّ » كما هي في مُشتَهَر تسميتها .

عرفتُها يوم أن زارت دمشق عام ١٩٢٤ فحفلت بها عاصمة الأمويين كنابغة في عالم الفكر والأدب طالما انتشت بعبير أفكارها وترنّحت بعبقريتها في آثارها ، فشاقها أن تراها بين أظهرها حتى اذا سمح بذلك القدر راحت توليها واجب القدر من حقّها ، ممعنةً في تكريمها وصوْغ آيات المديح في تعظيمها(١) .

عرفتُها يومذاك مثال اللطف والرقة في قوامها المعتدل وجسمها الرشيق الناحل ثم في معانيها من مجمل كيانها وهو الجميل بمعاني النشاط اهتزازاً وأريحية .

ثم عرفتُها من بعدُ في أحاديثها من حياتها الفكرية والأحاديث عن حياتها في متبوإ أخلاقها ، عفيفة النفس ، رهيفة الحسّ ، متميزة الذكاء ، عزيزة الإباء ، حتى كأن في مظهرها ومخبرها مثل الكهربائية تضيء بكل محبّب ، ومثل المغنطيسية قويّة المجتَذَب . بل لكأنها وهي اللبنانية في محتدها ، والمصرية في مولدها ، قد استجمعت اليها رقة الخلائق من نسيم الأرز ، وعذوبة المنطق من وسوسة النيل ، فاستوى لها من ههنا وهنالك ، وممّا خصّها الله

---

(١) زارت « مي » سورية ولبنان وحفلت بها الاوساط الادبية والنسائية ، وفاضت القرائح نثرا وشعرا تنويها بفضلها ونبوغها ، ثم جمعت مجلة «المراة الجديدة» جميع ما قيل في كتاب اخرجته في ١٤٨ صفحة .

من ميزات ما يستوي للزهرة من معانٍ هي فوق معناها من روعة مظهرها وعبق عطرها وصفاء طهرها .

ومن الكمال فيها أن ما زانها من جمال الخَلق والخلق قد زانه كذلك جمالٌ أسمى وأدق ، هو جمال الفكر ، كالنور يقع على النور، فاذا هو كسبيكة الذهب يقع عليها من الشمس نورٌ بحياله فينبثق متحولاً ألواناً عدةً لا منتهى لها من الأسر والسحر .

فلقد نبغت في رياض الأدب العربي غصناً رطب العود لم يلبث أن أوتي من نسغ الحياة ما ضاعف فيه الحياة حتى استوفى منها الغاية ، واستماز على ما حوله بسوقاً واينا عاً . أو قل انها سطعت كالشمس في رأد الضحى بعد ليل طويل مرير من الجهل أطبق على بنات جنسها في الشرق ، فما نعمن ولو ببصيص من نور العلم ، ولا تخرّج منهنّ من عُرف بالخروج على الجمود السائد المستبد .

وأنت تصيب كبد الصواب في عرفانها وتعريفها حين تزعم صادقاً مع الاستاذ العقاد بأن مترجمتنا قد تميَّزت بالفؤاد الذكي والفكر المهذب والشعور اللطيف والاطلاع على آداب الغرب والعلم بسنة الحياة . وانها لخصائص واضحة المعالم بيّنة الأثر في جميع ما استخفى من آرائها وما ظهر ، تنمّ عنها كما ينم الأريج الزكي عن زهره وان بَعُد ما بينه وبين مصدره ، أديبةٌ مطبوعة موهوبة تصدر في كتاباتها عن سجية وطبع لا أثر فيهما للترسّم والتكلّف، فيتعرّفها قراؤها بسيماها بين جمهرة الكتاب جهيرة بمعانيها في أسلوبها الخاص ، واسلوبها من خاص معانيها . وذاك لعمري هو التفرّد في الأدب إن لم نقل الأدب في براعته وابداعه .

أجل وكما انها تفوّقت ببلاغة التعبير ليتسامى عندها بمعناه البعيد ثم لا يكون الا القريب القريب الى الذهن جلاءً في التفسير ، لقد تفوقت كذلك بالسلاسة في الأسلوب حتى لكأنه الجدول صفت صفحته ، واتّسقت نغمته ، ولمعت حصباؤه كما رق وراق ماؤه ، فاتفق ما بينه وبين القارىء على ما يشده الناظر ويبهر الخاطر ؛

ثم بالعطف الرؤوم في الرأي ـ مهما عنف أو تعسّف ، لا يصدر الا عن رفق ورجاحة هو عين الأنس والسماحة ليمثل الأنوثة الوديعة في أرقى معانيها . هذا الى ثقافة راقية هي خلاصة من روح الفرنسية والانكليزية والألمانية التي أجادتها ؛ ومن ثمّ شأت الكثيرين من الكتاب بعلمها الواسع وأسلوبها الجذاب ، وحظيت بالنصيب الأوفى من المحمدة والشهرة ، بل احتلت منزلتها المرموقة في النهضتين الأدبية والنسائية .

هكذا تأدّى لها أن تنشىء الفصول الفيّاضة باللوامع من الفكر الوضيء والعاطفة الجيّاشة في أرقى المجلات كالهلال والمقتطف والمحروسة والزهور ، كما صدرت عن تآليف جمّة : منها « ابتسامات ودموع » وقد ترجمته عن الألمانية ، وكان يحمل عنوان «الحب الألماني» ؛ ومنها « بين الجزر والمدّ » وهو من اخراج دار الهلال بمصر جعلته هدية الى قرائها عام ١٩٢٤ ؛ وتدور بحوثه على اللغة والآداب والفن والحضارة ؛ ومنها « ظلمات وأشعة » ، ثم «الصحائف» وهو مجموعة مقالات وخطب ... وكانت لها محاضراتها القيّمة في الجامعات والمنتديات سواء في مصر أو غيرها من البلدان العربية (١) ، وكانت مثار اعجاب المستمعين من علية القوم وكبار المفكرين بما استجمعت من أدب راق وعلم غزير ، تزينهما الفكاهة الحلوة والحديث العذب والصوت الحلو .

ومما اشتهر عن الآنسة ميّ منتداها الأدبي الاسبوعي على غرار المنتديات الفرنسية ، كمنتدى المركيزة « دورامبويه » في القرن السابع عشر ، ومنتدى السيدة « دالامبير » الشهير ، وكمنتدياتنا

---

(١) من محاضرات مترجمتنا محاضرة عن « فضل المرأة على الحضارة الانسانية » القتها في الجامعة الامريكية ، فانبرى لها الدكتور طه حسين طعناً واغتمازاً في صفحتين من الرسالة ، مشنعاً عليها رأيها في نصابه حتى لقد انكر أي فضل لابنة حواء ، جاعلا الحضارة بذاتها هي ذات الفضل على المرأة والرجل معاً ، فكان في نقده أحوج الى النقد ، وفي تصويبه ادل على الصواب في خطئه .

العربية قدماً أيام سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وولاّدة بنت المستكفي ، فكان في كل ثلاثاء يضمّ في حلقته مشاهير رجال الفكر كلطفي السيد وطه حسين والرافعي ومطران ، فيتجاذبون فيه أطراف المناقشات والمناظرات تتكشّف عن كوامن العبقريات، وتهيىء التجليات من الاشراق والابداع . وبحسب هذا المنتدى أثراً خيّراً أنه كان الباعث لمثل الكاتب المبدع مصطفى صادق الرافعي، وهوالذي هام بصاحبته هياماً يذكرنا بهيام ابن زيدون بولاّدة ، على استلهام كتبه الشهيرة « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » و « أوراق الورد » ، وانها لتعدّ في بابها فريدة ، وفي معانيها وأسلوبها من البِدع الجديد .

اتصلت ميّ بكل من لمع نجمه في سماء الأدب والثقافة ، وكانت في صلاتها على درجات متفاوتة من الودّ والعطف والقدر ؛ بيد أنها لم تبلغ في هذه الصلات مبلغها من خالص الحب الذي يستأثر بالقلب واللب ، مثل ما بلغت في ايثار الكاتبة الاجتماعية « ملك حفني » المعروفة بباحثة البادية اذ فتنت بها أيما افتتان بعد اذ وقفت على كتابها «النسائيات»، الذي استوقفها بمعانيه الرائعة وآرائه الحصيفة؛ فراحت تعقد بينها وبين مؤلفته مستوثق الصلات الى أن التقت بها ، فكانت لقيا المحبة لا تفثأ الشوق قرباً الا لتمعن فيه ما بين الجوانح أواراً ولهيباً . ثم ما زالتا متلازمتين روحاً في جسدين الى أن باعد بينهما فراق « الباحثة » فراقها الذي لا لقاء بعده ...

وثمة الصلة بجبران خليل جبران ، وما أدراك ما هي ؛ ثم ما أدراك مبلغها القصيّ من الكلَف والاستغراق . فقد هام أحدهما بالآخر على مرّ الأيام الى أن وافى اليوم الذي آلا فيه وحدة من الروح تلتمس جزأها الآخر على قرب قريب من الحسّ المشترك والشوق المتبادل ، وعلى بعد باعد من حوار النظر وجوار الجسد ، فكانت من الصلات الكريمة جاد بها الزمان حباً من روح الأدب وأدباً هو روح الحب ؛ ولكنه وقف عند خطوته الأخيرة من غايته متبخلاً متعسفاً ليحيله مأساة أعنف مأساة خلعت على معانيه الحلوة السائغة جواً من

الألم المؤئس والحسرة المريرة ليذهب مثلاً على الحب الذي يتعانق فيه الفكر والفكر ويعلق القلب بالقلب ، ثم لايزيده كر الأيام والعشيّ الا كما يزيد الخمرة المعتقة تكريراً من الروحانية المتعبّدة والعذرية النادرة . ولو تدبرنا هذا الحب في الناموس الطبيعي ، وهو الـذي يجمع أبداً ما ائتلف واتفق ، ويصل بين ما توحّد واتّحد ، لتكشّف لنا حباً شاذاً في طوره ، غريباً في مجتلاه من سرّه ، كأنما هو بعض ارادة القدر في تحكّمه ليكون له الحكم فوق ارادة الطبيعة وارادة الحياة . ولطالما رجوت في سرّي لو يتاح لمثل هذا الحبّ أن ينجلي للأنظار مخطوطاً على القرطاس بعد اذ خطته الروح من مراد القلب ، فينفرد في أدب الرسائل ذخـيرة يعزّ منها المثال وتخلد على مدى الأجيال .

والغريب الغريب في حياة ميّ أنها انتهت الى مثل ما انتهت اليه سميّتها « مارية سورية » اذ آلت أيامها الأخيرة حياةً هو الموت قبل أن تستوفي أنفاسها ، فاذا بالعبقرية تنطفىء فيها شعلتها التي طالما نوّرت الأدب والفكر ؛ واذا صوتها الساحر الباهر يخفت ، وكان في نغماته نعمى من الرحمة تتنزّل على القلوب الكسيرة فتحييها ، وعلى العقول الحائرة فتهديها ؛ واذا بالطائر الرفّاف يهوي من عـلٍ على نفسه مهيض الجناح ، والعهد به وثّاباً أبداً يـبعد في سياحاته الطويلة الى ما يتجاوز الحدود .

وياللشذوذ في العبقرية ما أشقّه وأشقاه وهو يمتدّ شذوذاً حتى في سرعة انطواء صفحته !.. انه ليحكي السراج الوهّاج لا يتّقد متضاعفاً ملء ذاته من ضيائه الا ليُمنى عن قرب بالانطفاء قبل حينه؛ وانه لكالوتر المشدود يفتأ يتلقى الضّربات متواترة حتى يتقطّع بأسبابه بين الأوتار من حوله ؛ بل هو في مثل الطائر يُمعن نائياً في أجـواز الفضاء بين معترك العواصف والأنواء ليعود متساقطاً على نفسه من شدة الاعياء !.

ويا للمأساة في العبقري لا يبكر بـه فجـر التفوق مشرقاً الا

ليدهمه ظلام الرَّدى مطبقاً على وشك ، مقصراً من أجله ، مطيحاً بعزيز أمله ، ذاهباً بوجوده أعزّ وأكرم ما يكون في الوجود .

وهل أدلّ على هذه المأساة من الرجعى الى العظماء والممتازين في نهاياتهم الأليمة ، فاذا هم في الأغلب أقصر الناس أعماراً وأسرعهم الى الفناء انحداراً ، كأن قدرهم لايحسب أيامهم بعددها بل باحتسابها هي في جلّى مآتيها ومنجزاتها حيث ترجح فيها الساعات على ما لا يقتاس بالسنين الطوال عند الآخرين .

ولا جرم أن مترجمتنا بافتقاد جوهر حياتها العقلية انما هي لم تنته الى مثل مصيرها الا بعد اذ تورَّدتها الفوادح من المصائب، ورماها اليأس بالخطب الذي لا يجدي فيه الطبّ ، فخانها جلدها ، وخذلها رشدها بحيث لم تعد تنتفع بنفسها . وما شك في أنها قاست في مثل هذا البلاء ما لا قبل بمثله لأقوى الأقوياء فضلاً عن مثلها في رهافة حسِّها ، ورفاهة عيشها ، وطول رهقها من تحصيلها وتفكيرها، فدخلت منه في جحيم لا يطاق ، وما زالت تقاوم وتصاول الى أن غلبت على أمرها ، فهوت من عرشها في برجها السامي أديبة بنبوغها الخارق ، الى المنفى الذي لم يجدِ فيه نبوغ الأطباء جميعاً في استرجاع ما فاتها واستخلاصها مما دهاها .

وأنت حين تتدبَّر العلّة التي تسبَّبت لعلتها تجد مثل الهوج في البحر لا يثور أذيه ويضطرب اضطرابه الا بفعل من الأنواء العاتية من حوله . فثمة عللٌ لا علة ، وقد تلاحقت متعاقبة مترابطة كحلقات أخذ بعضها برقاب بعض .

دع الحياة الأدبية في تجنّيها بأوصابها ولواغبها هدماً في كيان صاحبها ، واستباقاً لمنونه قبل حينه ، كأن فيه طبيعة النحل في اشتيار العسل ثم القضاء على الأثر ؛ ودع فجيعتها الكبرى بأمها عام ١٩٣٢ وبأبيها قبل قليل ، وكانا مفزعها الأمين المكين في كل ما ينتابها، وخير معوان على التفرغ لأدبها وتأدية رسالتها ، يحفانها من حَدبهما وحبهما بما يجعلها ترى الحياة من خلالهما حلوة سائغة، فلما انشطر

الدهر بينهما وبينها شعرت كأنها تحوّلت عن فردوس من النعيم المقيم الى صحراء موحشة يتلذّعها هجيرها ويتوزعها الخوف في كل ما تقع عليه العين ويرن في الأذن . ثم دع أملها في حب جبران وكيف مني بالحرمان ، فخلّف أثره البالغ في قلبها ولبها معاً . . دع هذه العوامل جميعاً ، وقف عند مَرَدها على الطبيعة في سنّتها من واجب الزواج وما أغبّ هذا المَرَد من شذوذ كان له عظيم الأثر في طباعها بل نظرتها الى الحياة والوجود ؛ وما هو باليسير على بنت حواء أن تحيا رهينة محبسها من العزوبة فتلك مصيبة المصائب عندها، اذ تلجُ بها طبيعة الأمومة دون أن تجد متنفساً فتعود مكبوتة يأكل بعضها بعضاً، وتثور ثائرتها في داخلها كالبركان الثائر يتفجّر بحممه متأززاً بضرامه . انها الأمومة تؤلف الجزء الأكبر من حياة المرأة حتى اذا افتقدتها عقماً أو نأياً عن الزواج، خسرت ما لا سبيل الى العوض منه ، وما يشعرها النقص في ذاتها والتعطّل في أهم خصائصها ، وما يتخوّلها بالهمّ الذي لا راحــة فيه أبداً .

كذا نتبيّن ما تورّد مترجمتنا فأوردها شقوتها التي عزّ منها الشفاء ، فحوّلت عبقريتها الخارقة كجنون في أرفع درجاته امتيازاً الى جنون من العبقرية هو اختلاط الموت بالحياة ، فما هو بالحياة ولا الموت بمعنى أحدهما من الآخر .

ماري ينّي

من الخوارق في الطبيعة والاعجاز في القدرة المبدعة أن الملأ كما أنهم الى تخالف في كثير من أحوالهم لكذلك هم يتشابهون في الهيئات والخلائق ونمطيّة الحياة . بيد أنهم وتلك خصيصتهم العامة تجدهم حين يتقاربون ينزل أحدهم منزلة الآخر على سواء ، وحين يتفارقون ربما ذهبوا الى غير التقاء كما يكون بين الأرض والسماء .

تلك حقيقة لا مراء فيها ، تستبين على حقها من الاستبانة عند تدبّر الناس في أخلاقهم وتجاليدهم وفي أقدارهم من مجمل حياتهم ، فاذا ثمّ من هم كأنما صُبّوا صبّاً في بوتقة بعينها ، أو شُقّوا شقّاً من نبعة واحدة ، ثم اذا هناك كذلك من يتخوّلهم الاختلاف ليباعد بينهم على رغم ما يأصرهم من تعاقد السبب وتقارب النسب ، وبرغم الوحدة في البيئة والتربية والثقافة .

وما كان لنا أن نوطىء بهذا النبذ من الاستهلال لولا أن مترجمتنا التي وقفنا عليها هذا المقال ، وهي مارية لبنان أو ماري ينّي ، الأديبة المعروفة ، وصاحبة مجلة « منيرفا » قد جرت على عرق واحد وسميّتيها مارية سورية «ماري عجمي» ، ومارية مصر «ماري زيادة» في جمّ من الاحوال جعلت منهنّ كالمثال الواحد في مجتلاه للعيان حتى اذا تخالفت فيه بعض الخطوط والألوان كان التخالف عبارة عن قلّة تربي عليها الكثرة حتى ما تكاد تبين ولا تكون شيئاً مذكوراً .

فقد اتّفقن أول ما اتّفقن في المسمّى كأنما القدر ببصيرته النفّاذة قد استشفّ الغيب من وراء الحجب البعيدة وما عسى أن

يتورّد حياتهن من التشابه والمضارعة ، فلم يشأ الا ان يمدّ كذلك في وحدتهنّ مستقصياً حتى في أسمائهن ، أو هو لم يتخيَّر لهن الاسم على سواء من مبناه الا ليجعل فصول حياتهنّ المتوافقة في المعنى لاتندّ أيضاً في عنوانها المتوافق .

واتّفقن كذلك في غاية الجهاد ، وأسلوب الجهاد الى الغاية . فكنّ المجلّيات في حمل الراية كرائدات نابهات في حلبة التجديد ، راشدات مرشدات في ترقية الحياة الاجتماعية ، والنهوض بالمرأة العربية ، والثورة على التقاليد الملتوية ، مما أعقبهنّ فيض الشهرة والمحمدة ، ورفعهنّ تاريخاً لعصر أمتهنّ ، وعصراً من تاريخها .

ثم اتّفقن تفرداً على جُمعة ، وجُمعةً من تفرُّد ، اذ كانت كلٌّ منهن سفيرةً للرسالة المشتركة الواحدة ، تؤديها في قومها وربعها ، ممكّنةً لها بشتى الاسباب ، تصويباً للأخطاء والأوهام الشائعة ، وتشنيعاً على العادات التي اكتست مع الزمن مطارف القداسة الكاذبة ، واِطاحةً برواسف القيود التي طالما ارتبقت المرأة العربية في الأعصر المتطاولة ، ثم شحذاً للعزائم لاستشراف ركب الحضارة العالمية بعد التخلّف الذميم الذي طال عهده وتفاقمت شرّته ، وحان فيه الجزم نهوضاً وتوثباً .

هذا الى اتفاق متقارب في عصامية التحصيل، وعبقرية الذهن، وألمعية المقصد ، ومقاربة السن ، ثم المشاكلة في نمطية الحياة تفرغاً خالصاً للجهاد الأدبي والاجتماعي قد اِلتزمنَه التزام الواجب المفترض، لا تحلّل منه ولا اغتماض بين من لايرون اليه الا نافلة من استحباب لا وجوب فيها ولا افتراض :

اما طرف التغاير بين الماريات الثلاث فهو في المأساة الأليمة من اختبال العقل وامتلاخه ركبت الاولَيَيْن في سورية ومصر دون الأخرى في لبنان ، ثم في رضا هذه بالبعولة قَدَراً لم تمرد عليه ؛ وتأبّي تينك تأبُّد العزبة غنَاءً مطلقاً عن الزواج ، وخروجاً من شذوذ على الطبيعة العامة الى شذوذ مثله في طبيعتهما الخاصة ؛

فكان ذلك من أخصّ الاسباب فيما انتهين اليه ، بين مصير لم تُحمد فيه العقبى ، ومصير هو العقبى الحميدة .

ولنرجع بالقول الى مترجمتنا مارية لبنان ، فقد اتصل ما بيني وبينها في أعقاب الرّجة العالمية الاولى ، وأنا اذ ذاك عامل طبّاع بين الورق والزيوت والأحبار ، في غاية العقد الثاني من العمر ، وكنتْ أرسل القلم في بعض الموضوعات بالأسلوب المنفلوطيّ الذي تعشّقته يومذاك ، فترسّمته ، فاشتهرتُ به ، فأرسلت اليّ تقول : « ان الورد وان استخفى بين الاشواك متوارياً لينمُّ عنه عَبْق شذاه مترامياً » . واستحملتني على الكتابة في مجلتها ، ففعلت .

ومما علمتُ من سيرتها أن فن الكتابة قد استهواها منذ نعومة نشأتها ، محاكية بذلك نشأة أكثر المتأدبين ، ماترضى بالأدب بَدلاً أو تبغي عنه حولاً ، وكان يستبدّ بها أيّما استبداد فيدراستها ، وتحرز فيه الشأو دون لداتها . وما زالت حتى استوفت من الثقافة حظها، وما كان هذا الحظ باليسير وهي الميسّرة للنجاح بفؤادها الذكي ، وادراكها النديّ السخيّ ، وبعزيمتها الحذّاء الماضية ، ولها من مستوفر الاستعداد ما يتخطى الصعاب والعقبات ، ومن مستوفز الهمة ما لا يحتاج الى غير تحريك الخطوات الى حيث تنزع وتطمع، فاذا هو ملك اليد وعفو الجهد .

وان الحرب العالمية الاولى لتنطويبصفحتها على خيرها وشرها، فما يطلُ فجر عام ١٩٢٣ حتى تصدر مجلّتها بعنوان « منيرڤا » وهي اللفظة اليونانية التي تعني « الِهة الحكمة » آثرتها بدافع من أصلها هي بكونها تمتدّ بنسبها الى أمة الاغريق ، يؤيّد ذلك تسميتها لابنائها من بعدُ ، اذ دعت الكبرى« منيرڤا » ثم شَوْعَها على الأثر « أدونيس » ، فدَلّت بذلك على انها وهي اللبنانية في قوميتها وثقافتها ووطنها لم تنج من بعض اللوثة اليونانية في عرقها ودمها . وليت شعري مَن منا في الحق يخلو من بعض الردّة الى القديم في وراثته ومنازعه ، اِنْ لم يكن الى اجداده الأقربين فالى من تقدّمهم

على بعد السنين ، وقد اختلطت بينهم الأصول والفروع ، وتداخلت العروق والوشائج ، فما تعرف بخاصتها وخالصتها في الماسّة والنزعة الا فيما ندر واشتهر .

وكان يشدّ ازرها في عملها شقيقها قسطنطين الذي لبث قوّاماً على المجلة الى ما بعد تخلّيها عنها عام ١٩٢٦ بسبب زواجها وارتحالها الى سانتياغو من أعمال « شيلي » في الولايات المتحدة الامريكية .

بيد أنها على زواجها وانجابها وانهماكها في الحياة المنزلية ، لقد لبثت الوفيّة لأدبها ، لم تعزل ما بينها وبين قلمها . وأنّى لها مثل ذلك وهو في قطراته نسغ حياتها وسعادتها ، ثم هو نجيّها الأثير لانجيّ سواه فيما يتخولها الدهر من اِحسانه وبلواه ، فلبثت على عهدها في تزويد مجلتها ببيروت بصَوْب آرائها وانطباعاتها ، وترديد صيحاتها على صفحات الصحف في المهجر ، وبخاصة جريدة « الوطن » السَّنتياغيّة .

ومن يتدبّرها في اسلوبها يجدها أميل الى « الوجدانية » ما ترضى بالفكرة الا ملوّنة بصبغ من الاحساس المشبوب ، ولا تصدر عن عاطفة الا متموّجة بنبضات القلب وومضات الفكر . وتلك هي الفنيّة البارعة في البلاغة الرفيعة ، لايرفّ صاحبها في سماء الخيال الا على أجنحة من الحقيقة ، ولا يدفّ حطيطاً على الحقيقة الا بروح من الخيال يزيدها حقيقة من اِبداع الجمال . استمع اليها وهي تصف فلذتها اذ تلبّستها الحمى ، وكأنها لاتستقطر يراعها الا من حرّ دمها ، ولا تستمدّ كلامها الا من عميق كلومها ، ولا تحسر عن لواعج أمومتها الا بمعتلج الهمّ في تفكيرها وشعورها . استمع اليها اذ تقول نثراً هو الشعر بعينه : « اذا كان لكلّ أم أن تحسّ اِحساسي يوم يلامس ذبول المرض جبين طفلها ، فيا لشقاء الأمهات ! .. لقد تقضّى اسبوع بأيامه السبعة ، وكأنه سبعة من الدهور لا أول لها ولا آخر من الهموم ، وفتاتي بين ذِراعيّ شعلة من النار تتوقّد ، لايرطّب جبينها المتلهّب بحرارة الحمى الا دموعي الغزيرة على ما تحمل من حرارة ،

بينا قلبي يذوب تحت أنينها الناغم وندائها الناعم ... يا روح أمك أنتِ يا وحيدتي ، فاني وحياتك الغالية لم أشعر بحياتي من دونك رخيصة تافهة مثل ما أشعر في هذه الهنيهة . ويا عجباً ، أتكونون أيها الاطفال وما تفقهون معنىً للحياة سبباً أكبر سبب في معاني شقوة والديكم وأنتم مرضى ، ثم تكونون المبعث لسعادتهم وأنتم في الصحة الموفورة ، وهل تكون هذه الخفقة الصغيرة في صدوركم مدعاة لتجدُّد الخفقان واضطرابه في صدور المحيطين بكم ؟.. أما ان ملذات الحياة جميعاً لاتعدل لحظة من لحظات السعادة التي تلامس قلوب الوالدين اذ يستمعون الى النغمات الملائكية تُردّد على مسامعهم ما لقّنوه أطفالهم من دروس الحكمة في ساعات الهدوء والسكينة »!..

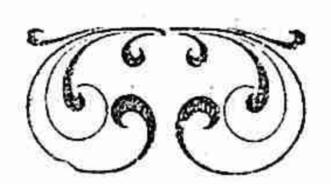
بمثل هذا الاسلوب الشعري السائغ امتزجت فيه العاطفة المستعرة والفكرة النيّرة ، كانت مترجمتنا ماري يني تصدر عمّا يتخالجها ليتسلّل عذباً رطباً الى القلوب ، ويتصل عجباً واعجاباً بالعقول . ولو قُدّر لما خطّه يراعها في ساعات اليقظة والتجلّي أن يجد سَمْتَهُ الى كتاب بحياله ، اذن لتزوّدت المكتبة العربية بأثر من الأدب النسوي هو مأثرة في تاريخ النهضة المعاصرة في الشرق ، يستكمل به بعض ما فاته مما يقتضي اِثباته .

وفي ترجمة أديبتنا أمر دقيق لابدّ من طلب وجهه ، فلقد تقدّم من أخبارها أنها أديبة وصحفية من لبنان ، وأنها تزوجت وفارقت عشّها الى البلاد الامريكية ، فهل تراها هي هي « الموحية » الثانية ، بعد مارية مصر ، لأديب العربية الرافعي الذي خصّها بكتابه « حديث القمر » وعرض لذكرها في « أوراق الورد » ؟.. أما ان القرائن لتنسم نسيمها بما ينمّ عن ذلك . ويؤيده ما ورد عن الاستاذ محمد سعيد العريان في مقدمته لكتاب « رسائل الأحزان » اذ يقول : « كان بعض من أحبَّ الرافعي فتاة أديبة عرفها في لبنان ، وهي سميّة صاحبته بمصر ، وكان بينهما رسائل اثبت بعضها في «أوراق الورد » ، وهي التي انشأ من أجلها كتابه « حديث القمر » . على أن

عمر هذا الحب لم يطل إذ تزوجت وهاجرت مع زوجها الى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك ، وما تزال » .

فاذا ما توكد هذا الحب ، وكانت صاحبته هي صاحبتنا في هذه الترجمة ، فما شك في أننا نكون قد أمطنا اللثام عن سر دفين لبث غامضاً لعهدنا في هذه الأيام ، تتخبطه الشبهات والظنون إذ لبس عليه الرافعي في حياته ، وأبى إلا أن يحتمله الى قبره مدفوناً في صدره . وما أكثر ما أودعت الرموس من رسائل النفوس لم يفض عنها ختم ، وكانت لغزاً فجعل منها الموت لغزاً آخر .

وجملة القول في مترجمنا أنها ثالثة اثنتين في الحياة الأدبية والحياة النسوية في مطلع نهضتنا المعاصرة ، وبحسبها أنها مثلت الأمومة بأدوارها الثلاثة : أمومة الأدب بآثارها ، وأمومة الحياة بنتاج قلبها ، وأمومة العروبة بصادق جهادها في كل ما يرتد خيراً وفخراً على وطنها وأمتها .



محسن الأمين

لن يعوزك لتتعرّف صورة العلاّمة السيد محسن الأمين في حقها من الوصف المبين إلا أن تتخطّر أحد أئمتنا الأماثل في صدر الاسلام، وما أعزّ على الأيام لعهدنا أن تلد من هو على غراره في غرر فضله ومآثره، اذ قد يتمطّى الدهر بالتاريخ البشري أحقاباً واحقاباً ليحظى بالفذّ على شاكلته يفاخر به ويكاثر معجزة منفردة بحيّزها من خصائصها، ترتفع في الانظار ارتفاع الاعجاب والاكبار، ولا تقع على مثلها في الدهر الطويل الا في النادر القليل .

قامة ممشوقة انتظمت على جسم لا هو بالرّهل البدين ولا الضاوي القضيف، انفرعت ممتدّة كالنخلة السموق، وقد تعمّمت بهالة خضراء أين من جلال هيبتها تيجان الملوك والأمراء، فوق هامة كأنها الكعبة من العلم والخبرة اتسعت بأكنافها ممتدة كيما تُطلّ على جبهة عريضة متضاعفة الأسارير لطول العهد بالتفكير، انتهت بعينين سوداوين تخال فيهما صفاء الجداول ورجرجة الزئبق وبريق الشمس وخطف السحر، تحميهما أهداب مريشة تفيأت حاجبين أزجّين ينمّان فيما ينمّان عن قوة الارادة وبسطة السيادة . ويوثق هذه الصفات جميعاً أنف مرسل أشم، حلو القنا، وفم رحب رقيق المبتسم، وشارب جزل متصل بلحية عافية هي الوقار والهيبة في انسيالها ونصوعها .

وهو الى هذا عريض المنكبين، متّسع الصدر، منسجم الاطراف، شديد المنة، قويّ البنية، كأنه الصرح المشمخرّ، يحمل من اللباس ما يفرضه زيّ العلماء، حتى اذا اخذته عينك سائراً خلته الطّود

يتحرك بجميعه على استواء لايعرف التلفت والالتواء ، أو جالساً ألفيته معتدلاً ما يتحرك أو يريم في غير حاجة ، أو متحدثاً سمعته يجمل بين الخاصة ويسهب على قدر بين العامة .

كذلك هو فيأوصافه الضاحية ، وهي كما رأيت شديدة الشبه بمن تقدمه من أسلافه . فان استنبأت عما وراءها طالعك العجب الذي لاينتهي منه العجب : خصائص جمة نادرة قلّما اجتمعت الى أحداجتماعها اليه ، وبحسبالواحدة منهن فضلاً أنتسلك صاحبها في مرتبة الأماثل الأجلاء ، فما بالك اذا هي توافرت مجتمعة كما هي عند علامتنا الأمين مثالية رفيعة من شذوذ الطبيعة بلغت من حدود الكمال القصية ما يشرف على الكمال وراء الحدود الانسانية ؟..

ففي دنيا الجد قد بلغ أقصى حد ، والا فما قولك به وقد ذرف على الثمانين ، وليس له في توفير العيش معين ، وعلى ذلك فهو في همة العمل الدائب لكأن فيه روح الحديد ، ينغمس فيه مستغرقاً ليل نهار ، دون ما كلل أو ملل، ويجري فيه جريالعتاق فيالسباق، فما أن تراه أكثر ما تراه الا في صومعته من مكتبته مفترشاً أرضها، والأسفار بين يديه ومن حوله ، يجمع وينقب ويستقصي ، منشئاً باحثاً مفكراً ، أو مصححاً مثوّراً محوّراً ، وربما تناول طعامه وهو في حاله تلك ، ما يتحلحل أو يريم ، كأنما يجمع بين طعام البدنوطعام الفكر معاً ، بل كثيراً ما سعى اليه الساعون ، وقصده المراجعون ، وفيهم العظيم والكريم ، فما يغيّر من جلسته ويقضي لهم بما جاءوا في سبيله ، ثم ينثني عائداً الى عمله . وما أشد ما ينالك العجب العجاب وأنت تكافىء في الحساب بين سني حياته وعدد مؤلفاته ، فيطالعك من أمره ما تكاد تعده من المعجزات والخوارق ، فلقد نيّفت آثاره على المائة عداً ، وآخرها « الذريعة في أعيان الشيعة » وهو بمفرده الى فوق الستين من المجلدات، وكلمنها الىالثلاثمائة صفحة والى ما يفوت هذا العدد أحياناً ، أفتراه لو استرحلها خطّاً وحسب فكم لعمرك تستغرق من الوقت ، وتتطلب من الجهد ، ناهيك عمّا بذل فيها من العناء تدبراً وتعقيباً ومراجعة وتصويباً ، ثم عناءً في

الطبع تنقيحاً وتصحيحاً ؟ أما وان فـي هذا الخلف من الواقع لما يصوّر لنا أن الزمن بما عرفناه في نصابه قد يتداخل متضاعفاً في حسابه على غير ما نعرف ، أو ان في الانسان من قوى الغيب التي توافيه في بعض مآتيه ومساعيه ما يغيب عن مداركنا اكتناه خوافيه(١).

ولنضف الى ما تقدّم أن علامتنا كان يتفرّغ للقضاء بين الناس على غير فراغ من وقته ، ويقدّم للصلاة اماماً في أوقاتها ما يخرمها ، ولا يكاد يفوته مجلس مـن المجالس الليلية القائمـة على الذكريات التاريخية عند الشيعة الأمامية ، ولا يتأدّى اليـه خبر نعي الا ادّى الواجب مشيعاً مأجوراً . وهو الى هذا كله قلّما طعم الطعام الاّ من طبيخ يده ، ولايستكفي حاجات يومه الا بنفسه ، وأخشى الاطـالة فأسرع بالقول اِنه رئيس لجمعيات ونـوادٍ علمية وخيرية لاتقطـع احداهن أمراً أو تبرم حكماً الا بتوجيهه وتسديده .

ولو رحتَ تنقّب عن مثل هذا الطراز في المناقب بين علمائنا ، وحتى الأعلام منهم ، لأعجزك ما أنت فيه ، اذ أنت بين حشد منهـم ليس بالقليل ، ولكن العاملين منهم جدّ قليل . فهم بين عالم هـو حميلة على العلم لايحمل منه الا سمته وظاهره ، وآخر كالشجر قد يبهرك عنده المنظر ولكنه لا عقد ثمة ولا ثمر ، وآخر توسّل الى العلم ليكون وسيلة الى كل غاية خلا غاية العلم ، وآخر تناهى في فضله ظاهراً بينا هو نسخة مكرورة لبعض الكتب الصفراء التي استظهرها لا أكثر ولا أقلّ .

والعلم للمكسبة القريبة في حدود الأثرة المنحصرة ، غيره يتسع اتساعه وينع ايناعه ، فيحكي البحر زخاراً يفيض على ما حوله مما اتصل به ليرويه ويحييه ، فهنا التجارة الرابحـة نهضت على فكرة

---

(١) لكأني بمترجمنا قد أشبه القدامى ممن ألفوا في الحديث وسواه في مئات المجلدات ، كأبي بكر الادنوي المتوفى سنة ٣٨٨ وهو صاحب « كتاب الاستغناء » في تفسير القرآن في مائة مجلد ، وكأبي علي الاسواري القاص الذي ابتـدأ في تفسير سورة البقرة ثم لبث يقص ستاً وثلاثين سنة ، ومات ولم يختمه .

الخير ، واستشرفت غاية الخير ، فكانت صورة الهيّة من الخير ، وثمة التجارة الخاسرة الكافرة ، لاتاخذ السماء بما ضمنّت ، والارض بما استقلّت ، وما بينهما ، الا بالنظرة المتذائبة ترتاغ بها الصيد حيثما لاح ، حلالاً أو حراماً ، ما تفرّق بينهما ما أرضت نهم مطامعها . وان ايثار الحسنى في العلم لايؤتاه الا النفر المختار الذي تهيأ له من شرف النفس ، وسموّ الحس ، وروحانية الفكر ، ما يطبعه على مثل خلائق النبوّة في ايثار البساطة والتجرّد والتضحية والتعفف ، فما يجد فيما اصطلح عليه الناس من سعادة الدنيا ما يعدل سعادته فيما استشرف من الغايات العليا ، وأين ما هو الى تحوّل وزوال مما هو الى الخلود والبقاء ، أو ما هو الى ما يحمل النفس على خساستها معنىً من العزّة الكاذبة ، مما سبيله الى حمل النفس على الارادات الخيّرة والمعاني السماوية والمثوبة الخالدة .

ولقد كان العلامة الأمين كما قدّمنا مثلاً أعلى في الجدّ ، وانه لكذلك آية من آيات الاعجاز في معاني العفة ، جمع بين نزاهة القلب والوجدان ، ونزاهة الروح والجنان ، ونزاهة اليد واللسان ، عن قناعة وايمان ، لا عجز وحرمان ، فلم يكن أهون عليه من المال ونفاسته، والجاه وبسطته ، وليس أكره لديه من اللغو في الحديث ، والسعي بالاكاذيب والتضاريب، ثم هو لاشيء أحب الى قلبه من الحق يتولاّه، والصدق يرعاه ، والمكرمات يعلي من شأنها ، وينشر رسالتها ، فكان وأيم الحق ، وهو من العلماء السادة ، مصداق حديث جدّه الكريم من أن العلماء ورثة الانبياء في محامدهم ووصل ما قطعوا من بليغ جهادهم .

ولعمري لم تندر العفة ندورتها الا لأنها نتاج الخلق النادر يستوي قويماً خالصاً مما يشوبه ، سليماً من أي علّة تعيبه ، رفيعاً متسامياً في استشراف الكمال ، قد ارتفع الى سمائه بمقدار ما ترفّع عن سفاسف الحياة وضئالها . وانها العفة بمعناها الخالص روح الخلق وخلاصته في معناه ، فان لم يتنوّر بها متنضّراً ، ولم يؤت منها أكله مثمراً ، كان كل شيء الا الغاية من معناه وجدواه .

واذا وجبت العفة وجوبها الحتم في الناس جميعاً فهي في جماعة التوجيه والتسديد بخاصتهم أوجب لزوماً وأدعى استتماماً ، لأن أيَّ عالم أو زعيم لم يكن مخلصاً في عمله ، نزيهاً في قوله ، عفّاً في سيرته ، بطل سحره في علمه وسلطانه ، وتجاذبت الظنون في أمره، بل فَضَله الجاهل في جهالته اذ كان لما يزيغ به الجهل ، وهو ظلام، ما يبسط له في العذر ، وليس للعلم ، وهو النور ، أي مساغ للعذر فيما يتعسَّفه من السَّوأة والشر .

والعلماء في دنيا العروبة لبثوا في الحياة نجومها تؤمن الناس من العِثار ، وفي الدين معاجمه يُرجع اليها فيما استعجم وأبهم ، وفي الفضيلة مناجمها تُلتمس عندها كنوز المكرمات . وما زالوا كذلك ملوكاً فوق الملوك ، لهم من السماء تيجانهم التي لايعدلها أي تاج على الأرض ، وعليهم من جلال القداسة والقدر ما يرتهج نوراً هو بعض نور النبوة المقدَّسة، الى أن تغيَّر ما في نفوسهم على ما يغاير الحق ، يحلّلون ما حرَّم ، ويحرِّمون ما حلَّل ، ويركبون المآثم الى حيث المغانم ، ويحتفرون قبورهم بأيديهم مهينين في الحياة الدنيا قبل الآخرة .

ولو تدبَّرت حالهم هذه بحقها من التدبُّر لوجدتَ فيهم العلة أول علة أنهم نفضوا أيديهم من العفة فنفضوا كرامتها وسؤددها ، وامتهدوا للشيطان يتدسَّس الى قلوبهم وينفث في أرواحهم بما جعلهم يميلون الى دنياهم ويكبرونها وكانوا عنها يميلون ، وينصرفون عمّا وراءها من نعيم مقيم كانوا لا يروعهم مثل صورته ، ولا يرجون مثل الفوز بسعادته . فاذا هم قد ذهبت ريحهم ، وانخضدت شوكتهم ، واذا هم يتطاوعون ولا يطاعون ، ويؤمرون ولا يأمرون ، ويقفون عند البواده والمظاهر مما انتدبوا الى أن يقفوا على صميمه حياتَهم في صميمها .

وما أقلَّ من حفظهم ربك من هذا المصير ، وأنجاهم من شرِّه المستطير ، فأصابهم من رحمته ما صوَّب خطاهم سديدة في الخطط

الرشيدة . وفي طليعتهم العلامّة الأمين الذي عاش اميناً لرسالته طوال حياته ، لا يألو جهداً في توفيتها امثلة من الفضيلة في اروع أمثلتها من نفسه قبل السوّى ، ليترسّم الناس آثاره ، وينسجوا على منواله، ثم ليروا في أعماله نسخة عن أقواله ، فيستجيبوا لدعوته صادقين كفاءَ ما تبيّنوه من صدقه المبين .

فقد قضى ما بين يوميه نقيَّ الثياب ، بعيداً عن اي عاب حتى لتنقّب في سيرته ما وسعك التنقيب فلا تقع الا على مناقب رفيعة جليلة أضاءت بما يستضيء له وجه الفضيلة ، وتناهت في الفضل والاحسان بما لا ينتهي عنده جميل الذكر والاعجاب .

لم تعلق به مأثمة أو محرجة ، ولم تستمله المغريات يوماً على وفرتها من حوله، وتلهّب الأكبادعلى بعضها عند غيره ؛ ولم يتحوّل عن مهمته في تبليغ رسالته مؤلفاً وخطيباً ومصلحاً، شاباً وكهلاً وشيخاً .

وكانت ترد عليه الأموال آلافاً من كل وجه فيردّها للحال على وجوه الخير على قلة ذات يده ، مؤثراً من بينها العلم يرفع بنيانه ، ويقوّي سلطانه ، ايماناً منه لا يتخالجه الريب في أن المال يوقف على العلم والتعليم خير وأبقى منه يوقف على ما عداه ، اذ كان العلم هو الأصل في السعادة ، لا سعادة تعدله حرزاً من الجهالة والمتربة والمرض ، ودربة الى القوة والبأس ، ودركاً لما فات المسلمين من عزّهم وحضارتهم في غابر السنين .

وكانت تسعى اليه اسنى المراتب في الزعامة والقضاء هيّنة لينة تمشي اليه مستخذية على قدميها لتسجد سجدتها الطويلة عند قدميه ، فيتنكّر لها مزوراً متأبياً يرى فيها مثل النكبة والنكد ، ولا يرضى بدلاً بزعامته الدينية التي انتدبه اليها ربّه لينهض بمفترضها حرّة لوجهه .

وكان يجلس بين الناس للقضاء ، وقد يكون بينهم الغني والفقير، والقوي والضعيف ، والقريب والبعيد ، فما يفرّق بينهم في الحق ، ولا يصدر عن الحكم الا منزّهاً عن الهوى .

وكانت تتعاوى الصيحات من حوله عن قرب وبعد، مدوّية راعدة بالسخائم والحقد ، لا لداعٍ غير فتاواه الجريئة في التشنيع على الجمود والعصبيات الذميمة، فكان يقابلها بالرضا والسكينة ، ويتقبلها بثاقب نظره على أنها الثورة في العقلية الرجعية لا بدّ منها في الحشرجات الأخيرة ، وكان يتخذ منها قوة جديدة في مواصلة الجهاد وتوسيع مدى الاجتهاد .

وكان الكثيرون يعهدون اليه بالوصاة على أموالهم وعيالهم من بعدهم ، ايماناً بصلاحه وتعفّفه ، وصلابته في الحق ، فينهض بما عُهد اليه على عهدهم فيه ، موفّياً الواجب على أتمه ، مؤدياً الأمانات بحقّها وربما ساهم في ذلك بحرّ ماله خطباً للمثوبة أو تفادياً مما فيه بعض الريبة ، محتملاً في ذلك من العناء ما كان عنه في غناء لولا نزعة الخير في دمه وأعصابه تستاقه الى مرضاة ربّه فوزاً بحبه بحب عباده .

ووالله لو كان ممن يطمعون بالمال وزينة الحياة الدنيا في ظلال البحبوحة والاقبال، اذن لكان له مما شاء فوق ما شاء، فاقتنى الدور، وشاد القصور ، وكان له مصيفه ومشتاه ، ولكنه عفّ واستقام ، وترفّع عن الحرام ، وآثر الكفاف مع الكرامة على الثراء لا يعقب غير الندامة ، واستأثر به ما هو الى الأعلى دون ما هو الى الأسفل .

ذلك كان شأنه في فضيلة التعفف والتجرد ، وكذلك كان في التواضع احدى سجاياه الكبرى . فتواضعٌ في المظاهر على نحو أصحاب المطامح القصيّة ، ينصرفون اليها بجمعهم ، فتصرفهم عما عداها مما يحفل به الناس ويهمّهم في الغالب الأعم ، وبخاصة اذ غدا للمظهر في الحياة العامة شأنه الأكبر ، يتورّم به ذووه على ضآلة ، ويتخوّلونه بالعناية ستراً للجهالة ، ومعناه في صدق علانيتهم على قدر ما يتكذّبهم في سرّهم .

ثم استجابة في الأسلوب يقوم على البساطة في الحديث مع شتى الطبقات ، وفي تقبّل الدعوات لدى الأغنياء والفقراء على سواء،

وفي الجلسات المتواضعة عند مريديه وحيثما وجد ، وفي الطعام يتناوله على الأرض عراء أو شبه عراء ، ثم في تشييع الجنازات ، ومواساة من نزلت بهم المصائب ، والعطف على من قطع بهم الدهر فما يجدون منه أيّ عطف في قطع نكره وبلائه ، فكان أبداً في مآتيه الشائعة جميعاً مثال الخير المشاع في جميع فنونه ، وكالشجرة الفينانة مثقلة برازح حملها ، يجوزها المارّون فيستظلون بوارف فيئها ، أو يجتنون طيّب ثمرها . بل كثيراً ما بلغت به سهولة الخلق ما يعزّ مثله من أمثاله ، كأن يأبى وهو بين جمع من المريدين يصحبونه الى متنزّه ، أو في سفر ، إلاّ أن يكون منهم مثل ما يكونون منه في واجب الخدمة على شدة استعفائهم اياه ، ثم يزيد فيتنزل في الدعابة والتفكهة الى ما يشعرهم القرب كل القرب منه على ما يباعد بينهم في رفعة الجناب وسموّ المنزلة .

ولنضف الى ما تقدّم تقدّمه على الأكثرين من العلماء في رمازة الرأي ، وقوة العقيدة، والصبر على المكاره ، وحسن المعاملة، والتحرر من العصبية الذميمة ، والبعد عن الضغينة ، والرجعى عن الخطأ اذ يستبين فيه الصواب .

وتلك فضائل جمّة لا تستوي مجتمعة الا لمن اختارتهم السماء لأمانتها أمناءَ على تأديتها، فأشبهوا الرسل والأنبياء في ترسّم آثارهم، والطبع على غرارهم ، كي لا تخلو الدنيا بواسطتهم من روح الرحمة ، وليتّصل ما قد ينقطع من المعاني الكريمة ، ويظل للفضيلة محرابها يغشاه أربابها ، فيستروحوا فيه الهناءة التي لا سبيل اليها في غيره .

وما شك في أن مترجمنا كان في حياته آية من آيات الله في رحمته وصيغته ، ثم في علمه هو وفضله وكرامته ، ولا عجب وهو سليل أولئك الميامين الذين طلعوا في سماء الدنيا فراقبد في ظلام معانيها فنوّروها بمعانيهم الجديدة الخالدة، ولبثت الانسانية متطاول الأحقاب تنازع اليهم ليستنقذوها من الضلة والظلم والعبودية .

فاذا انتقلت من صورته في خطط خلائقه الى خطّه في كتاباته

صافحت نظرك حروف ممشوقة كأن الأسطار فيها متعادية لكثرة ما خالطها من تعاريج وملاحق واستطرق الى صلبها من استدراك في التزيّد والنقص ، حتى أن بعض الصفحات لتشبه المصوّرات الجغرافية بخطوطها الملتوية صعوداً وهبوطاً ، ويمنة ويسرة ، وبما أعلم في بعضها ليرجع فيه الى بقية على صفحة مضافة . ولا يختتم الصفحة الا مذيلةبكلمة من بدء مابعدها على طريقةالقدامى من المؤلفين يستنيبون بذلك عن الترقيم . أما في رواميز التصحيح فما يجري القلم الا فيما جرى في الطبع خطأ ، الا أن هذا لا يمنعه في بعض الأحيان من التثوير الذي يبعث على ثورة الطبّاعين اذ يدكّ الصفحات دكاً جاعلاً عاليها سافلها ، فيضطرهم الى استعادتها في التنضيد من جديد ؛ فاذا ما رجع اليه الطباعون فيذلك كان رجعجوابه أنالعصمة لله وحده ، وأنه أعجز من أن يحيط بكل شيء عند الكتابة والتفكير ، فلا مناص من التبديل والتحوير .

ومما يتصل بمسامحته ومساهلته أنه يترخّص لنفسه الكتابة على أي نوع من الورق حتى ولو كان بعض المِزق مما سوّد في ظهره أو انمج عليه الحبر من طرفه أو لا يتّسع الا لوسق بعض الأسطر . فاذا خلصت من ذلك الى شيء فالى ايثار البساطة ، ثم انحصار الوقت ، ثم فقد المعين في التبييض والتحسين .

ولطالما قصدت الى سماحته في داره وهو في مكتبته ، اقتعد أرضها ، وتوسط ركام الأسفار من حوله كأنما هو متها في سفينة وسط البحار ، وبيده قلمه الجليل العريض قدّ من القصب الأشهب أو الأسود ، يستمدّ غذاءه من دواة متواضعة ملاقة بالحبر الفاحم ، لايقنع بمثلها اليوم صبية المكاتب . وربما ادركه الجوع فردّه الى أن يشتد اشتداده فيصيب منه نصيبه وهو في مكانه ، فما تدري وأنت تأخذه بنظرك اهو في شغل من مأكله او عمله او بهما معاً .

ولقد استطالت قائمة تآليفه حتى لترتفع كالطود مكتبة بخيالها . وهي في فنون شتى ، تنتقل بك من النحو والصرف ، الى الأدب

والشعر ، الى التاريخ والفقه والتراجم ، الى غير ذلك مما يكاد يخرج عن جهد الطاقة وهو أدنى الى الخيال منه الى الحقيقة . بيد أن أعظمها خطراً ، وأشقَّها مؤونة ، وأوسعها موضوعاً مؤلفه الكبير « الذريعة في أعيان الشيعة » ، وقد ترجم فيه لما لا يحصى من المشاهير منذ فجر الدعوة لعهدنا هذا ؛ وربما ناهز المائة مجلدة لأن ما تمَّ طبعه حتى الآن قد حطَّ في الخمسين عداً وهو الى ما بعدها . وانه في الحق لموسوعة في التراجم استشرفت ناحية من التاريخ لشدَّ ما طمست عليها الأجيال المتطاولة والسياسات الغاشمة والعقول القاتمة ، ونعني بها ناحية الفضل الذي اختص به الشيعة في خدمة الاسلام والعروبة ومآثرهم في العلم والأدب والدين ومختلف مجالات التحرُّر العقائدي والتقدم الفكري .

على أن أبرز الصفات في آثار المترجم الأمين أمانة الترجمة ، ثم التقصي الدقيق في التحقيق ، وانتجاع الأخبار في مصادرها المختلفة وضرب بعضها ببعض لاستجلاء غامضها ، وتصويب الزائف منها . وليس هذا بالأمر اليسير في مثل تاريخنا الذي تخالجه الكثير الكثير من التخاليط والأغاليط ، فهو في أشدّ الحاجة الى استخلاصه مما اعتلقه فشوَّهه ، والى نفضه النفضة التي تظهر فيه ما استخفى، وتجرده مما تحيَّفه زوراً وبهتاناً .

واذا ما تدبَّرنا هذه الطريقة بحقها من المقارنة مع الطريقة التحليلية لاحت لنا وجوه الاختلاف بينهما ، وهي اختلافات تتباعد حين نذكر أن قوام الاولى الجمع ، وقوام الثانية التفكير ، ولكنهما تتقاربان حين نذكر كذلك أن احداهما معوان الأخرى لا فكاك بينهما . بيد أن من الملحوظ أن من أوتوا موهبة التعمق والتحليل والمقارنة وما اليها من افانين البحث والاستقراء لا طاقة لهم بالاستقصاء والصبر على المراجعات في مظانها المتفرقة، وكذلك هؤلاء فهم في الأغلب أعجز من أن يغلبوا على عجزهم في تخطي حدودهم ؛ والذين يجمعون بين الطريقتين على سواء نوادر جداً .

وأنت لعمري غير واجد للعلامة الأمين شبهاً بين المؤلفين المعاصرين، في تمكّنه من علم الرجال، وجلده الدائب، وتضحيته بالوقت والمال، ثم تجرده في العقيدة العلمية . فلقد سلخ في كتابه « الذريعة » بمفرده فوق الثلاثين من السنين، متتبعاً، مراجعاً، حتى لقد ركب الأسفار الى العراق فايران فالهند يغوص في مكتباتها عما هو في سبيله . وكان لا ينتهي اليه خبر كتاب في موضوعه الا بذل فيه بذل السخاء اقتناءً واستنساخاً . ومن ثمّ اجتمع له من الأسباب ما امتهد له الطريق الى الصيد الغزير الذي فات سواه، كما وقع له في ترجمة الشاعر أبي فراس الحمداني اذ محض العربية من شعره بطائفة تبلغ ثلثه مما لم يكن معروفاً من الخاصة وحتى الخاصة من هؤلاء .

هذا وله تصويبات تاريخيَّة تنمُّ عن العبقرية التي تُنزل صاحبها من أقرانه منزلة الناقد المتمكّن من علمه، كما أن له من الشعر الوجداني ما ان تلوته على غير علم بصاحبه لخيّل اليك أنك تلقاء شاعر برّح به الهيام، وتلهّب فيما ينفث من وجده تلهّب البركان أو أشد . فان واتتك حقيقة القائل أخذك العجب الذي لا ينقضي منه العجب، اذ تتخالجك الريبة وأنت تتساءل في نفسك : كيف يصحُّ لإمام هو في التقوى والعبادة والتصوّف كأنه القلعة أرتجت أبوابها على ما فيها ولا دربة لأي اغراء أن يتسرّب اليها، ثم اذا هو فيما انضمت عليه جوانحه وفاض به شعراً كأنه مجنون بني عامر أو قيس بن ذريح أو كثيِّر وجميل ومن اليهم ممن اشتهروا بعشقهم وتغزلهم !.. وليس ثمة تناقض الى حيرة، ولا حيرة من تناقض اذ ما كان للعلم أو الدين أن يمنع أحدهما من الحب، ويحول دونه ودون القلب ؛ بل هما على النقيض، أقوى الدوافع اليه، فرجل العلم مفتون بالحقيقة، فهو عاشق محب، ورجل الدين تعبّدته العقيدة فهو بها مدلّه مسحور، وليست الحقيقة أو العقيدة الا الجمال، والجمال يمثّل في كل شيء، فمن أحبّه في جوهره أحبه في شتى مظاهره . وهذا هو مردُّ عشق المتصوّفين وتصوّف العاشقين ؛ فلحمة الجمال تجمع بين أفانين الحب على تنوعها، فما يخلو جمال من الحب، ولا حبُّ من الجمال .

*****

وعلاقتي بسماحة المترجم علاقة قريبة ، متصلة ، موثقة ، فقد ألّف بيننا الجوار في الدار منذ نعومة الأظفار اذ اختلطت بأهله ، وخلصت الى كثير من أسراره في أسرته . وكنت من طلاب «العلوية» التي يترأس عليها ، فما كان يغيب عني رسمه ولا اسمه . وأذكر انه حضر أحد الفحوص السنوية ، ولم أكن جاوزت السابعة ، فاستكتبنا املاءً في الانشاء عن اللغة وقيمتها ، فكان فيما أدرت عليه القول أن كل لسان بمثابة انسان، فبقدر ما يحسن المرء من اللغات تتضاعف شخصيته ، وكنت قد سمعت هذا المعنى في بعض الاجتماعات ، وظل في مخيلتي منطبعاً ، فاستحسن سيادته هذا الذي كِتبت ، ومنحني العلامة الأولى بين الرفاق .

وكنت أختلف الى عمٍ زاهد كاسمه ، تخذ العطارة معاشاً ، وهو من الأثيرين عند سماحة الأمين ، يقصد الى حانوته عصارى كل يوم، ليقضي بعض الوقت ، إمّا استجماماً من العناء ، أو ترقباً لحلول المساء وقضاء الصلاة الجامعة . فكان اذا رآني أسرع في سؤالي عن حالي . ولحظ مني ذات مرة أني أروىء النظر في بعض الأوراق ، ولما علم أنه بعض الشعر من نظمي ، تظاهر باكبار هذا السخف الذي يغضب الشعر ، واكبار مثلي أن يأتي بمثله . ثم أردف يستحثني على الدأب مطالعةً وكتابةً ونظماً ، لايصرفني عنها منصرف من خوف أو تثبيط ، فكان والله لهذا الموقف أثره العميق في نفسي الغضة يومذاك ، وكان لي منه مثل السلاح في الكفاح والنجاح .

أما علاقتي بسماحته عن طريق الطباعة فمردّها الى أوائل الرجّة العالمية الاولى ، وكان قد أسّس وبعض المساهمين مطبعة أطلق عليها اسم «المطبعة الوطنية» واتخذ مكاناً لها في شارع البزورية بدمشق ، واختصّها بتآليفه تدور بطبعها ، واذكر منها ديوانه « الرحيق المختوم في المنثور والمنظوم » ، فكنت أسفر برواميز التصحيح بين داره والمطبعة ، وربما استعانني في التصحيح يقابله على أصله ، فتجوزني بعض الكلم اضبط عليها ما يكون منها على لساني ملتوياً غير مستقيم .

ثم عملت في بعض المطابع احدى عشرة سنة كنت فيها وسماحته في لزام دائم بحكم حاجته المستمرّة للطباعة لايستغني عنها في مؤلفاته المستجدة أو المتكرّرة . وحدث أن عهد الينا بكتاب مشكول كان من نصيبي تنضيده واخراجه ، فمررت بكلمة « الوحدة » وقد ضبط واوها بالكسر فجعلتها على النصب ، فلما مرّ بها كرّتين يصححها ولا أفعل كتب اليّ موبّخاً ، ثم عاد مباركاً حين استمدته الى نصابها في كتب اللغة .

ومن هناته التباس بعض الحروف عليه شأن ربيعة في العرب تخلط بين الدال والذال ، فكان يخلط بين الضاد والظاء ، والذال والزاي ، لا يميّز بينها على عادة أهل العراق وبلاد عاملة في انزال بعضها منزلة بعض على غير انتباه .

ولما أن اجمعت العزم على الخروج من نطاق العمل مستعبَداً الى مجاله مستقلاً ، مضيت اليه مستنصحاً مسترشداً ، فكان من رأيه أن الطريق مأمون والنجح مضمون ، وأن ما عرف فيّ من عزيمة قمين أن يمتدّ بي الى أبعد الغايات .

ثم ما هو أن بلغه خبر استعدادي لطباعة الكتب حتى حوّل اليّ تآليفه ، وهي التي لبثت تذيّل باسم مطبعتي حتى أواسط الحرب العالمية الثانية حيث شحّ الورق وشطحت أسعاره بما قد يساوي وزنه من عملة الورق ، كما ندرت الأحبار ولا عوض منها فيما يستهلك ، فكسدت سوق التأليف لفحش التكاليف ، ونزل بالمطابع من سوء الطالع ما جعل أكثرها خلاءً من العمل والعمال .

وكان لي من زورته لمطبعتي أول مرة ما زادني به تعلقاً واعجاباً . دخل عليّ وأنا في مكتبتي على حين غرّة ، وفي فمي لفافة أدخن بعض دخانها في الصدر سماً ، وأنفث الباقي في الهواء همّاً ، وكان عهده بي أنْ لاعهد لي بالدخان ، فأسقط في يدي ، فما كان منه الاّ أن تبسّم قائلاً : لابأس عليك ، فقد صاحبت الدخان يا بنيّ شأنك الآن زمناً ليس باليسير ، حتى اذا بدرت لي بوادر ضرره ، وتحققت

أن ليس لي به أي منفعة ، طلّقته الى غير رجعة ، وذلك عندي واجب ديني فوق ما هو عقليّ ، إذ كان من المحرّمات أن يلقي الانسان بنفسه الى التهلكة . ولأن ترد اليك النصيحة عن نفسك في ترك الدخان خيرٌ من أن تلقى النصيحة عن غيرك ، ولأن تستحيي من عقلك في العادات المؤذية خيرٌ من أن تستحيي بها من السّوى لمجرد التأدب والتقية .

وحدث أن كانت جلسته الى جدار نيطت به اعلانات لدور السينما وفنازج الرقص ، وكان لامعدى عن وقوع بصره على ماحملت من صور الغيد في أوضاعهنّ من التهتك الفاسق ، والتخلع الفاجر ، مما يستوقد الشهوة ، ويغضب النخوة ، ويثقل على الطّرف العفّ الأبيّ ، فانقبضت متزايلاً ، ولم يخرجني مما أنا فيه الا سؤال زائري عما يصدر عن مطبعتي ، فقلت : هو ما تراه ياسيدي . منشورات للملاهي لا أدري مقدار ما يلحقني فيها من مأثمة على مرغمة . فنظر اليّ ملياً ثم اذا به يقول : ان العمل يا بنيّ خير من البطالة ، وهو في التماس وجه العيش غيره يقصد فيه الى الرذيلة . وان للضرورة أحكامها ، وحكمك في عملك أنك تحكي الصيدلاني في تهيئة وصفات الطبيب ، فما يلحقه نقد أو تثريب في هذا الذي يقدّمه من سمٍّ أو ترياق . ولو كان لك معدى عمّا تقوم بطبعه الى ما هو أفضل ولم تفعل ، لعلقك اذن الوبال وجزيت بالاساءة . ثم لو كانت التبعة تُقاس بنوع كل طبعة ، لكان من الحق أن تهون عليك مهنتك وتنفض منها يدك ، لان في الصحف والكتب وشتى الأسفار والأضاميم مثل ما في هذه الاعلانات من المعاني الكافرة الفاجرة . فخذ بعملك الذي لارزق بغيره الى أن تستمكن من هجره . ومن اضطر غير باغ ولا عادٍ فان الله غفور رحيم .

وكنت في معيته الى بعض الورّاقين ، فسألته رايه في احدى الآيات القرآنية ، فذكر لي مثل معناها مما استخلصت . قلت : ولكنه المعنى الظاهر . قال : وهل لنا بمثل عقولنا القصيرة القاصرة أن نأخذ

بغير المعاني الظاهرة من كتاب الله في مطاويه الباهرة ، وهي التي تتجدد على الزمن تلو الزمن بدعاً في العقل لم يكن يعرف من قبل. الا فخذ عني يا بني هذه الحقيقة . أن أكبر الأدمغة البشرية لأعجز عن الاحاطة بأصغر المعاني القرآنية في مقاصدها القصيّة .

وجرى الحديث عن الذكاء العربي ، فسمعت سماحته يصنّف هذا الذكاء درجات في الاقطار العربية حيث يتسامى في بعضها فيبلغ ذروة الألمعية ، وينحط في بعضها الى درجة الغباوة ، أما الشام فيحتفظ بخاصته من طابعه حيث لا سموّ ولا إسفاف ، وهذا النمط في رأيه خير الأنماط توافقاً مع الحياة .

وسيادته معجب أيما اعجاب بأخلاق الانكليز . قال لي ذات مرة: اتدري ما هو السرّ في نجاح هؤلاء السكسونيين ؟.. لقد أخذوا عن الاسلام ثلاث فضائل هي مناط ما بلغوا من قوة وتفوق : التفكير العميق ، والعزم المصمم ، والثبات الدائب ، فهم يروئون في أعمالهم ملياً، ثم يعزمون العزم أكيداً، ثم يجنحون الى العمل صادقاً مايرتدون عنه أو يبلغوه .

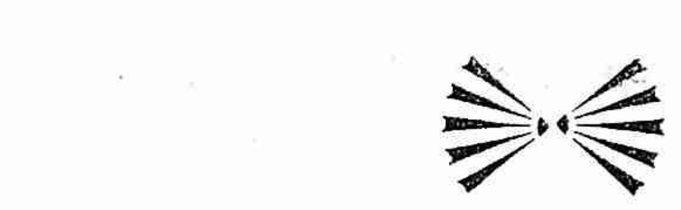
وإجمال القول في العلامة المجتهد الأمين أنه كان كاسمه محسناً أميناً في كل مأتىً من مآتيه ، وكل ناحية من نواحي حياته . كان كذلك في صلاحه واصلاحه ، في علمه وعمله ، في مآثره وآثاره . ولو كتب لدنيا العرب والاسلام أن تنعم بالعلماء من مثل طرازه ، اذن لكانت كلمتها هي العليا ، ورايتها هي الأعلى .

وكانت وفاته ببيروت في الخامس من رجب ١٣٧١ الموافق ٣٠ آذار ١٩٥٢ . ونقل منها جثمانه الى دمشق حيث مشى في موكب تشييعه الآلاف المؤلفة من لبنان وسورية يتقدمهم كبار اركان الحكومتين . وكان يومه من الأيام المشهودة لم تر له البلاد من مثيل الا في النادر القليل ، فما ترى الا من يبكيه بكاء اللوعة ، ويذكره

بحسن السمعة ، ويألم على فقده ، ويجد المصيبة به أكبر المصائب في أمته ، ويردّد مع الشاعر قوله :

وما كان قيسٌ هلكه هلك واحد ... ولكنـــه بنيـــان قـــوم تهدّمـــا

ولقد ووري جدثه الطاهر بجوار مقام السيدة زينب عليها السلام على مرحلة من دمشق الشام ، والى جانبه قلمـــه ودواته بحسب وصيته ليقابل بهما وجه ربه فيحظى بمرضاته ومثوبته .



محمد علي الحوماني

مثال" محبّب فيما تتنوّر العين من طلعته، خصب المعاني فيما يوحي من معاني محيّاه وهيئته ، وكأنّ له مجاجة هي عصارة أدبه وشاعريته تستروحها في حركاته وسكناته ، وفي الأخص دعابته ونكاته . طول معتدل لا هو بالفارع المديد ولا الحادر المتردّد ، وجسم" ملء حشوه ليس بالنحيف ولا الجسيم، ومحيًّا أميل الى السمرة المتوردّة منه الى البياض الناصع ، تميّز بعينين كاللؤلؤتين بريقاً واشعاعاً وبثغر رقيق بشفتيه ، وسيع بجانبيه ، واليه طابعه كأنه نقطة ارتكازه .

وهو ذوّاقة في الملبس والمظهر ، يتأنّق في كل ما يستر ضاحيَهُ من قمة الرأس الى أخمص القدمين ، فيعلق به القلب مذ يتّصل به انسان العين ، ويتمثّله الخاطر فيما يتمثّله صورة للرجولة والوجاهة بمعانيهما الشاملة الكاملة ، وهو اليوم يتقلّد زي علماء نجد والحجاز في قيافتهم وتجمّلهم باللحية الكثة المتخفقة ، وكان العهد به الى قليل ممن طبعتهم حياة النعيم الحضري على الطراوة ، كما كان سمته في مطلع أيامه سمت أهل العلم بعمتهم البيضاء ولحيتهم المرسلة العافية.

وان في حديثه لما يأسر السامع ، ففي لهجته واسلوبه يرضي الفصحى ، ويدل على مبلغ تملكها منه وتملكه منها ، وفي معانيه وسرده ما يحسر عن مزايا جمة يسطع من بينها الذكاء والاختبار ، هذا الى غنة في صوته تقع من القلب موقع الندى فوق الزهر في مطلع الفجر ، والى دعابة جمعت بين الهزل والجدّ ليس ادلّ منها على الحسّ الرهيف والذوق اللطيف .

فان سألت عن سجاياه ومزاياه فهو في الأنفة أبي ذو شمم ، حميّ لايستذل ولا يتهضم ، وفي التواضع متجافٍ عن الخيلاء ، متناءٍ عن العجب ، وفي السهولة ليّن العريكة ، بعيد عن العنف والغلظة ، وفي الطلاقة أنيس الطّلعة ، مطّرد البِشر ، وفي الظّرف نَدب ذكيّ كأن فيه أخذة السحر ، وفي الذكاء ألمعيّ مرهف الحسّ ، سريع البادرة ، دهيّ ذو فطنة وحنكة ، ولقد عرف كيف يضيف الى مواهبه ما مرّسه الدهر بتجاربه ، فاذا هو الصيرفي البارع في الاحتيال على الأمور ، واذا هو الخبير اللبق في اختلاب القلوب ، واذا هو قد جمع الى السياسة حسن الكياسة على سواء .

وكثير من هذا الذي بسطناه يبين في حسن خطّه وذوقه في طبع كتبه ، حتى ليسعنا الحكم في جزم بأن الخطّ اذا صدق في تصوير صاحبه ، فهو لايصدق مثل ما يصدق في مترجمنا الحوماني : ترفّع وتجافٍ عن الطمس ، وبساطة في انتقاء أنواع الطرس ، وسهولة في تبيان الكلمات والحروف تسهل فيها القراءة ، واشراق في مثل النور يتخلل ما بين المقاطع والسطور ، وأناقة هي الظرف في كل حرف ، ثم رقة ودقة كأنما تستروح منهما النسيم في كل صفحة . هذا الى ذوق في نمطية الاخراج من حيث لاتقع العين الا على الجديد في الترتيب والتنضيد . وعلى الاجمال لاتجد صبغة في خلائق المترجم البارزة الاّ وجدت كفاءَها بارزاً في صيغة خطه وكتابته ، كأن الواحد ترجمان الآخر في لغته وانعكاسه في صورته .

نهج نهج الأولين في دراسته وتحصيله ، فتلقى مبادىء العلوم على المشايخ والعلماء من أهله وأهل عاملة موطنه ، وكانت لعهده وقفاً على ما يماسّ الدين واللغة وما ينفرع عنهما ، ومعظم كتبها هي الكتب الصفراء باسلوبها الشاق وطريقتها الجافية ، ولا سبيل الى التفوق وبلوغ غاية الشوط فيها الا اذا استكملت بأسبابها في العراق على أيدي كبار علمائه المجتهدين .

بيد أن الاستاذ الحوماني وسعه باليسير مما تلقّاه والكثير من

توقد ذكائه وتفتح بصيرته ، أن يجلّي في مضمار المعرفة ، وبخاصة الأدب ، بما لم يبلغ مثله سواه . وما هو الا أن صدر عن بعض شعره في أول أمره حتى ظهرت بوادر مواهبه في شاعريته تشفّ عما عسى أن يحرز من شهرة في مستقبله ، مما يأخذ بيده الى مصافّ الفطاحل من الشعراء والادباء في دنيا العرب .

وفي الحق لقد استفاضت شهرته الأدبية بما صدر عن شعر كان له دويّه الداوي ، ولا سيّما ما أدار فيه القول على الوطنيات والوجدانيات اذ حلّق فيها الى أبعد الحدود ، وغبّر سبّاقاً في وجه من سبق أن نظموا في معانيها .

وانه ليملك ناصية شهرته متمكّناً ، ولا يجزئه منها الا الأوج مستعلياً ، وانه لتحدوه عزيمته الى مغادرة وطنه الضيّق الى حيث تخفق أجنحته في آفاق أوسع وسياحات أبعد وأرفع ، فيمتطي غارب السفر الى بلاد المهجر في أمريكا . وهناك يجد التربة النامية لبذور رسالته الأدبية والفكرية ، فيخطب بالقوم حيثما حلّ بما يصوّر لهم خطب بلادهم ، ويعطف قلوبهم على نصرتها والأخذ بيدها في محنتها من الاستعمار والصهيونية ، ويستحيي في النفوس حب الفصحى ، والتعلق بالقومية ، والحفاظ على الامجاد العربية . وما أسرع ما عرف المهاجرون قدره ، فأحاطوه بما هو أهله من حسن الوفادة والرعاية حتى لقد كانت الجاليات على تفرقها في البلاد تتسابق الى دعوته وتكريمه والحظوة بسماعه خطيباً مصقعاً ، وشاعراً مبدعاً ، وداعيةً يحمل اليهم صوت وطنهم ، ويحمل عنهم مثل ذلك .

ولما قفل راجعاً الى لبنان أصدر « العروبة » مجلّته التي ما لبث أن حوّل اسمها الى « بعد منتصف الليل » كما أصدر جملة من المؤلفات نذكر منها ديوانه الذي استجمع فيه شعره لذاك العهد ، ثم قصصه الثلاث « المآسي » و « سلوى » و « في باريس » ، ثم كتاب « نقد السائس والمسوس » و «القنابل» و « حواء » و«ديوان

فلان » ، وهذه كلها من المنظوم . ثم « وحي الرافدين » أصدره في جزأين ، و « بين النهرين » و « النخيل » وهما في الأدب . أما في الاجتماع والفلسفة فله «مع الناس » في الاول ، وفي الثانية «بلاسم» الذي عالج فيه الحياة العقلية على ضوء العقيدة الدينية . ثم مؤلفه الذي اطلعت على جزء منه « دنيا ودين » وهو في تفسير وتحليل بعض الآي الحكيم ، مع ما يكافئها من أحاديث سيد المرسلين ، وكلام سيد البلغاء الامام عليّ أمير المؤمنين .

وله غير ذلك مما لم يصلني علمه ، وما يسلكه بلا ريب في صف أدبائنا المنتجين ، ويخلّد اسمه في تاريخ أدبنا الحديث كشاعر نبيغ وكاتب بليغ . .

ولقد تميّز أدبه بخواصّ : سلاسة التعبير ، مع سلامة التفكير ، ووضوح الديباجة مع فصاحة اللغة ، واطراد السياق مع حسن التخلّص وعفوية الخاطر ، وهو لو تمكّن من احدى اللغات الأجنبية ، ووقف على كنوزها بمثل ما واتاه في لغته العربية ، لاستجمع من الثقافتين ما يغني شخصيته فوق غناها ، ويجمع إلى شهرته الشهرة التي لاغاية وراءها .

ومما أذكره من آياته أني كنت أخرج له قصته « المآسي » وكان يحمل اليّ بين اليوم والآخر شطراً من فصولها . وحدث أن نفد ما كان لدينا ، وحدثني بذلك العمال في حضوره ، فما كان منه الا أن تناول يراعته واستحضر لنا على البديهة ما يقارب العشرين صفحة ، لايلحقها أي تثريب في تضريب أو تشطيب ، وهي في نسقها وأسلوبها كأنما عملت فيها يد التصفية والتهذيب ، وتعهّدها صاحبها بالكثير من التلوّم والتنقيح . فأكبرت فيه والله بداهة الخاطر ، وسليقة الفصاحة ، واعجاز الصنعة .

ومن هذا القبيل ما وقع لي حين انبأته بزواج ابنتي « نور » ، فما تردّد في أن زاد من فرحتي فجاد لتوّه ببيتين من الشعر جعلتهما في إطار يحرسهما ، وقدمتهما هدية من يد اب وقلب محبّ الى ابنتي .

وكذلك ما إن درى بزفـاف « وحيد » ولدي الأكبر حتى روّأ وفكّر ، ثـم فاضت قريحته الجياشة ، فأرسل بضعة أبيات ناطقة بالمودّة أرفع ما يكون النطق منبثقاً عن العاطفة الكريمة .

⁂

وكثيراً ما جالسته وسامرته ، فكنت أستريح الى مطـارحاته العذبة ومناقلاته الخصبة ، والى ومضاته المشرقة ، وكنت أكشف عن روحه في شاعريته المجنّحة وعن هذا الذي طالما شغل حيّزاً كبيراً من تفكيره ، وهو الغضب على هؤلاء الذين يقنطرون المال ويكنزونه، وهو الوسيلة يجعلونها الغاية ، وهو للخير يحيلونه الى المأثمة والشر . ثم النعي على الزعامات الفارغة تبنى على الدين والسياسة ، لا أساس لها غير التهويش والتمويه ، ولا غاية منها الا السيطرة والمنبهة . ثم الأسى على النابتة الجديدة تطمس على جوهر أخلاقهم في غضاضتهم عواطف المدنية المزيفة بخسائسها ومغرياتها وشتى نقائصها ، فاذا هم الثمر فجاً ، واذا هم المصيبة على أمتهم وكان الرجاء أن تخلص بهم من مصائبها ، ثم اذا هم سبة على الدين والقومية والامجاد تلعنهـم بما يستحقون بعد اذ نفضوا عن عواتقهم حقوقها عليهم .

ولنختم بأن الحوماني سعى الى الزعامة جهد الطاقة : سعى اليها غنىً في المال والجاه ، وسيادة في السياسة والرياسة ، وخصومة للزعامات الملتوية ، وتنقّل من أجلها ما بين مختلف الأقطار والأمصار، ما يكاد يستقر له قرار ، ولكنه كان كالمتنبي فاتته الزعامات في شتى أفانينها على شدة اطّلابها ، كيما يفوز منها بالزعامة الكبرى ، زعامة الحياة الخالدة في الأدب الخالد .

محمد كرد علي

يأخذك منه اذ ترسل اليه النظر شيء" غريبلايفسَّر ، كأنك من غموضه تلقاء قلعة محصنة لانفاذ الى داخلها تردّ باستحكامها قوتك مهما أحكمتها في غشيانها ، فأنت لاتجد لأول وهلة ما يترجمه في أصالته ويقع على حقيقته ، اذ هو مبهم أو كالمبهم ، وهو ساذج بسيط ، وانه لكذلك وما هو كذلك . بيد أنك ما تكاد تصغي الى صوته يتفجر على مسمعك تفجراً كأنه هزيم الرعد أو طلقات القنابل، وتسايره في حديثه كأنه الشهد متقطراً ، وتصحبه في سياحاته الفكرية مسافراً مسفراً ، حتى تقع منه على العالم المتبحر المدقّق الملاحظ ، وعلى المؤرخ المتمكّن المقرن . بل أنت الى ذكاء متوقّد وحسّ مرهف ، وروح مرحة ، وبداهة من العفوية إن هي أعفتك من ريب الشبهة لم تعفكمن يقين الاعجاب. ومن ثم يسعك أنتمسك بالحلقة المفقودة فتصل ما بين عالمه الظاهر وعالمه الباطن . وما في ذلك أي عجب اذ كان الكثيرون من الموهوبين مثله في اختلافالمظهر والمخبر ، وبساطة المرأى وروعة المعنى ، ما يكشف عن حقيقتهم مثل الاتصال بتلك الحقيقة عن كثب ، كأنما هم الماء السادر وفي طياته الموج الهادر ، وليس في سطحه الرفيق ما ينمّ عن عمقه العميق .

واني اذ استحيي الآن رسم المترجم ، ليَشف لي عن رجل طاعن في السنّ ، اسطواني الرأس ، أشمط الشعر ، مختلطه في وسطه ، مسترخياً ، لحيماً في مؤخرته ، مستدير الوجه ، أبيض البشرة في بعض الحمرة ، رومانيّ الأنف مرسله ، ضيق الفم ، أحفّ الشارب ، منغِدّ العنق ، عريض الجبهة ، راعد الصوت ، معتدل الجسم والقامة ، يؤثر من اللباس ما كان أميل القتامة وأدلّ على

الهيبة والكرامة ، ويقرن بعينيه النظارات كأكثر من يضعف بصرهم بالمطالعات .

ومما اشتهر عنه كثرة التحدث عن العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري ، فهو من غلاة المعجبين به ما ينفك يلهج بذكره والرواية من خبره ويدعوه بشيخه دون غيره . واشتهر كذلك بتشجيع الأدباء والمتأدبين شحذاً من هممهم وامتهاداً لخطوهم وثناء يشعرهم الانثناء عما قد يتخالجهم من انخزال وتثاقل . ثم هو قد اشتهر بالدعابة والمؤانسة ما يميل عنهما ، واذا صحبه رفيق في طريقه ، ما كانت منزلته وسنه ، أسرع فشابك بين مرفقه ومرفقه ، مدخلاً احداهما في الأخرى ، كما يفعل الصديقان الحميمان سقطت بينهما الكلفة ؛ أو كما هو شأن الزوجين في اقتران حياتهما يقترنان في كل شيء حتى في مسيرهما بين الناس . ولطالما أخذ بعضدي على هذا النحو في أسواق دمشق الشهيرة ، فأشعر في نفسي بالخجل ولا يهوّن عليّ الا أنه شيخ في العلم ؛ ولا غرابة أو غضاضة في اعتماد الكبير على الصغير ، أو استعانة الصغير بالكبير ، ما دام تكامل المعنى في ذلك هو معنى القوة في تكاملها ، ثم انه لا فرق ما بين القوة تستوي في الأفهام أو الأجسام الا الفرق الذي يكون بين المعنوي والمادي . ولرجال الفكر أن يتساندوا بالمناكب والأعضاد ما دام في تساندهم ما يقيهم شرّ العِثار وخطر الاعتساف ، وهم المشغولون أبداً من تفكيرهم بما يذهلهم عن أنفسهم وما يدور بهم . ثم أليس في أخذ بعضهم بأيدي بعض ما يرمز الى الاتفاق ؛ ومن أولى وأحرى بهذا الاتفاق ممن هم دعاته ورعاته ، ولكنهم أبعد الناس عنه بحكم نزاعهم في منازعهم المتباينة التي تباركها الحقيقة آخراً وان كانت هي نفسها يكاد لا يكون لها آخر .

واذا كان مترجمنا ممن يتعصبُون للرأي يرونه ، فما يميلون أو يعدلون عنه ، فان تعصُّبه هذا لمذهب من مذاهب التفكير توافرت فيه شتى الأسباب واستمكنت الأطناب ، واستحكم مستوسقاً ؛ قبل أن يكون تعصباً للعناد ، أو عناداً من التعصب ، كما يتهمه بعضهم

فيقطع بعدوله عن الحق ، وكان من حقه أن لا يعدل به سواه ، وذلك في مثل موقفه من « الأموية » قال بها ، وأعجب بفضلها وفضائلها حتى لقد بلغت به المغالاة أن خصَّها بمحاسن وحسنات عزَّت على سواها من الدول الاسلامية المتعاقبة جميعاً . واذا لحقه في ذلك عذل فهو العذل الذي يلحق المتطرفين على خلاف مذهبه ، وهم الذين عكسوا الآية فشنَّعوا على الأموية وجعلوا تاريخها من ألفه الى يائه يضج بالخزي والعار ، ليس لها فيه أي محمدة اطلاقاً .

فالدولة الأموية بملوكها وفتوحاتها وأمجادها ، هي في نظر مترجمنا زينة التاريخ العربي وغرَّته المحجَّلة ، بل هي منه الصفحة النورانية المذهبة على كثرة صفحاته ، يدخل فيها المطالع على نهار ماتع بشموس العزّ والاقبال والعمران والسيطرة ، بينا لا يدخل في غيرها الا على ليل أليل من ظلمات الحكم في فساده وخذلانه وتفكك أوصاله .

وأعكس هذه الصورة ظهراً لبطن، وسوءات تغيب فيها الحسنات، تطالعك بالرأي عند أخصام الأمويين ، أولئك الذين يذكرون مؤسس الدولة الأموية ويذكرون آخر ملوكها في الأندلس ، فلا يرون في الأحقاب التي مرَّت بينهما الا ما يصمُّ السميع ويعمي البصير ويسأل من مثله العافية .

وأنت اذا تدبَّرت النظرتين بحقهما من التدبُّر وجدتَ ثمة ما ينبسط فيه القول على شقَّيه : رفعاً وخفضاً ، وحمداً ونقداً ؛ وما قد يذهب بالفؤاد فرحاً أو يحمله على اللوعة والأسى ، لأن بين يديك أفانين من الدهاء والحنكة، والفتوحات خارقة مستغرقة، والانتصارات دائبة مؤزرة، ثم أنت من جهة أخرى تلقاء ضروب وضروب من التحيف والتعسف، وانتهاك للحرمات، وزيغ عن الحق، وخروج على الدين. ولن تعدم في الحالين ما ينهض حجة تناهض أختها، أو تردّ بما يرتد من بعض النواحي شفيعاً وعذيراً . وعلى الجملة تجد العلة أكبر العلة في تجزئة الحقيقة حيث ينطمس فيها جانب دون جانب لترى على

غير واقعها ، بل ليتوارى مقطع الحق في صورتها ، بل لينطمس جمال هذا الحق في معانيه المنشودة . ولو عدل عن الحصر والتخصيص الى المعدلة في شمول النظرة واتساعها ، اذن لخلص الينا ما نخلص منه الى دنيا من التاريخ هي مثل تاريخنا في حياة دنيانا ، لم تخل من الخير والشر ، ومن الجمال والقبح، ومن الحقيقة والوهم، ولكننا حين نأخذ بالنظرة الثاقبة شاملة عميمة فاننا نستبين المعنى بخلاصته المغيبة وراء مجزّآته التي لا تصدق في الحكم الا بحكمها الذي يبعد عن النظرة الصادقة ؛ والا فمن منا لا يعجب ويستخفّه الطرب تلقاء تلك الأمجاد الرفيعة من فتوحات الأمويين وغيرهم ، وهي التي لم تصلب في وجهها الدنيا بممالكها الواسعة وحصونها المنيعة وجيوشها المدافعة، فانتهت طلائعها الى البرينيه والرون بفرنسه ، وما وراء حدود الهند وافريقية وأرمينية واليمن .. وكادت تضم اليها العالم بمن فيه وبأقطاره من شتى نواحيه ؟ أجل ومن منا لا تهزه نشوة الماضي حين تحمله الذكريات الى ذياك الفيض الثرّ من معاني الرقي والعمران ، والبدع والاحسان ، ومجالي المجد والخلود تتناهى بالحدود الى أقصى الحدود ، ثم المآثر الأثيرة في نشر العقيدة المؤمنة في أمثلتها السماوية، والدعوة الى الهدي بدافع من العقل والفطرة لا بالقسر والعسرة . ثم أين أين من لا يتلذّع قلبه أسى ويتمزّع شجواً وشجناً لهاتيك المآسي والكبائر التي كانت كالدمامل والقروح في وجه تاريخ العرب ، بل كانت معاول في هدم سلطانهم ، بل اللعنة الصارخة في تاريخ بعض ملوكهم ؟..

ولكننا نسأل : أنأخذ التاريخ أي تاريخ بعموميته شائهاً شتيماً لبعض المساوىء فيه ، أم نأخذه على أنه الشر لم يخل من الخير ، والخير لا بدّ فيه من الشر ؛ ولعمري أي تاريخ منذ عرفت البسيطة بتاريخها لعهدنا لم تستطرق اليه الشوائب كبائر وصغائر ، وهذا عصر الخلفاء الراشدين ، والدعوة غضة ، والدين في إبان الحدّة ، لم يمض على ما يرضي الكمال ، متنزهاً من النزاع والجدال والردّة

والقتال ، ومثله التاريخ الأموي فالعباسي فالفاطمي وغيره وغيره من تواريخ الأمم في كل زمن ؟

وما نحن ههنا والله في الموقف الذي يميل يمنة ويسرة ، وانما نقرر الحقيقة التي تغيب على الكثيرين ، أو يغيّبونها هم في مطلق أحكامهم ، ليجعلوا من التاريخ شبه حرب شعواء من خصومة العقيدة، لا مهاودة فيها ولا وناء ، بل يزيدها تعاقب الأيام شدة وفورة في الاحتدام .

ونخلص مما قدمنا الى أن للأستاذ الكردعلي ومَن ذهب مذهبه، كما أن لغيره ممن هو على خلاف رأيه ، نظرته الخاصة التي لا تخلو من الحقيقة ولكنها ليست الحقيقة خالية مما يغمز منها، وأن المفروض في الحكم نأيه عن التحيز والمحاباة ، والتطرف والمغالاة ، كيلا ينعدم فيه التجرد ، فيستطرق اليه الخلل ، ويتجرد من النَّصفة ، وهي شرطه الأول .

⁂

ومترجمنا حرّ الأخلاق ، أو ديمقراطيها كما نزعم لأيامنا ، يميل الى البساطة وعدم التكلف والى المساواة الأصيلة في حياة الانسان وجوداً وعدماً .

دعانا ذات مرة ، وكنا نعمل في مجلته « المقتبس » الى داره نؤاكله ، وكانت الأيام أيام حرب عامة لم تقتصر مصائبها على تعادي الأمم والأوطان ، ودك معالم العمران ، وزهق أرواح الملايين من بني الانسان ، وانما تعدّتها حتى الى البطون ، فألهبت فيها كذلك حرباً عواناً من الجوع الثائر ، تتضرّم الأحشاء بحممه ، وتتلوّى متضوّرة من سعاره ؛ فقدرنا أن يكون على المائدة ما يوقرها من الحساء واللحم والبقول والخضروات ، والى جانبها الحلوى والفواكه ، فلما أن حان الوقت وانتصب الخوان ، وكلنا عيون تتطلع ومعدٌ تتلوّع ، لم يرعنا الاّ أننا كنا في التقدير خاطئين ، وفي الخطأ مغرقين ، لأن ما وضع بين أيدينا لم يزد على سليق العدس والبرغل التّف بينهما شيء من

السمن ، فرحنا بنظراتنا نتهامس بما في قلوبنا ، ولم ينجنا مما نحن فيه الا تسارع مضيفنا الى تبيان رأيه في الولائم والدعوات بألا تكون صورة للتعمل والتكلف ، والمفاخرة والمكاثرة ، كما هو الشأن في بلادنا ، ثم زاد فأقسم بأنه يشاطرنا مأكله الذي أعده ليومه على سواء ، وانه لسعيد هنيء بهذه القسمة العادلة ، وأن لانكون أقل منه هناءة وسعادة، فلذذت والله من الغذاء بمحاضرته فوق الغذاء بمائدته !.

والأعجب أن صاحب المقتبسين كان لا يدعى الى وليمة الا أسلف السؤال عمن عساه يحضرها قبل قطع الوعد بتلبيتها حتى اذا ضمت من لا يأنس لمجالسته ، أو علم بغلو صاحبها في دعوته بما لا يتفق مع حالته ، أو أحس أنها زلفى الى حاجة ، تأبى مستنكراً أو معتذراً . روى أحد أصدقائه أنه دعي في أيام الحرب العالمية الاولى الى دار أحد الأساتذة في المعارف ، فلما حضر ووقع منه النظر على ما أحضر من الطعام ، ونفض المكان بمن حضره من الأنام ، وكانوا من الخاصة والعلية ، لم يتردد في عذل صاحب الدعوة على غلوه في البذخ والترف ، وعلى مائدته التي راح يطعم فيها البطون الشبعى بما يزيدها تخمة على تخمة بينا يختطف الموت من حوله الآلاف من الغرثى لا يجدون ما يقوم صلبهم ويسد بعض رمقهم . ثم أفلت مولياً الأدبار كمن تلذعته النار برغم توسل الأكثرين ورب الدار . ولقد يحمل عمله هذا على الشذوذ عند بعضهم ، ولكنه لعمر الحق الشذوذ المبارك ينفرد به صاحبه تشنيعاً وزراية على العادات والتقاليد في شذوذها عن محكم الرأي والتدبير .

وانه الى هذه الحرية الصريحة الخالصة ، لدقيق الملاحظة كأن له منها حاسة سادسة فوق بقية حواسه ، أو هي روحه من خلاصة نفسه . وربما كانت من أكبر خصائصه في كتاباته . قرأت له يوماً مقالاً في وصف الزراعة بغوطة دمشق ، فلما اقتضاه مساق البحث أن يدلل على جمودها وتأخرها ، لم يسلك سبيل غيره إطالة في الحديث، وذهاباً بالقارىء انواع المذاهب ، لا ولم يعتمد الأرقام شاهداً ودليلاً ، بل قطع بالحجة التي ينقطع بها الشك والجدل؛ وهي المهاجرة

يركب غاربها أهل الغوطة مغتربين نازحين حيثما طوّح بهم قدرهم ؛ وهم لولا الضيق والفاقة والبوار والخسار، لما ارتضوا بأرضهم العزيزة عليهم بديلاً .

وهو ذكي ، وفيّ ، تشير كنيته الى أنه غير عربي (١) ؛ جم المعارف والمحبين ، حذق لبق ؛ ولعل هذه الخصائص مجتمعة أو متفرقة هي التي شفعت له عند الطاغية جمال السفّاح، فأخلى سبيله وأبقى عليه دون اخوانه في الوطنية والجهاد ممن حوكموا في المجلس العرفي بعاليه ، ثم حكم عليهم بالاعدام .

وكان نضوَ أسفار لا يكاد يستقر له قرار ، ولقد اختلف الى ديار الغرب فزار عواصمها وحاضراتها ؛ وتنقّل بين الأقطار العربية حتى أتى على معظمها ، وكثر تردداه على مصر يحجُّ اليها زائراً أو مهاجراً هرباً من العثمانيين . فاذا احتوته دمشق يوماً فهو أبداً بين داره في صالحيتها ، أو في باب البريد بمجمعها ومكتبتها ، أو في ضيعته بجسرين من أعمال غوطتها .

ومن ذكرياتي عنه في استنكار الحشو في القول وتحاشيه ، وحرصه على تفصيل الكلام على قدر معانيه ، لا تزيّد أو تنقّص فيه، أننا كنا نطبع « المقتبس » ، وفيها نبأ عن مقدم أحد المشائخ العلماء أفرط المحرر وغالى في وصفه ، فما كان من الأستاذ وقد وقف على الخبر الا أن تقدّم باستبدال أسطاره الستة بست كلمات لا أكثر . ثم استقدم المحرر وأنحى عليه باللائمة قائلاً : ويحك وماذا أبقيت لشيخ الاسلام اذا ما وافانا في يوم من الأيام وأنت ترسل في أحد عماله مثل هذه النعوت والألقاب ؛ ألا فاعلم أن الكلام كالطعام ينبغي ألا نتناوله الا بقدر .

*
* *

---

(١) قدم جده من السليمانية (كردستان) الى سورية ، وهو غني ذو بسطة في المال والجاه ، ثم ابتاع بعض الاراضي في جسرين من قرى الشام .

أما خط مترجمنا فانه يغضب أساتذة الخط، ويغضب المنضّدين في المطابع ، سواء في سقم الرسم أو تلزّز الكلم أو زيغ التنقيط عن مواضعه . وهو يصطنع الورق الأبيض المتوسط في حجم صفحات الكتب ، ويخرج سطوره محدودة ، متلزّزة ، تنمّ على المشق والعجلة، وربما خالطها بعض الطلس والتشوير، إما عن تحيّر أو تخيّر أو بدافع من التعقيب .

ونحن اذا حاولنا استنباط أخلاق الكاتب من خطه فاننا لنظلم والله الأستاذ كرد علي ، اذ كان من قواعد « الغرافولوجية » الحديثة أن الخط العريض وقد اضطرب في تنقيطه ، وتداخل في حروفه ، وتلزّز بأسطاره، انما ينمّ فيما ينمّ عن اللّدد في الخصومة، والتمادي في حب الظهور والاستعلاء ، والذهاب بالنفس ، مع تطرّف وتحيّف في اهتضام حقوق السّوى واحتجانها تعنّتاً وتبخّلاً معاً . واللّدد في الخصام ، والتعاظم والتشامخ ، والأثرة في السطوّ والتملك ؛كل ذلك من صفات القوة يتداخل بعضها في بعض ، متجمعة أو متفرقة، لتستوي رمز رفعة وسموّ تارة ، ومعنى انحطاط واسفاف تارة أخرى ... وما نرتضي لمترجمنا ويرضينا منه الا الشأن الأول .

وثمة خصيصة للاستاذ الكرد علي ، على كثرة المشتغلين مثله بالصحافة والتأليف ، وقلة من يرعاها منهم ، وهي حذقه الصنعة في أصول الطباعة ، فيفصّل الموادّ على قدرها في التنضيد والترتيب والوضع ، ما يخرم فيها ولا يتسبّب لأي عناء في تقويمها . من ذلك أنه اضطر الى مغادرة دمشق هارباً الى مصر ، وكان ينقص مجلته «المقتبس» بضعة أجزاء لتستتم سنتها ، فبعث الينا بموادّها جميعاً دفعة واحدة ، فكنا نخرج كل جزء على حدة ، فما ينقص ولا يزيد ، بل تكاد لا تختلف الجملة في سطورها المخطوطة عن مثلها في السطور المنضودة ، كأنما سوّيت ببركار أو وزنت بمعيار .

***

وهو ممن تعتزّ بهم الشهادة ، ولكنها شهادة الحياة العصامية

التي لا سبيل الى احرازها بغير الاستعدادالفطري والعزيمةالصادقة والجدّ الدؤوب .

فهو لم يتهيأ له دخول المعاهد والأخذ بالدراسة المنظمة، وكان كما أخبرني أحد أشقّائه لا يفارق المطالعة ، وكثيراً مـا جمع بينها وبين الفلاحة والزراعة . . . وأنعم به مثالاً أصدق مثال على أن العالم يولد عالماً كما يولـد الأديب أديباً . ولقد يكون للوراثة أثـرها ، وكذلك الأقدار بظروفها وضروراتها ، ثم البيئة والتربية بمجمل انطباعاتهما، بيد أن الشأن أكبر الشأن يبقى للروح بمعناها الخالص وللجوهر من هذه الروح ، وإلاّ لم يجد العلم والتعلّم غـير التمرّس والتفهّم لا سبيل معهما الى الابداع والتفوّق ، ومن ثمّ كان غاية ما يرتجع علينا من المدارس والدراسات أنها توسّع أفكارنا وتغنيها بالمعارف ، ولكنها أعجز ما تكون عن خلقنا ، لأن هذا الخلق من شأن الحياة نفسها . ولأن التفوق منوط بالاستعداد الأصيل ، ولا أدلّ على ذلك من هؤلاء الذين بلغوا أقصى الحدود في المعرفة ونبغوا فيها ، على قلة الزاد في التحصيل المدرسي ، ثم هؤلاء الذين لم ترتد عليهم الدراسات الطويلة في الأيام الطويلة بما يتردّد به اسمهم ولو في يسير من المنبهة والفضل.

لقد وسع مترجمنا أن يوسّع من آفـاق معرفته ، ويبدع بما أوتي من عبقريته ، وأن يبرع في علمه فيفوق الكثيرين ويظهر عليهم، ويتركهم في شبه الخجل أو الخبل من تقصيرهم عنه وشدَهِهم منه . وما أحسبه الا الحامد الشاكر على ما فاته مما لم يفت غيره ، ومـا حصّله هو بنفسه مما لم يؤتوا مثل تحصيله ولا أوفوا على مثيله . فاذا هو كالروضة المئناف يكثر فيها الانتاج ويستفيض على زيـادة، واذا هم يحملون من العلم ما لا يحملهم على إثمار وايناع .

ولئن استماز بعضهم بقوة البيان والفصاحة ، ولذّت بمثل مـا تلذّ المطاعم الهشة اللينة السائغة، فلقد استماز هو منهم بدقة الملاحظة والسهولة والوضوح في التعبير ، ثم بالتقصّي وبراعة التفكير . ولئن أخذ عليه بعضهم ضعفاً أو ركاكة في الأسلوب واللغة ، فلطالما أخذ

على الكثيرين خطأهم في الرأي مع سقم الفهم وخطل الحكم .

ومن يتدبَّر انشاء الاستاذ كرد علي يجد الاختلاف بيِّناً فيما كان يخطه في مجلته أو يصدر عنه في الجريدة حتى ليخيَّل اليه أن ثمة قلمين اثنين لا قلماً واحداً ، والعلة هي العجلة تحصر عليه وقته فلا يملك حصر الذهن تعهداً بالمراجعة والتنقيح ، أو يفسح له في المجال فيتوفر له العود على الكتابة بالتشذيب والتهذيب . وكان من رأيه انه لخير للكاتب أن يصدر عنه مقال واحد في الشهر بطوله يُبدع فيه ويحسن ، من أن يصدر عنه المقال تلو أخيه ولا يواتيه الاحسان فيه . وهذا الرأي هو الذي عليه شيوخنا القدامى في الأدب حيث جعلوا الترويح ما بين الكتابة والنشر مع معاودة المراجعة والتبصُّر شرطاً للابداع في فنون اليراع . وتفسير ذلك أن السرعة مدرجة الى الزلل، لا يؤمن فيها الخطل ، بينما التؤدة مع التثبت في النظر يحول دون الخطر ؛ واذا ما ارتجعت السرعة باختزال الوقت كربح على صاحبه فانها ما من شك لكمن يشتري بها بالرخص ما كان غالياً ، لأن العبرة بالأثر الفني ليست بمقدار الزمن الذي يستغرقه وانما هي على قدر ما استغرق هو في مزية الاحسان والتفرد بما يجعل الزمن من بعده خالداً بمجده ، لأنه الزمن الذي يضمن البقاء لا الزمن الذي يذهب بساعته . وكأيٍّ من رأي قطعنا فيه بالصواب وأرسلناه على أنه اللباب لا يستطرق اليه أي مأخذ ، ثم اذا نحن من بعد ، وقد روّانا فيه الفكر، لم نجد أسخف ولا أبطل منه،أو وجدنا ماهو أحكم وأصوب، فعدنا عنه والعجب آخذ منا مأخذه كيف صدرنا عن مثله . ولولا الزمن ما كان لنا مثل هذا التصويب، ولولا التصويب ما كان الاحسان، ولولا الاحسان ما كان الابداع الذي يخلد على الزمان . وأعجب من هذا في تأثير الزمن أنك كلما رددت فيه النظر على الأثر ،طالعك منه الجديد ، وزادك بما يفيد ، ولا أدلَّ على ذلك من الآثار المطبوعة يكشف الزمن لصاحبها عن كثير من عيوبها حتى ليحزنه أن كان فيها مبتسراً مقتسراً ، ولم يمهل فيها لتشبه الخمرة تزيد طيباً ونكهة كلما طال بها الزمن عبقاً وعتقاً .

ومن ثمَّ كانت الصحافة اليومية في جليّ ما ينسبون اليها من فضل على الأدب أكبر المصائب على الأدب ، اذ كانت البراعة فيها غاية البراعة هي غاية السرعة في نقل الأخبار والدعاوة لها وسوقها بلغتها ومعانيها فجّة لمّا تنضج بعد ؛ مترعةً بالكثير مما لا يثبت على النقد، مهلهلة كما تكون المزق المتهدّلة ، يتناولها القارىء على أنها لغته وهي الى العامية الشائهة أقرب ، وعلى أنها لتنويره وكثيراً ما يندسُّ فيها السمُّ بالدسم ، وعلى أنها ترجمة لمعانٍ صحيحة ومعناها الصحيح أن لا صحة فيها ، فهي في الأدب اللغوي علة ، وفي الأدب الثقافي مضلّة ، وفي الأدب النفسي مزلّة . ثم هي في نفسها كالنار تأكل نفسها .

ولعلَّ أصدق وصف للسليقة الفكرية ، عند مترجمنا هو هـذا الوصف الذي نعتمده منقولاً عن الأستاذ العقاد حين تحدث عن كتابه « غرائب الغرب » حيث قال : « فطريقته في تسجيل ما رآه وتعليق ما درسه هي الطريقة التي قوامها الملاحظة والاحصاء وجمع الحقائق الى أشباهها وتناول الأمور من جوانبها المحسوسة ، والتي يقلُّ فيها التعليل الا ما كان من قبيل التوسُّع في شرح الملاحظات ، والانتقال من ملاحظة الى أخرى أدقّ منها وأحوج الى التمحيص والتحرّي ، ويندر فيها التعميم الا ما كان من قبيل المراجعة المأمونة البعيدة عن المجازفة والتكهن ، أو من قبيل الجمع الذي يغنيك عن طرق المجهولات وفرض النظريات بتقريب ما يتشابه بعضها الى بعض ، واستخراج ما تعطيك جملتها الشاخصة أمام عينيك ، الماثلة بين يديك » .

***

وحياة الاستاذ كرد علي حركة دائبة حتى لكأنها البحر بأمواجه المضطربة ، فهي موزعة بين الزراعة والصحافة من جهة ، والتأليف والمجامع العلمية من جهة أخرى ، ثم الرحلات المتوالية ؛ وله في كل من هذه المواطن مواقف مشهودة .

ففي الزراعة وامورها خبير بصير يكاد لا تخفى عليه خافية من

أحداثها وأحاديثها ،ولا عجب وقد ورث ذلك عن أهله ، وقضى الشطر الأول من حياته قريباً من الحياة الزراعية ، ثم هو لم ينقطع عنها حتى آخـر أيامـه .

وفي الصحافة تجده من الأوائل الأماثل الذين لا ينكر فضلهم وبلاؤهم . أصدر « المقتبس » مجلـةً وجريدةً أول العهـد بالوعي العربي وأواخر الحكم العثماني ، وكـان الاستبداد كالنارِ بشرارها يتلذَّع بشرَّه الناس، ويحصر عليهم الأنفاس، ويثفر فيما بينهم بالفرقة والاختلاف واليأس ، ويجهد في تبليدهم علـى الخنوع والخضوع ونفض الأيدي من قوميتهم وتراثهم؛ وكانت الارستقراطية هي صاحبة الأمر والنهي ، يتحكم بها في الرقاب حفنة من المقربين الى الباب العالي في الآستانة وولاته في الأمصار . ففي مثل هذه الغمرة الغامرة ابتدر مترجمنا جهاده ، واقتدح زناده ، فكان فـي طليعة البنائين الذين وضعوا أسس النهضة الفكرية في ديار الشام ، وتعهَّدوها بالتوطيد والتأييد ، فناله مـن سوء العذاب مـا لا يعرف مبلغه الا أمثاله من المجاهدين المجدِّدين .

ونحن نظلم مترجمنا إن لم نذكر له حسنة اشتهر بها وانفرد ؛ ذلك بأنه ما كان يستروح العبقرية ببعض نسائمها في متأدب أو كاتب حتى يشحذ غرب عزيمته ويوري زَند رغبته ، وما يزال يستهويه بأفانين من التشجيع حتى يبثَّ في روحه روحاً جديدة تضاعف من نشاطه وارادته وتسنِّي له الخفق بجناحيه الى المعالي . فلقد كشف بنفاذ بصيرته عن جملة من العبقريات لم تلبث أن غدت نابهة ناجحة، فكان له الفضل الأول في غاية الفضل الذي تناهت اليه .

وما أعظم فضله كذلك في وصل الأسباب بين رجالات الفكر في العراق ومصر والشام والمغرب من جهة، وبين هؤلاء وجماعة المستشرقين في ديـار الغرب ، فكان بينهم همزة الوصل ومناط العقد .

وهو في عالم التصنيف والتأليف مـن المستقصين وجهابـذة المحققين ، تملَّكته الروح التاريخية حتى لتبدو في كل ما يصدر عنه

وحتى في أحاديثه العامة . ومن مؤلفاته المشهورة : خطط الشام ، الاسلام والحضارة العربية ، أمــراء البيان ، رسائل الغرب ، غرائب الغرب ، دمشق، أقوالنا وأفعالنا ، الادارةالاسلامية، أحمدبن طولون، ومن مترجماته : تاريخ الحضارة، والفضيلة والرذيلة. وله فيأخريات أيامه « مذكراته » التي حملت عنه كثيراً من الحقائق المغيبة .

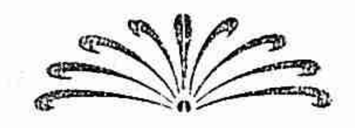
وبحسبه فخراً من حياته العلمية أنه كان سرّ حياة المجمع العلمي العربي بدمشق ؛ فهو ما يكاد يذكر حتى يذكر اليه اسمه مقارناً كأنه كنيته الملازمة . ولا عجب فقــد تبنّاه فكرةً وولادةً ونشأة ، ثــم احتضنه رعايةً وتعهداً الى أن شبَّ وترعرع وصار في حدّ المجامع الكبرى ؛ بل غدا احدى مفاخر دمشق حين تذكر دمشق .

***

أما صلتي بالمترجم فكان مردُّها المطبعة ، وهي الوفيرة بأفضالها وحسناتها عليَّ ، وفي الأخص بما وثّقت من وشائج بيني وبين أهل الفكر والفضل حتى لأنسى كل ضراء في سبيلها ، ولا يسعني الا أن أذكر وأُعلي هذا الكنز الثمين الذي وقعت عليه بتعرفي الى نخبة من جواهر المفكرين والمتفوقين ، وكانت هي مفتاح سحره وسرّي فــي الاستهداء الــى سرّه .

كنت يومذاك عاملاً في احدى المطابع ، وكانت « المقتبس » التي تطبع فيها ويتولى تحريرها شقيق المترجم الاستاذ أحمد ، تحمل عني بعض المقالات ، وكأنها استرعت نظر صاحب « القبسين » ورأى فيَّ صاحبها ما يستحقُّ الرعاية ، فراح يسأل عني ، الى أن علم بأمري في بؤسي وفقري وصغر عمري ، فزاد ميلاً الــى التعرُّف عليَّ ، ثــم اذا هــو يزورنــي بصحبــة خليلــه الأستاذ خليل مــردم ، ولقيت منه ما عطّر مسامعي بالثناء ، وأفعم وجودي بالتشجيع والمضاء، ولم ينس ونحن نفترق أن يسترهنني الوعد بزيارته في المجمع العلمي، فلما زرته وصل بيني وبين اعضائه ، وأمر فأهديت اليَّ نخبة مــن المؤلفات .

وكانت آخر اللقاءات بيننا بمصر ، ولكنها على غير سالف العهد وما كنت عرفته فيه من خالص الودّ ، اذ كان متجهّم الوجه كأنما لم يرَ لي وجهاً من قبل ، فكان ذلك آخر العهد بيننا . ولقد علمت من بعدُ أنه وقف من الكثيرين مثل موقفه مني كأنما طعنه في السن ، وما وجفت به السنون من سأم وألم ، ثم ما استشعر من تفاهة الحياة بعد طول الحياة ، وفساد أهلها في غلبة الشر على الخير عندهم ، كل ذلك قد باعد بينه وبين عارفيه ومريديه ، ان لم نقل بينه وبين أهله وذويه ، فكان هو البعادَ في معناه البعيد عن الحقد والاجتواء ، أي بعاد المحبين يشفُ عن أعمق منازع القرب والحب .



معروف الأرناؤوط

وجـه" اجتمعت اليه وجـوه من الوسامة والوضاءة والملاءة ، فهو مجتمع من المحاسن انفرد بها تميزاً وامتيازاً .

وجبهة" عريضة شامخة كأنها تقول لك : اني مُستكن" لدنيا من الخيال المجنّح وسع الدنيا بحقائقها ومكنوناتها .

وعينان كأنما رنّق فيهما النعاس ، فهما مغفيتان فـي يقظة ، مستيقظتان في غفوة ، لتحكيا الشمس وقد ظهر منها جانب وغـاب جانب ، فما هي بالشمس أنواراً كاملة وهي النور كل" النور شمساً ناصلة . وانهما لكذلك بسبب من النظرات الحالمة لا تنفكان في شغل شاغل عمّا تقعان عليه أو يقع عليهما .

وبسمة" ناعمة هادئة هي السخر وهي السحر ، تندّت عن الفم تندّي الزهر ، وأشرقت فيه إشراقة الفجر ؛ وفي مطاويها الخفية معانٍ حية عما انطوت الحياة من مفارح وآلام ليس يجدي فيها مثل الابتسام يمنع الغرور في المناعم ويمتع متهكماً في نوَب الأيام .

فاذا أخذته بجملته على وهَلة وبنظرة مجملة تكذّبك الحساب في حقيقة عمره ، وفي حقه الحق من سنيّ قدره ، لأن ما ارتفع مـن نضارته وما يخالط هذه النضارة من أناقـة يأبى الا أن يسقط عدة سنوات من مجموعة أيامه ، ولأن صمته الوقور ، ولهجته الساخرة ، واستغراقه الحالـم ، وانكماشه الدائم ، كل ذلك يمثله غير ما عُرف به ، ويغيّب كثيراً من سجاياه ومواهبه .

وهو من بعدُ ، ربعة بين الرجال ، يمشي متخايلاً مترنحاً كأن

له عدوى من خفة روحه وتوثب خياله في حركات جسمه وخطواته . وقد لزمته هذه الخلّة الى ما قبل مرضه الأخير بقليل مع انه قد مشى في الستين .

وانت اذ تستمع اليه في حديثه يستهويك صوته بغنّته المحببّة وقد امتزجت امتزاج الماء بالصهباء باللهجتين السورية واللبنانية ، وشعّت في مثل حميّاها بالدعابة اللذة الآسرة .

فاذا تحوّلت الى خلائقه وسرائره ، فأنت الى مثل الطيبة عند عباقرة الرجال أو صغار الأطفال ، وهي الزكية لا تعلق بها زرية ، والفياضة تتريّع بالخير والعطف ، يجوز بها الشر فما يلفي عندها مستقراً ، وتتخايلها الخصومة فلا تجد الا تبصراً ، وينزل بها الخطب فتملّس منه تجملاً وتطهراً .

كذلك كانت نفس مترجمنا في طبيعتها ، وكانت طيبته في نفسه ، فهي بخاصتها عنوانه في سائر خلائقه لأنها عصارة خلائقه جميعاً ، تلبّستها وتلبّست هي بها لتنمّ الواحدة على الأخرى ، وليكون من نفحاتها في ذاتها مثله في ذات من يستروحها ومثله من معاني الطّيوب تفوح بنشرها الزكيّ وعبيرها المتأرّج الشذيّ . وما أكثر ما أمدّتها ينابيعها بما لا ينقطع من موازدها الثّرة الخيّرة ، فاستفاضت على ما حولها أدباً رفيعاً سنياً أفاد منه المفيدون ما رفع مقامهم وأسنى مراتبهم ، إنْ في الشهرة الأدبية ، أو الحياة المادية ، وما كانوا من قبل شيئاً مذكوراً ، ثم هم لم يكونوا من بعد الاّ الحجارة الراجمة الجاحدة تنهال على البئر السّمح لؤماً بعد أن أعملت فيه عباً ونهلاً .

ولقد مررت بمن كان ينحت من أثلته ، ويستصغر من قدره ، ويتأوّل فيه الأقاويل ، فاذا ما عرَض لهذا النفر ذكر على لسانه لم يعرِّض بأحد ، ولم يذكر الا ما يُحمد ، واستغنى بالعتب على ما يستوجب الغضب .

عرفته سهل الخلق ، لين العريكة ، جزل المروءة . . . وعرفته

دقيق الحسّ ، رفيع النفس ، حييّ الطبع ... وعرفته طَلْق اليد ، حسن المعاملة ، مأمون المغيَّب ... ثم عرفته فوق ذلك متفائلاً أبداً، يغلّب فرح الحياة اذ هو يتناولها من وجهها المشرق الباسم، ويرى اليها رضيَّة ما رضيت فيها النفس ، حليمة حتى في غضباتها ما أُخذت بالحلم ، حافلة بالمتَع والزينة عند من يستمتع بها ويتزين لها . وقد لبث على تفاؤله هذا الى أواخر أيامه ، ما تفارقه البسمة الساخرة ولا الدعابة الهانئة الساحرة . وأول ما وقع عليه نظري ، وكان ذلك في أول الحرب العالمية الاولى ، تنوَّرته ضاحكاً مستبشراً ، وآخر ما ودعتهُ ولم أكن أعرف أني أودعه ، تركته كما عرفته متهلل المحيَّا مشرقاً كأنه مضاء من داخله بكواكب من النور . فما غيَّر من تفاؤله الأصيل مرض وبؤس ، ولا شقوة أو أنس ، ولا شباب ماتع أو كهولة تمشي الى الرمس ، بل ظلَّ هو هو هادىء السرب في كل خطب ، رطب اللسان بالمحمدة والشكر في كل أمر ، مقبلاً على الحياة إقبال الصادي تجزئه النُغبة من الشرب ان لم يجد المساغ الى السائغ العذب.

والغريب الغريب في معروف على ما عرفنا فيه من ذوق دقيق واحسان بالغ ، أنه كان أبعد الناس عن الذوق والاحسان في خطّه الذي تتخارش به أنامله ، فأنت منه تلقاء طلاسم لا تُطبُ في تبيُّنها أنواع البلاسم ، وقد اضطرب بعضه في بعض كأنه في ثورة الى مثلها ثورة في النظر ، وغاب عن معانيه من ورائه كما يغيب وجه ذكاء بما داخلها من السحب الدكناء ، فليس ثمة انسجام ولا ترويح في الكلام وبين السطور ، حتى ليخيَّل اليك أنك تطالع مثل الآثار الطامسة عفَت عليها الأيام فما تبين بخطها ولا معناها : تنقيط سيم التحيُّف فما يجد مكانه الذي وجد له ، وحروف محرَّفة أو عدا بعضها على بعض في استقلالها ، وتضريب هنا وهناك كأنما العين منه في مجهلة من حطوط وهبوط وعراقيل وعثرات لا نهاية لها .

وما يعفيك من العجب لخطّه في استعجامه وعدم انسجامه الا أن تعلم بأن صاحبه لا يسير بالقلم فوق الطرس الا شارد اللحظ ، مستغرق النفس ، مشغول الخاطر بالباطن عن الظاهر ، تتزاحم في

رأسه الأفكار كأنها في سباق فيجري في تدوينها على عجل واهتلاك. ثم هو لا يعود عليها بالتعهد تقويماً لما اختلّ وتسوية لما اعتلّ، كأنما هو لم يختطها الا لنفسه دون غيره.

وكثير هم الذين أشبهوا معروفاً في صفة الاستغراق خلال الكتابة، أو أشبههم هو ونزع منزعهم، فقد عرفتُ من يفتنّون في ذلك بما يدخل في باب الغرائب. فمنهم من لا ينفتح عليه في انشاء سطر الا وهو مُغْمض العينين كأنه النائم أو الحالم، أو يجعل في مسمعه مثل الحشيّة يحتمي بها من الضوضاء ويستجمع ما تشعث من الآراء، أو يسخّر غيره بالتدوين ويختص هو بالاملاء والالقاء؛ أو يذرع المكان جيئة وذهوباً كأنه من فكرته في حرب من صدٍّ وردٍّ الى أن تواتيه وتستقيم له فيقيدها ثم يتحول الى مابعدها؛ أو يتلهّى بسبحة فيداعب حباتها مزاوجاً مستفرداً ليؤلف على نغماتها ما هو بسبيله؛ أو ينمنم بعض الخطوط بين يديه ملهاةً واستدراجاً لما يعنيه؛ الى آخر ما هو في هذا الباب مما يتفق وأمزجة الأدباء والكتاب على اختلافها.

وكان من عادة مترجمنا أنه لا يحرّك القلم بيمينه الا والنرجيلة الى شماله، يقرقر بها، مستحيياً دفين خواطره بما يعقد من سحب دخانها، متغلباً بقوة منها على ما يداخله من السآمة أو الهم. وما أكثر ما أخذته العين على باب مكتب جريدته، وهو في تلك الحال، يهيّئ موادّ يوميّته، أو يشتغل في تصنيف مؤلفاته. ولا بأس هنا أن نشير الى أن تواليفه برمتها لم تكن في أصلها الا فصولاً متقسّمة يكتبها يوماً بعد يوم لتنشر في جريدته حلقات متداركة أخذ بعضها برقاب بعض؛ فكأنه المعمار يصعد بالبناء الى العلاء يناطح الجوزاء وقد التفّه من اللبنة تلو اللبنة على مهل ووناء.

وننتقل الى الحياة الفكرية عند مترجمنا، وهي حافلة بالألمعية والأحوذية. فقد رأى النور في بيروت، وتخرّج من مدارسها الأجنبية جامعاً بين الثقافة العربية واللاتينية، ثم مرن على الصحافة زمناً

حتى اذا تحول الى دمشق في بدء الحرب العالمية الاولى كان بين أسرة تحرير جريدة « الرأي العام » لصاحبها منير المدوّر ، يملأ الحقلين الأولين من الصفحة الثانية ، تحت عنوان « الاجمال السياسي » بما يترامى عن الصحف الفرنسية مما يتعلّق بالقضية العربية والحكومة العثمانية ، معقباً على ذلك ببعض التعليقات مما يتعلق بها .

وكأن نزعته الخفية الى القصة كانت كامنة فانبثقت في هذه الآونة ، فاذا هو يصدر عن قصص من النوع « البوليسي » لمثل نات بنكرتون وشارلوك هولمز وأضرابهما مما يستهوي القارىء بما تخلله من ضروب الحماس والبطولة والذكاء ، وما يدغدغ عواطفه حتى كأنه هو القَدَر القادر المسيطر ، يستطرد الحظوظ والغايات على ما أراد ، يرخي لها الأعنة تارة ويشدّ فيها تارة الى أن تنتهي القصة بنصره المبين .

ولقد تجلّت في هذه الباكورة من القصص سهولة اللغة وطرافة الأسلوب ولطافة التّخيل وبراعة الوصف . وكثيراً ما توقف وأطال حيثما يستدرجه الوصف وينفسح المجال للخيال .

ثم تفرّغ للصحافة مشتركاً مع بعض الرفاق ، ثم انفرد مستقلاً بجريدته «فتى العرب» أواخر العهد الفيصلي وأول دخول الفرنسيين سورية . وأذكر أنه أصدر ما بين ذلك مجلة « العَلَم العربي » ولكنها وئدت لعدد واحد صدر منها .

ولم تنسه الصحافة بأهوائها ومغرياتها هواه في القصة ، فلبث يمنحها أيقظ أوقاته ، ويخصها بخالص تفكيره وشعوره ، ولا يرى للصحافة الا الشأن الضئيل بالنسبة لشأنها الجليل ، بل راح لا يحفل بالأولى نجح فيها أم لم ينجح ، لأنها وسيلة للتكسّب لا أكثر ، بمقدار ما يحفل بالأخرى وهي غايته المثلى لأنها الغاية التي يتمثل فيها الأدب الحي والمجد والخلود . وليس أدلّ على ذلك من أن جريدته لم تخل حقولها يوماً من نسائم القصة ، بل لك أن تزعم صادقاً بأن كلّ ما كان يخطه يراعه حتى ما كان في السياسة ، قد تلبّس بروح السّرد والوصف على ما يقتضيه الأسلوب القصصيّ . فهو لم يخلق الا للقصة ،

ولم تخلق القصة الا لمثله ، كأنما امتزجت بدمه ولحمه وعصبه ، واستأثرت بخالص لبه وقلبه ، ليحيا بها وتستوي فيه حيَّة ، تمدُّه بما يقع عليه حسُّه ، فيمدُّها بفيض من خفقات شعوره وخلجات عقله ، ويقع على صورتها شتيتة متوزعة ثم لا يلبث بفنه أن يصوغها كما يصوغ الجوهري أعلاقه ، صوراً أخاذة ليس أمتع منها في الحس ، وأندى منها على القلب ، وأروع وأسطع منها في الذهن .

كذلك رأيناه ينفح الأدب العربي بروائع من فن القصص التاريخي ، فصدر عن « سيد قريش » (١) و « عمر بن الخطاب » و « طارق ابن زياد » و « فاطمة البتول » ، وغيرها وغيرها مما قطع له بالتفوق في فنه ، ألمعيةً في التفكير ، وبراعة في التعبير ، وسلاسة في اللغة والأسلوب ، وقدرة بالغة في الوصف ، ثم تقصيّاً في التاريخ العربي ، وبخاصة ما انتظم من بطولات وأمجاد ومآثر جلاها الجلوات التي يسجد لها الفكر سجدة الاعجاب والقدر .

واذا طغى عنده الاسلوب على التحليل والتعليل وما هو من مقوّمات البحث والتحقيق ، فان عوضه من ذلك هذه الألوان الآسرة والمطاوي الساحرة ، ثم هذه الثروة الفنية واللمحات المستخفية في كل ما يصدر عنه حتى لكأنك منه أمام معرض من الصور الهامسة التي لوّنها الشعور الحي ، وزانها الخيال الطليق ، وتسربلت فناً جميلاً وجمالاً هو الفن .

ولعمري لو كُتب لتآليف معروف أن تتعرّفها غير العربية من

---

(١) سئل مؤلّف « سيد قريش » عما استفزه الى عمله واقتضاه بذل الجهد في سبيله ، فأجاب بأن الحقيقة وحدها هي الحافز الحامس . اذ آلمه صدور كتاب « فلورندا البيزنطية » للكاتب الفرنسي « رينيه دي سيكونزاك » وفيه الاغاليط والاكاذيب عن فتوحات العرب في الأندلس ، والقومية العربية الأصيلة ، والحضارة الاسلامية ، فلم يرَ بداً من ردّ الحق الى نصابه ، ونفي كل ريبة وتهمة ، وفضح ما مكرت في أذاه السياسة الموبقة ، فكان « سيد قريش » صوت الحق في التاريخ ، وصوت التاريخ في حقيقته .

اللغات الحية ، اذن لكُتب لصاحبها من الحظوة والشهرة والمجد مالا يقلّ عن هذا الذي كتب لمثل فرانس وجيد وموروا ممن قلّدوا جائزة نوبل فـي الأدب .

ولسوف يذكره التاريخ أديباً مؤرخاً أولَ ماعرفته العربية لعهدنا يسير على غرار أدباء الغرب فـي استحياء التراث القديم بالقصص المستحدث القويم . بل سيذكره بحقه مؤرخاً للرسالة العربية فـي أمجادها ومفاخرها استمدّها بصَوْب من خيالـه ، فبرزت بجمال معانيها معنى من الجمال الذي يكاثر ويباهى به ، هذا الى أنه ردّ اليها مطارفها وزينتها من الحقيقة بعد اذ ألبستها السياسة الحقود مزقاً متهدّلة من التخاليط والأغاليط ، فاذا هي الايمان خلُص من الريب ، واذا هي قد انبعثت مستجدّة كأنما خلقت خلقاً جديداً بعد أن طواها القِدَم وهشّم فيها ما هشّم ، ثم اذا هي بعد ذلك كله لكالعروس بين غيرها من أمجاد الأمم تكاثرها مفاخرة بما لا تتطاول الى مثله في مثاليتها المعجزة .

أجل ولقدوسعه وهو الشاعر بروحه ولغته أن يرسل الكلام وحياً من الشعر ، وشعراً من النثر ، لا يكاد يتصل بالقلوب ، فينفذ الـى أعماقها ، حتى يستثير كوامن المشاعر ونوازعها حباً بالقومية وتعبداً للوطنيـة .

عاش بين أحلام الماضي في حقائقه يستدني بعيدها ويقتنص شاردها ، ويقيد أوابدها ، الى أن اجتمع اليه ما ألّف منه مثل التنزيل التاريخي بأسلوب من الشعر كأن فيه عبير الزهر وهمس الوحي ؛ جلا الماضي أروع جلاء ، وأبلى في درء الشبهات عنه أحسن البلاء ، فكان حقيقاً بعد هذا الامتياز والجهاد أن يدخل التاريخ على أنه أديب القصص التاريخي ، والمبدع في فنه لزمنه .

***

أما علاقتي بالمترجم فكانت من ثمار المطبعة أيضاً ، ازهرت وعقدت

وأينعت وآتت أكلها في تؤدة ، اذ هي ترجع الى ابتداء الرجة العالمية الاولى ، وكنت ما أزال طالباً في اللعازرية ، وقد نفاني والدي خلال راحتي في العطلة المدرسية الى المطبعة الوطنية في بزورية دمشق ، وكانت تطبع فيها صحيفة « الرأي العام » التي اشترك المترجم في تحريرها ، فاتصلت به معرفتي منذ ذلك الحين ، ووقفت على كثير من بوادره التي مخضتها الأيام من بعد فانعصرت خلاصة من الشمائل الحلوة والخلائق المحبَّبة .

ومن أخباره ، وفي كلٍّ منها منبهةٌ على أطواره ، ودربةٌ الى مكنون سرائره ، ما نحدّثك به حديث عين وتبصرة .

فقد روى لي من طرَفه أنه كان في حداثته شيطاناً صغيراً ، يركب رأسه في كثير من أموره ، ويرسل نفسه في العبث على السجية ، وربما اشتط فتسبَّب للأذية ؛ ومن ذلك أنه اضطر ذات مرة على خلوٍّ ذات يده ، الى قصد أحدهم لمسح حذائه ، فتعاهد وأحد رفاقه على أن يرميه بحصاة عن بعد مذ يراه قد انتهى من شأنه ، كيما يتظاهر بلحاقه غاضباً ، وينجو مما علق بذمته غاصباً .

واتفق أن كان مع زميل له في المطبعة ، فدخل أحد العلماء الأجلاء فخفَّ اليه الجميع يحيُّونه ويقبّلون يده ، فنظرتُ فاذا بمعروف ومن معه يلمح كلاهما للآخر متغامزاً مترامزاً كمن رأى شيئاً عجباً ولا يرى لـه سبباً .

ومن أعابيثه ومنادره أنـه أسهب في الكتابة مدحاً وتنويهاً عن الثورة الكمالية في تركية ، واتّخذ من غاياتها بأسبابها ما يؤلف بـه قلوب المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، وارسل لقلمه العنان يخترع ويزوِّر من اخبارها ما كان وما لم يكن كأنما هو يسبح في قصة ينسجها من خياله الفياض ، وتسرَّب صوته الى الأقاصي حتى بلغ الهند والسند ، وكان القراء يتلقّون اخبار جريدته في شوق ولذة

واعجاب ، ويتخاطفونها تخاطف الجائع وقع على ما يتقوَّم به صلبه بعد أن طال سغبه .

وكان مما استقرَّ في أذهان الكثيرين ممن لا يعرفون من هو صاحب « فتى العرب » أنه شيخ متعمّم ، تراخت به السنون كما تراخت لحيته ، وتهيَّبته العيون لما يهبُّ عليه من أنوار القداسة ، وأنه في تدينه وتقشفه وجهاده لا شك أحد الأئمة الأعلام في دنيا الاسلام . فلما أن مرَّ بدمشق بعض وجهاء الهند في طريقهم الى تركية، وهم من قرائه والمعجبين بآرائه، راحوا يسألون عن« فضيلته» ومازالوا حتى اهتدوا الى ادارة جريدته ، وكان حاضراً ببسمته العصري فظنوه ما ظنوه الا أن يكون طِلْبَتَهم التي ينشدون. وأحسَّ هو بما استقدمهم اليه كما أحس بالحَرَج الذي لا بدَّ فيه من مخرج، والاّ انكشف سرُّه ، وعلن أمره ، فعجَّل بما استعجل انصرافهم زاعماً أن فضيلة الأستاذ غائب في بعض شأنه ، ولسوف يخبره بمقدمهم كيما يقوم بواجب زيارتهم ، ثم ما هو أن تحلَّل من ربقتهم واستروح النجاة من زورتهم حتى أسرع فاستعان بأحد المشائخ من ذوي العمامات الضخمة والأردان الضافية واللحى الكثيفة العافية ، وأرسله اليهم على أنه الشيخ معروف . ولا تسل عن حسن لقياهم وتحفّيهم به وتبركهم الشديد بتقبيل يديه والتماس دعائه .

وعرض الخلاف بينه وبين ابن عم له من زوجه ، كان شريكه في مطبعته ، واستفحل هذا الخلاف ، فلم تُجْدِ فيه الحيل ولم يجد المصلحون في حله أي أمل ، وكان مرور الأيام لا يزيده الا بعداً في الشقة وامعاناً في الفرقة، الى أن وقع نظر الشريكين عليَّ أفصل بينهما بقسمة المطبعة شطرين ينفرد كلٌّ منهما بما اختصَّه . وأشهد أنني لقيت من مترجمنا المساهلة والمياسرة ، ولم أسمع عنه أي نابية من القول في ابن رحمه .

وكنت معه على خلاف في الرأي والحكم على الاستاذ عباس

محمود العقاد ، أري اليه عملاقاً في الأدب والفكر ، وجهبذاً في العلم وبخاصة فن النقد ، وشاعراً فيلسوفاً رفيع الطبقة ، نبيه الأغراض، ودعامة مكينة في أدبنا المعاصر، ولايرى هو فيه الا الشعبذة والطرمذة ، يطلي سحره على القارىء بما يستاق اليه من آراء غامضة معقّدة كاسمه ، ينتحلها انتحالاً أو ينتخلها انتخالاً عما يمرُّ به في مطالعاته الانكليزية ؛ وليس عنده الا البدَهيات يضخم فيها ويعظم ليجعل من القطرة فيها بحراً ، ومن الحصاة جبلاً ، وكثيراً ما تذهب به العنجهية فيزيغ ويخطىء ويأبى الا التمادي في تعسّفه كأنما قوله هو القول الفصل لا ينساغ لأحد أن يردّ عليه .

وجزت بــه ، وكان ذلك فــي أواسط الحرب العالمية الثانية ، فاستوقفني على عادته يسألني عن حالي وأعمالي ، ثم أفضى اليَّ بأنه يملك ذخيرة لا بأس بها من الورق ، وهو بين أن ينزل عنها بسعرها الفاحش رابحاً ، أو يطبع بها قصّته الجديدة « فاطمة البتول » ، فاندرأت أشنّع عليه الرأي الأول، وأشبع فكره بما يصوّر جوع الأدب الى مثل آثــاره ، وأشعُ في عينيه أنوار المجد الأدبي يزيده تألقاً ، وأصطنع له المقابلة بين دريهمات معدودة يربحها على غير حاجة ماسّة وما عسى أن يربحه من شهرة وتخليد من مؤلفه الجديد . وما زلت في مثل هذه المعاني الى أن سمعته يقطع لي الوعد بالنزول عند رأيي. وكذلك فعــل .

وما راعني آخر ما وقع عليه نظري ، وكان قد أخطفه المرض ، الا أن تبدّلت النضرة في محياه شحوباً ، والنشاط في جسمه فتوراً ووهنــاً ، والحديث لا يصدر عنه الا انكساراً وسأماً ، فرثيت لمــا آل اليه، وعجبت للردى يعجّل بالورد فناءً، ويطيح بالبنيان مشمخراً، ويطفىء النور أبهى ما يكون سطوعاً وتضرُّمــاً .

لقد غيّرت عوادي المرض واوصابه من معروف ما غيّرت ، ولكن أدبه لم يتغير ولن يتغير ، بل ستزيده الأيــام التماعــاً واشراقــاً ،

لأنه الأدب السني العبقري ، ازدخر بالوحي والهمس ، وانتظم على الوصف الذي يعجز على الوصف ، وحمل من الامتياز مخايل الاعجاز ، واستولدته القريحة ثمراً من أينع الثمار طاب غرساً ونضجاً ومذاقاً ، وهو في روحانيته كأنما تنسم عليه رويحات من وراء الحدّ الانساني ، وتتناغى فيه نغمات هامسة كرفيف الملائكة ، فما يشبع الناظر ولا الخاطر من زاده شبعاً وريّاً .

ولم يطلّ يوم الثلاثين من كانون الثاني ١٩٤٨ حتى كان الزمن قد انتهى من مقياس حياة مترجمنا ، فارتاح الله له برحمته ، وكانت الفجيعة به فجيعة الأدب المعاصر بأحد أفذاذه النوادر ، بل بنادرة عصره في فن الرواية التاريخية .



منير العجلاني

ربعة بين الرجال ، ذو وجه مشرق الطلعة ، ناصع البشرة ، اذا أخذته العين اجمالاً تنوّرته جميل المفارف كأنما صيغ صيغته كيما ينال في الأبصار حظوته ، ويوحي لمجرد النظرة بما استكن وراء متجرّده من ألمعية وذكاء ، ونبالة في الوجاهة والاصالة . واذا صافح السمع صوتُه خلته نغمات لم تخرجها الحنجرة الا موقعة على ما يشبه الوتر الأغن ، ثم هو ما تفتر شفتاه عن ضحكة الا كانت كنصف كلمة أو نصف حركة لتكون في تأثيرها أكثر عذوبة . وما ألطفه محدّثاً يجتذب اليه الحسّ بمثل مجتذب المغنطيس ، وما أنشطه مغذاً في سيره مطرق الهام كأن له من باطنه قوة مستوفزة من الكهرباء لاتعرف غير الحركة والمضيّ قُدُماً في هرولة وعجلة ؛ ثم ما أزهاه في هندامه ينمُّ عن ذوق هو آية الظرف ، وظرف هو غاية الاحتشام .

تلك معانيه في ظاهره وضاحيه ، أما معانيه فيما استخفى وراء القلب واللسان ، وما يتقوّم به خطر الانسان ، فذاك والله مما يُعجز البيانَ وصفه مهما بلغ البيان اِعجازاً في الوصف .

ذكاءٌ متسعّرٌ يخترق بنوره النافذ الثاقب كل عويص معضل ، اذ يحيل ما استتر جلياً ، وما تعسّر هيناً ، والملتبَس أو المُريب واضحاً مستيقَناً ، لا تعوزه في ذلك الا اللمحة كالومضة ، وربما أرسلها ساخرة تتضاحك من هذا الذي يراه مما يهون وهو عند غيره أصعب وأشق ما يكون .

وتواضعٌ جبل بالحياء ظرفاً ، وبالظرف عطفاً حتى ليخيَّل أنه بعض حياء العذارى ، أو بعض براءة الطفولة الوديعة ، أو هو صورة

من الورع عند الناسكين المتبتّلين ، وانه ليفيض على مـا حوله بما يذهب الوحشة والتزايل ليحلّ محلهما التبسط والتسرُّح ، ومن ثم كانت مجالسه آنس المجالس أدباً في تصوُّن ، ودعاباً في ترفُّع ، لا يرجع عنها حاضرها الا وقد فسح له من قلبه مكانين اثنين ، مكاناً رفيعاً لعلمه ومكانته ، ومكاناً أرفع لتواضعه نأيـاً عن مذاهب الزهو، وتجافياً عن مواطن العُجب والاستكبار .

ولقد عرفته كاتباً موهوباً ، زاول الصحافة ردحاً من الـزمن فساهم فيالجزيرة والقبس وألف باء و النضال ، وأديباً عبقرياً ألّف وصنّف فصدر عن جملة من الكتب الأدبية والاجتماعية ؛ ثم خطيباً مفوّهـاً طالما ترنحت به المنابر وتناهبته المسامع والنواظر بما يلقي من آيـاته البيّنات .

واذا ما تدبَّرتُ أدبـه بحقه من التدبُّر لاح لي أدباً رفيعاً يسطع بالأسلوب المشرق واللفظ المونق ، مع جدّة المعاني ، وسعة الاطلاع ، ورصانة التعبير ، فما هو من هذا الأدب المزعوم عند الأكثرين وكأنـه دويُّ الزنابير لا يُصغى اليه ولا يعرّج عليه ، لا ولا هو كهذه المشارات من اليَبْس والهشيم ؛ وانما ثمة الحياة نابغة بمعانيها وصورها على ما يكتنهها العقل الحكيم ، مجلوّة بحاضرها من ظلال القديم أكمل ما تنجلي في البصيرة النفاذة والحسّ الرهيف ، يرفُّ عليها من اشراق الخطوط والألوان مايكسوها حللاً من الجديدالذي يأخذ أخذةالسحر. فحيثما وقع نظرك على ما خطّه يراعه يطالعك بمثل المعاداة والتقاطع لما درجت عليه الأقلام مما لا وزن له في النقد ولا مساغ في الذوق ولا أثارة فيه من ابداع وتجديد ؛ ومعظمه وقف على المادّة الواهنة وعلى الاقتناص والتقليد ، وما حقه الا التداثر في مثل عصرنا الحاضر حيث تغيّرت الحياة واستجدّ فيها مـا لا يرتضي المقاييس الأدبية العتيقة التي ذهبت بذهاب أمسها الدابر .

ان أدب العجلاني ثورة على الأدب الأثري الذي لا يمادُّ الزمن ولا يشايع روح الحياة ، وما يزال اصحابه يلبسونه كل يـوم كفناً.

جديداً من طبعهم الضعيف ومنطقهم السقيم وتشابيههم الكاذبة وأساليبهم المتكلفة ومعانيهم الراكدة .

وانه لتغلب عليه الآراء المترجمة ، يدلُّ على ذلك حشره أسماء كثير من كتاب الغرب في ثنايا كلامه ، واستشهاده بآرائهم ، ثم التنويه بما مرَّ به من مؤلفاتهم ؛ فكأني به لا يفكر الا بعقولهم ، ولا يستمدُّ ما يرعف به قلمه الا من مدادهم ، ولا يرى لأدبنا العربي قائمة الا بالنقل عنهم كيما يتجدَّد دمه ويقوى بعصبه فيستردَّ سلامته وعافيته . الا فاسمعه يقول : « لقد أبدع أجدادنا ونقلوا ، فيجب أن نبدع نحن وننقل ، وربما تعمدوا أن يتركوا لنا شيئاً ، وكم ترك الأول للآخر ، فلنحمد لهم اذن حتى نقائصهم ، ولكن يجب ألاَّ نبقى حكماء مثلهم ، ولا أن نعيش بالارث الذي خلفوه وحده ، فما شيء أقبح من التقليد ، يقتل الشخصيات ، ويعطِّل سيل الحياة الذي يطلب دائماً بقاعاً جديدة ومجهولة » .

كذلك هو في أدبه غربي النجعة في مصادره ، عربي النزعة في موارده ، يولم لقراء قومه خير المآدب موقرة بالمغذيات والأطايب ، ويستحمل اليهم ما يحمل أدبهم على القوة تغلب على ما هم فيه من ضعف واستخذاء ، تهيِّئه لمثل الثورة على الجمود الذي حلَّ بهم على تراخي الأيام في عصور الانحلال والانقسام . ومن ثمَّ أسمعهم أصواتاً تهزُّهم هزَّة الشجرة يساقط عنه ما جفَّ وتيبَّس ،ثم هزَّة العاصفة تقذف بسفينة حاضرهم الى شواطىء جديدة مجهولة .

قرأته أول ما قرأته في مقدِّمته البارعة التي صدَّر بها الاستاذ معروف الأرناؤوط قصَّته الخالدة « سيد قريش » ، ثم قرأته في مجلة « الثقافة » الدمشقية ، ثم في صحيفتي القبس والنضال ، ثم في جلِّ ما صدر عنه .

واتصلت به عن طريق المطبعة ، ولم يكن يتعاظم أو يتصاون ، وهو يومئذ وزير للدعاية والشباب ، من الاختلاف اليَّ ، ليشرف على

بعض المطبوعات تنسيقاً وتدقيقاً ، فيضطر في بعض الأحيان الى مخالطة العمال ، فلا يتعرفه من لا يعرفه الا واحداً منهم أو رئيساً عليهم .

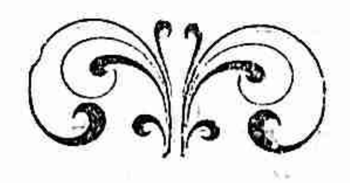
وكان من طبعه كتابة موضوعه، ثم تخوّله بالاضافات على ما يعنّ له ، فما وجد فسحة من الوقت فثمة زيادة من جديد ، وجديد من زيادة ، الى ما لا يكاد يكون له نهاية . من أجل ذلك كان طابعه التردّد في التزيّد والتنقّص ، وكانت كتاباته عرضة للحذف والتنقيح رغم ما في خطه من إبانة وتوضيح .

ومن أخباره التي لا أنساها ما دمت حياً أني قصدت اليه وهو يومئذ وزير للدعاية والشباب ، أستعديه على حكومة فلسطين الانكليزية بكتابة رسالة رسمية تشير الى أن المطابع التي ابتعتها من بعض اليهود إنما هي ملك صراح للحكومة السورية ، كيما يتيسّر لي الافراج عن حجزها هناك باعتبار أن القانون لا يسمح باخراج الآلات الثقيلة خلال الحرب القائمة . وانه ليبتدر تلبية طلبي ووصل يدي بملتمسي واذا بهاتف من القصر الجمهوري يدعوه على عجل ، فما كان منه الا أن تخلّى عن مكانه بعد اذ تناول رقعة بعنوان وزارته ووقعها كما هي بيضاء لأسطّر فيها ما أشاء . ولقد هالني هذا الذي أراه ، وزاد من هول موقفي أني سمعته يتوجه اليّ بالقول : أجل فاطبع فوق توقيعي ما أردت، واني لعلى يقين من أنك لن تخط بلساني الاّ ما عساي كنت أخطّه بلسانك ، لا اختلاف بيننا الا بالتوقيع .

وتجنّت السياسة في جملة جناياتها على صاحب «القبس» فعطّلت جريدته ، وملكت عليه حريته ، وتسببت لقطع رزق عياله وعماله ، فما كان من مترجمنا الاّ أن هبّ يسعى كمن تلذّعته أفعى كيما يردّ على هذه المظلمة بما يرتدّ ببعض المرحمة ، وما يهوّن من أثرها بمأثرة تغلب على شرّها ، فاستجمع نخبة من كتاباته ، وأرسل الى المطبعة يخرجها على نفقته ، حتى اذا هي تمّت اطلق عليها عنوان « أوراق »، وانطلق يجتنيها بعوائدها خالصة لأسرة القبس يخلصون بها من بعض ما نزل بهم وتورّدهم .

وكان مفهوم القوانين عنده ومقياسها العدل انها ما وضعت الا لخير الناس والتسهيل عليهم وتبصرتهم بحقوقهم وواجباتهم يقفون عند حدودها ما يتجاوزونها كيلا تكون مظلمة وسواة ، فكان اذا ما اعترضته أحوال تعارض فيها القانون والمنطق ، واختل ما بينهما على ما لا يستقيم عقلاً ، أو تساوى العدل عفواً على الظلم قانوناً ، أو غلب الخير بمادته من كنهه على المواد المسطورة في سوئها ، مال الى ترجيح الحسنى بما تقتضيه الحكمة ، وأخذ بحكمها دون النصوص بأحكامها، محتملاً في ذلك كل تبعة .

وما أعلم أني نظرت في ناحية من نواحي شخصيته الا رجعت بما يعجب ويطرب ، ما خلا الناحية السياسية في حياته ، وهي التي طغت على ما عداها ، فاستأثرت بخالص تفكيره وجلّي مواهبه ، ثم تسبّبت للكثير الكثير من مصاعبه ومصائبه . ولولاها لاستتبّت له الحياة هانئة قريرة ، وصلح به ما يرتد اصلاحاً وفلاحاً على أمته ، ولقدّر للأدب أن يجتني من ثقافته وأدبه إن لم نقل من عبقريته ثمرات يانعات لا يجتني مثلها الا في النادر القليل في الدهر الطويل .



ميخائيل الله ويردي

محيًا وضاح جليُّ السرِّ في شتى أساريره ومعانيه ، لا يكذبك الا فيما استقلَّ صاحبه من عِداد سنيه ، اذ يخيَّل اليك أنه في واقع العمر دونه في حقيقة الأمر ، بما يبدهك من آثـار الشباب في رَيْعه وميعته وليس فيها أيّما أثـر لتغضُّن أو تجعُّد أو تخدُّد مما يتلبَّس الوجوه في سن الخمسين فضلاً عمَّا فوقها . فلقد اجتمعت اليه شبه ألوان قزحية من نصوع الفجر وألَق الشمس وحمرة الأصيل ، فألَّفت ما يتألَّف النظر أنساً ورَوْحاً لولا تلك المَسْحة من التَّعبُّس التي ترنِّقه في بعض رونقه كأنها سحابـة الصيف تعترض السماء فتنغِّص رواءها وتتنقَّص سناءها .

وما أنت والله الا مصيباً شاكلة الصواب حين تزعم أن في هذا الوجه وداعة الطفولة وغرَق الصوفيَّة ثم الشرود الحالم الهائم .

فاِن فصَّلتُ في الوصف قلت مثل ما قال الشاعر :

وجــه" تميَّز بالمعانـي مثلمـا　　　مازت معاني الآي في الفرقان

فثمة الهامة تخفَّف منبتُها بالشَّعر بعد اِخصاب واِمـراع ، بيد أنه لم ينصل الا فـي العارضين كأنما أغارته البَشَرة اللَّماحة ببياضها من حياله فأشبهها ببعض فضيِّهامن قذاله ، او كأنما أغـار عليه جيش المشيب فلم يُصبه الا لمـاماً في ناحية لمَّتيه . وثمـة العينان تعكسـان من نظراتهما مثلمن أمعن فيتيه من أحلامه، لايتنبـه لغير مشاغله من داخله . ثم الحاجبان زُجَّ ما بينهما زاويـاً عن فطرة وخلقة لا عن حنق ومغضبة . ثم الشارب وكأنما تخفَّف من جانبيه

كيما يستريح الفم من دونه ملء مرشفيه ، مستبدلاً بلدونة الرجولة في سَمْتها العصري خشونتها في مظهرها القديم . ثم الأنف الأنوف ينم عن الاستعلاء دون أن تخالطه الخيلاء . . . هذا الى جسم كالبرج اكتنازاً ووثاقة تموَّجت فيه العافية على استعفاء من كلّ ما يحول دون النشاط المهزوز والعزيمة الحذّاء والجَلَد على روازح الأعباء .

وأنت لولا مستَبَق العلم بأنه عربيُّ المحتِد ، اذن لما تظنّيته في قوامه وهندامه وفي رصانته وجدّيته الا أحد الفرنجة في دنيا الأعمال والمال ، أو ربما ذهب بك الوهم في خطأ القياس بين ضاحيه في ربالته وما استبطن من خفيّ سلائقه الى أنه التيّاه المختال والشّاذ في الأطوار ، لا مطمع في صحبته أو الاستئناس اليه في وحشته من جفوته . ولكنك ما إن تتّصل به عن قرب إتصالَ فكرٍ وقلب حتى ينقلب الرأي عندك غيره ، فتَحِل الولاء مكان الجفاء اذ أنت منه الى رجل تستشفُ من وراء مظاهره كلَّ أثير محبَّب ، من وداعة كوداعة الطفولة ، وسلاسة داخلتها الدعابة ، وسراوة في الشمائل والخلائل ، وأريحيَّة ليس أطيب ولا أخلص منها عنصراً وجوهراً .

كذلك عرفتهُ أحدَ قلائل ممن عُرفوا بمثاليّتهم في خلائقهم وعصاميتهم في مآتيهم . ولقد تأدّى اليك من الأولى ما يدلُّ منه اليسير على الكثير ، وما يستأديك الاعجاب فضل إعجاب ، أما الأخرى فتستبين في بديئة ثقافته ، وهي التي لم تجاوز وضعها من تواضعها كثقافة أوّلية لا تغني في الجداء ، ولا تتعالى في البناء ، وتجتزىء بالبدَهيات القريبة على مشقة واستكراه . ولكنه على هذا الفقر العلميِّ لقد تهيّأ له أن يجري سبّاقاً الى أقصى الغايات في كثير من المجالات ، بل هو قد أمعن في التحصيل بما يحكي المستحيل . وهل أعجب ممن لم يترشّف العلم الا ترشُّفاً ، ولم يتيسَّر له منه الا اليسير وما دونه ، ثم هو على ذلك لم يلبث أن أصاب بجدّه وطول مصابرته من أفانين المعرفة ما لا قِبَل بمثله الا لأمثاله من المجدّين الطامحين ؟ أما انه لقد برع في نواحٍ من عبقرية الفكر والفن حتى جلّى وأبعد ، وجدّد وأبدع ، وبخاصة في دنيا الموسيقى التي وُفق متفوّقاً الى

التجديد في قواعدها والتوحيد في لغتها ، فبرهن بذلك على خاصة الاجتهاد التي يعوزُ فيها المنال ويعزُ منها المثال .

فان سألت بعدئذ عما صَدَرَ عنه من المؤلفات فثمة مؤلفه الشهير في « فلسفة الموسيقى الشرقية » ، ثم كتابه « هرمنة الأنغام الطبيعية » ، ثم بحثه في « مشكلات السلّم الموسيقي » ، ثم محاضرته « الموسيقى في بناء السلام » ، وهي التي ألقاها في مؤتمر الاونسكو ببيروت عام ١٩٤٨ ، فأعقبته سنيَّ الاعجاب والألقاب ، وحظيت بالترجمة الى الانكليزية والفرنسية .

زد على هذا الفيض من النتاج الفني مآثره الأدبية ، فله ديوانه « زهر الرُبى » ، و « بدائع العروض » ، و « الأدب في بناء السلام » ، هذا الى فصول مستفيضة في الأدب والاجتماع والفلسفة طالما حفلت بها الصحف والمجلات في الوطن والمهاجر .

تلك جملة من القول في عصامية مترجمنا العلميّة التي هيأته لجائزة نوبل للسلام عام ١٩٥١ ، وتقدير الاونسكو وغيرها من المحافل العلمية العالمية . وليست عصاميته العملية بأقلَّ شأناً وخطراً ، اذ كانت في آيتها من أبلغ ما تُستحمل عليه النفوس هماً ، وأقصى ما تتسع له القلوب عزماً . فلقد تحرّكت به أيامه كحركة دائبة في سلسلة من المآتي الجليلة المتعاقبة ، على نحو هؤلاء الذين يشذون فيتجاوزون الى ما وراء الحدود بالمطامح والجهود .

عمل في التجارة الحرّة ، ووُكلت اليه في المحاكم أحكام الخبرة ، وأسس جمعيات ونوادي عدّة ، وشارك في عضوية لجنة التعويضات عن العدوان الفرنسي ، ومجلس الاذاعة السورية ، واللجنة المشتركة لاصدار الطوابع البريدية . ولقد زار معظم الاقطار العربية والاتحاد السوفياتي وبلاد يونان وتركيا وغيرها .

ولو ذهبت تستجلي حقيقته في مستوفر مآتيه ، وآيته في استبشراف الكثير من الجهد الذي لا يتّسع لمثله الوقت ، ثم تقصّيت

ذلك بأسبابه ، اذن لوجدتَ مردَّ ذلـك « شخصيته المضاعفـة » ، وما هي لعمري بالقليل لأنها تجعل من صاحبها أمة من الرجـال في اهاب بعينه ، كالكنز هو في مسماه واحـد ولكنه انتظم جمـلة من الجواهر والفراقد ، وكالجمال الباهر الساحر يتميَّز بكونه محاسن متوزعة في حسنٍ جامع .

لقد صحبتُ المترجم عمراً من السنين يَربي على الثلاثين لـم أجرِّب عليه في خلالها أيَّ غميزة من مأثمة أو معصية ، ولم أره قط في طبيعته بينه وبين نفسه غيره في غيرها بين الناس . بيد أن شيئاً واحداً كان وما زال يأسفني منه فأنحني عليه لوماً بسببه ، وهـو انصرافه عن الزواج ، وتأبّيه عن استجابه داعي الحياة في الانسال، وايثار العزوبة في آفاتها على الحياة الزوجية بتبعاتها. ولعلَّ له في ذلك عذره .

وما اكثر ما كان يختلف اليَّ في المطبعة وهو الذي خصَّني باخراج جلِّ آثاره ومطبوعاته ، فنجلس على أحاديث نذهب فيها كلَّ مذهب لتعود الى خاصتها من حياة الفكر والأدب . وكان من طبعه مخالطـة العمال والتحبُّب اليهم بما يسوقه من مستفكه الاحاديث العـذبة ، وبما يخلع عليهم من أوصاف ونعوت محبَّبة . وكنت أغضي على ذلك عن علم ، لا انكر عليه ما انكره على غيره في هذا الشأن ، لأني أرى في ذلك مشترك الخير ، اذ يهوِّن على العمال بعض عنائهم من جهـة ، ويجد هو من جهة اخرى بغيته من استمالتهم واستثارة هممهم .

ومن عادته في تقديم مخطوطاته للطبع ألاَّ يصدر عنها الا مجوَّدة الكتابة ، مجرَّدة من الطمس والحشو ، منقَّطة الفواصل والمقاطـع، موسعاً ما بين سطورها ، تغري بالمطالعة ، ولا يجد فيها البصـر أي مشبقة ، وهي مزية قلَّ من يرعاها من المؤلفين عندنا .

واني لأذكر فيما أذكر من أخبار المترجم أنه لما حمل اليَّ مؤلَّفه الكبير « فلسفة الموسيقى الشرقية » ليستأنس برأيي في اخراجه إمَّا اقداماً أو إحجاماً ، ونظرت في موضوعه وما عسى أن يكون من

وضعه في الاقبال أو الكساد بعد طبعه ، ثم ما عسى أن يتورَّده في ذلك من خسار ويأس ، لم أكتمه النصيحة في العدول عما هو في شأنه أو التريث في الأقل الى حين . ولقد خيَّرته يومذاك بين اثنتين : إمَّا الطباعة تعقبها الخسارة ، أو الانكفاء يكفيه الخطار بالمال، فآثر الأخرى ، وكان من بعدُ ما قدَّرت . وما أراه والله بالملوم وهو البصير الخبير بأعقاب الأمور ، لاتكاد تخفى عليه خافية ، اذ كان نتاج الفكر كنتاج القلب على سواء في الايثار والحب إن لم يكن أقوى وأظهر ، فهو في عين صاحبه لكالوليد في عين أمه ، والمال عند مجتنيه ومقتنيه ، أو إن شئت فقل انه قطعة من لبّه وقلبه ، وعنوانه في مطاوي عبقريته ، وصفحته في ذكراه بعد انطواء صفحته.

والملاحظ فيما صدر عنه مترجمنا من تآليف أنه يتميز بالفكر الرياضي مما لايصبر على مطالعته الاكثرون لأيامنا حيث شاعت السطحية شيوعها في المطالعة ، وانصرفت الأذهان عما يتّصف بالجدّية والعمق . والى هذا مردّ اقتصار الخاصة على مطالعته دون العامة ، ثم فقر مكتبتنا العربية بالزاد الفكري الدَّسم من جهة وغناها من جهة أخرى بالسهل الخفيف .

واذا كان لكل كاتب وأديب منزعه الخاصّ يدير عليه القول ويستشرفه في تفكيره ، وينتجيه في سرّه ، وينتحيه أبداً ما يتنحّى عنه ، فمترجمنا ما من شك ممَّن شغلتهم فكرة بعينها وهي فكرة السلام بين الأنام حتى لقد استأثرت بخالص لبه وقلبه ، وجرت على لسانه محدثاً ومحاضراً ، وعلى يراعه كاتباً وشاعراً ، وعلى مجمل آرائه باحثاً ومفكراً .

ولكأني به وهو الذي نشأ عليها بآياتها الباهرات من انجيله الجليل قد تعبَّدته منذ الصغر الى أن تخذ منها مبدأً لاحيدة عنه في انتجاع الحياة الكريمة الدائمة ، ثم فلسفةً لاسبيل بغيرها الى التآخي البشري على اختلاف أجناسه وألوانه وأديانه ومذاهبه . وما أحسبه في مثل زكانته وتوقّد بصيرته الا الموقن في سرّه بأن

السلام الذي نشده على نحو من تقدّمه عبر الأحقاب والعصور البعيدة ، انما هو في واقعه حديث لاحداثة فيه ، وحقيقة من خيال لا خيال حقيقة راهنة ، بدليل أن البشرية ما عرفت في تاريخها المعرق في القدم غير الثبات على النزاع والخصام والشقوة والمطمعة. بيد أن المبرّر الوحيد في الدعوة السلمية وواجبها في مدّعاها انما هو أنها الصيحة الرادعة والاداة الكابحة ، شأنها شأن الفرامل في الآليات تحول على قدر دون انزلاقها ، وتكفل لها بعض الأمان في مدارج طرقها ، الا أنها لا تملك بوجه من الوجوه أن تستوي القدَر الحاسم في حتمية الحياة في متباين منازعها الى النزاع والاختلاف.

وبعدُ فلنجمل بعد تفصيل لنقول ان للاستاذ الله ويردي من مثاليته في مجمل حياته ومن عصاميته في علمه وثقافته ما هو قمين بأن يعتزّ به وتعتز أمته بمثله . وبحسبه أنه من القلائل المرموقة في الشخصية المتضاعفة . وذاك هو فضل العطاء يؤتيه من يشاء ، ولقد واتاه توفيقاً ليوافق معناه من اسمه ، ومسمّاه من معنى ذاتيته .



نظير زيتون

لكأنك من الاستاذ زيتون باعتـدال قامته ، ونصوع بشـرته ، وتنضّر كهولته ، ثم القبّعة التي استدارت بهامتـه ، والأناقـة في هندامه ، كأنك من هذا السّمت والمظهر تلقاء أحد الأجانب الزوّار قدم من وراء البحار ، بيد أنك لاتكاد تستمع الى حديثه ونبرات صوته ولهجته بالفصحى من لغته حتى يذهب ماكنت فيه ، ويواتيك مالم يكن يتخطر لك على بـال اذ يتكشّف لك عن عربي قحّ جمـع بـين الحسنيين ، بين العقيدة العربية ومعانيهـا في مخبره ، والحضارة الغربية ومطالعها في مظهره .

فان تدبّرته من بعدُ في شمائله وخواص خلائقه ، وقفت منه على ما يستوقفك حباً واعجاباً ، ويقيمك ويقعدك نشوة وطربـاً ، فما تدري ما تأخذ منه وما تدع ، وما هو الأجمل فيه والأروع ...

مساهلةٌ تقطر سلاسة ودماثة كأعطاف النسيم ، إلاّ انها موردُ قوةٍ وصلابة في الخلق القويم ، تلاين وتغمض في إباء ، وتياسـر وتلاين في مثـل الاشفاق والرثاء . فهي القـوة تتبدّى ضعفـاً ، والضعف أسمى ما يكون قوة ..

ووفاءٌ أصيل عريق ما تعرّف يوماً أيَّ طريق الى الجحـود او الجفوة ، يتوافى أبداً على مشرعة الودّ ، حافظاً حرمة العهد ، ويستوري ما توارى من الذكريات متلهباً متوقداً كأنه شيء من الدم ، وتستميله العوارف يصطنعها عند الناس ويتشكر لصنيعها عنده ، ما يميل قطّ عن ذلك .

وتواضعٌ يخيّل للمتمرّس به أنه في سهل خفيض من دنيا الأخلاق بينا هو في ذروة علياء من الأباء تناطح الجوزاء . فهو في روعته كالشمس معنى من معاني السماء على الأرض ، وهو في خيره كالشجرة تأوّدها ثقل حملها فانحنت متأوّدة الأعطاف ، متطأمنة المناف ، ثم هو يتشامخ تعاظماً فوق عجرفة المتكبرين ، ويتصاغر متوادعاً دون المتواضعين ، ليكون الرحمة الوازعة للأولين والرحمة الواسعة للآخرين .

ووطنيةٌ هي في عالم ذاته قرآن بذاته ، لها قداسة السماء ، وكرامةالانبياء والأولياء، وواجبالتضحيةوالفداء . لقد تعبّده وطنه منذ حِدثانه وطراءة سنه ، ثم زاد في تعبّده فراقه الى المهاجر ، وليس يذكي حبّ البلاد مثلالبعاد ، وعلى ما لقي منعزٍ وخير ورفاه وتحقيق لكثير من مناه في موطنه الجديد من العالم الجديد لم ينس وطنه الأول اذ كان لايغتمض له جفن الا على ذكراه يتخالجه فيحلمه، ويدوّي في أذنه ، ويترجرج على لسانه . ولا عجب وثمة أمّه التي احبّها وأهله وصحبانه ومواطنوه ، وثمة التربة التي رأى فيها النور أول ما رآه ، ومرابع الطفولة ومراتع الشباب ومعاهد الدراسة ، وما كان أوفاه لوطنه وهو يخوض المعارك بقلمه دفاعاًونضالاً لنصرته، ثم ما أوفاه وقد حثّ المطيّ عائداً اليه لا ينفك في جهاده يؤرث نيران الحمية في مواطنيه ويعلن عن مجد العرب في شتى معانيه ، ويسفر بين بلاده والمهاجر رسولاً كريماً يوثق الأسباب والأواصر .

ولنضف الى ما تقدّم من أوصاف المترجم مَرَح الطبعورصانة الحديث ، ونشاط الهمة ، والتعفف وعدم التزلّف ، ثم الحنكة في اختلاب الصداقة ، والبعد عن تصفّح العيوب أو حَذْر الطّرف الى ما ليس له . ثم العطفَ على المتأدبين يأخذ بيدهم ، ويشدّ منأزرهم ممتهداً لهم طريق الشهرة ، على غير ما عرفوه في سواه ممن لميبلغ بعض مداه في قدرته وشهرته .

وصلت بيننا المطبعة بما خصّها من تآليفه ، فكان كسبي منه

مكاسب ، عملاً مادياً ، وأدباً سنياً ، وودّاً سرياً ؛ بل كان لي منه جوهرة جديدة في عقد صداقاتي مع الأماثل من مثله في جماع فضله، يجمل بهم وجه الحياة اذ يغلب أنسهم على وحشتها ، وصفوهم على كدرها ، وسموّهم على خسائسها ، وما أعرف والله صداقة أوثق وأمكن من هذه التي بنيت على التجاوب الفكري والروحي ، وجلّت بتجردها عمّا يشوهها من منازع الملق والمخالبة ، واستحصدت فما تَصَرمُ من أسبابها عوادي الدهر ونوازله ، اذ كانت أقوى على الدهر من الدهر نفسه يتقلب وهي ثابتة ، ويتوالى وهي على الولاء ما تريم .

أخرجت له مطابعي جملة من الآثار ، منها كتابه عن الشيخ ابراهيم عطية ، وقد أدار فيه القول على مناقب الرجل في فضله عقلاً وعملاً ، وبخاصة ما تعرّفه من مقدرته اللغوية وحياته الصحفية . فلا يخلص قارئه الا بالعجب والاعجاب بمثل هذا العالم العامل نزح غريباً عن الديار الى ما وراء البحار ، ولبث للعروبة ابنها البار يوليها حبّ قلبه ونتاج لبّه .

ومنها كتابه « في ذروة الوطنية » ، وهو سجل حافل بالمآثر والمفاخر لأبنائنا في المهاجر ، عدّد مآتيهم الوفيرة الأثيرة ، في انشاء المعاهد والمدارس ، والمنتديات والمجالس ، والمستشفيات والمبرّات ، وما اليها مما وسم مهاجرينا في نظر الأجنبي بالفضل والنبل والجدّ والأيد ، وبوّأهم بوطنيتهم معالي الذرى بالنسبة للسّوى ، وعقدلهم تيجان الفخر على مدى الدهر ، وأرسل الحجة قاطعة جامعة على أن ابن الشام هو هو ابن الأمجاد المؤثلة ، وسليل أولئك الأجداد الذين نشروا على العالم راياتهم الخفاقة بنور العلم والحضارة والعدالة .

ومنها قصّته « ولادة أمة » ، وهي التي استوحاها من حملة العدوان الثلاثي الأثيم على قناة السويس ، فصوّر فيها ما اعتلج في صدره وفكره عن هذه الجائحة الكافرة التي انقلبت على جناتها بالخزي والعار ، وتوّجت العروبة بأكاليل الغار ؛ وأعادت الى الأذهان بطولة أولئك الميامين الصناديد الذين انبتتهم الصحراء فراحوا بقوة

بأسهم ومراسهم ، وقوة ايمانهم وعقيدتهم ، يدكّون بأقدامهم عروش كسرى والروم ، وينصبون راياتهم في المشارق والمغارب ، حاملين اليها صوت السماء أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر . ولقد كان في سطوره وما بين سطوره وصّافاً بارعاً ، ونقّاداً رائعاً ، عرف كيف يطوي كلامه على التهزؤ والاستسخار ، ويصبُ معانيه لعنة على البغي والاستعمار . وما أذكر أن أحداً ممن تصنعوا للكتابة عن حملة العدوان نهج نهجه ، وفلج فلجه ، وتطوّع له من قوة السّرد ، واطراد السياق ، وجودة الحبك والسبك ، والتوفية على الغاية ، بعض ما استطاعه أديبنا . ولسوف تطالع الاجيال تلو الاجيال حادثةالسويس التاريخية بملابساتها وتفاصيلها ، ولكنها لن تطالعها في صورها من القلب والروح كما صوّرها قلم أديب المهجر بقلبه وروحه أسطورة خالدة من الفن الرفيع .

ومن آثار مترجمنا «الشهيدان» ، وهما : الزهراوي وسلئوم ، ولقد استحيى ذكراهما في وطنيّتهما الشائعة شيوع الشمس تغمر دنيا العروبة في كافة أنحائها ، لا حصر لها ، وأسكر الأرواح بمثل بنت الحان نشوةً بمآتيهما في مقارعة الظلم والطغيان ، ومعانيهما في قصة التحرُر العربي والبطولة العربية ، ورتّل لهما بلسانه ولسان الآلاف المؤلفة من بني قومه آيات الشكر والثناء متهلّلة الضياء ، مدوية الأصداء ، صدّاحة بالعزة والكبرياء ؛ وفخر ببلدهما وبلده «حمص» أن تنجب الابطال الشهداء ، وتحبو التاريخ بصفحات تمور بشرف الجهاد وصدق البلاء .

هذا الى كثير من المحاضرات كان يدعى الى القائها في شتى المناسبات ، وكثير من المقالات كان يزيّن بها الصحف والمجلات أو صدور المؤلفات ؛ وكلها آيات بارعات في فن التفكير وفن البيان والتعبير ، يقتل فيها موضوعه تدبراً ودراسة ليبعثه حيّاً بأخصّ معانيه ، خصباً بما يمدُه من صَوْب فكره وحسّه ، مبيناً عما استشرفه من غاياته الشريفة ، لذاً مشوقاً كأنك منه في طعام شهي هني .

ولا عجب ، وهو الذي تفرّغ للأدب ، ما يرضى عنه بديلاً بالحقيقة التي تعشقها فراح يتحققها في كل ما يعرض له ، ولايشوقه ويلذه مثل أن ينصرها ويسني من خطرها ، ويستطلع شمسها ويمنع طمسها . وليست الحياة والكون بصورة أعم الا الحقيقة الكبرى في نظره ، وهذا الذي يؤلمنا ويشقينا فيها انما هو بعض عوارضها مما يسعنا الطب له بيسير من الحكمة والتدبر مع الرضى والتسليم ؛ وتلك هي الفلسفة الناصحة .

أجل ولقـد انفرد للأدب خالصاً ، فقد الكثير مما امتلكه الناس ليملك العزيز مما فقدوه ، فقدالثروة الكاملة تصافح كفه ، والمستغلات يجبى اليه خراجها ، والوظائف تبوئه معاليها ، وما الى ذلك من حطام يتصنّع له الأنام ، ولكنهملكثروة منالأدب ومستغلاتالفكر ووظائف التفوق والسيادة ، مما يستوي استواء الجوزاء تطاولها الغبراء ، أو استهواء ما هو باق خالد لا يزول تلقاء ما هو للفنـاء والعفاء يحول. ومن ثمّ كان لا ينكر مثل ما ينكر البهارج في بواده مظاهرها ، ولا تستخفه الا معاني الأشياء في جواهرها . وقد تبدّى ذلك على أتمّه فيما صدر عن قلمه وما ردّده بصداه ليرتدّ عبرةوتبصرة فيجدواه.

لقد جرى بقلمه جولاً صولاً فـي موضوعات فكرية وأدبية متعدّدة ، وكان في جلّها مُقرناً مجلياً اذ شأى في ميدانها شأوه لا يلحقه لاحق أو يسبقه سابق ، وبخاصة ما كان منها في الحديث عن المهجر في أدبـه وحياته وتاريخه ، فقد تأدّى له من العلم في هذا الباب ما جعله مرجعاً كالمعجم يستعان به تصويباً وتحقيقاً . أضف الى ذلك ما زوّد به فن النقد الأدبي من ذخيرة قيّمة لو هي جمعت في سفر بحياله ، اذن لجاءت صوراً من الأدب الحي والنقدالسري في ايقظ معانيهما واقوم مسالكهما وأصوب أهدافهما ، ثم طريقة مثلى يتأثرها المحتذون في النقد .

وان في اسلوبه لما يـدلُّ على التبحّر في اللغة والتمكن مـن اسـرارها فـي صيغها ومفرداتها ومتواردها ومترادفها ومرسلها

ومسجعها ؛ تطالعه فيما يدبّج فما تستوقفك جملة ملتوية أو كلمة معظلة نابية ، كأنما أنت منه تجاه جدول يترقرق ماؤه ، وتلتمع حصباؤه ، أو روضٍ رقّت نسائمه وتنضرت أوراده وأينعت ثماره ، فحيثما وجهت البصر واجهك الحسن شائعاً ، والنور ساطعاً ، حتى لكأنك في جنة كاملة على الارض ولكنها بعض فردوس السماء .

بيد أنه ولع بالسجع حتى جاوز فيه الحدّ ، وجوّز فيه لنفسه ما لا يحمد . ذاك رأي بعضهم ، ولا رأي الا بحجة ، وحجتهم التي لا حجة سواها أن الأدب المعاصر يأبى التكلّف الآسر ، ولا يرضى بالكلمة الا بمدلولها القريب المنحصر ، ليكون المبنى طباق معناه، دونأي تزيّد أو تنقّص . بيد أنهم ينسون أو يتناسَوْن ان لغتهم هي لغة القرآن، وأن القرآن حفيل بأفانين البديع والجناس والكناية والاستعارة وما اليها من التحاسين ، وما أنزل لزمنه الا ليمتد الى سائر الأزمان ، فأحر بالاقلام أن تذهب مذهبه ، وتقتصّ أثره ، وتترسّمه في بيانه، ولعمري ما ضعفت العربية وتصاغرت وذهب ريحها وتضاءَلت الا يوم مال أهلها عن فصيحها والبليغ المأثور من صحيحها ، وما أجدبت رياضها الا حين أوثر فيها الشوك والقتاد على الأزاهير والأوراد ، بل ان بلاغتها الساطعة لم يخفت نورها طامساً الا في الزمن الذي تسكعت فيه الأقلام آخذة بالعامي والسّوقي ، متكئة على الواهي من التراكيب والركيك من الكلام . وأين أين المعنى تلبسه ثوبه من اللفظ على قدّه ، فلا يطالعك بمثل ما يطالعك المعنى خلعت عليه أفوافاً من الوشي والزينة فاذا هو معان متضاعفة من جماله أشبه ما يكون بالرود الفتانة اكتست على جمال جسمها جسماً آخر من الجمال ، فكانت الجوهرة سطعت بالنور فوقها ففاضت جواهر من نورها في كل جانب !

تلك دعوى علمت ما علمت من حديثها ، وثمة أخرى نوافيك بنبئها ، فالكثيرون على ان العصر عصر سرعة في كل شيء ، فلا بدّ فيه من الاختزال في الأدب ، لتتوفر السرعة في المطالعة . وانه لقياس فاسد اذ كان المرض مطلبه الصحة ، وليس من مقتضى الصحة

أن يطلب فيها المرض . وما السرعة في عصرنا الا آفة كغيرها من آفاته فان صحّ أن تشترط لزاماً في فنون الأدب وجب ان تشترط فيه الخلاعة والميوعة ، والمادية والأنانية ، وسائر ما يختلج عصرنا ويتورّده ويعرج به عن سواء السبيل ، وهو ، كما ترى ، مما لايقول بمثله عاقل أو يجنح الى اعتلاقه الا ذو الرأي الفائل .

ثم ما ذا فيالسرعة غير البعد عنالاحسان والاجادة اذا ما اتخذها الأديب أداة وقاعدة، وماذا في الاختصار والاختزالغير التضييقعلى القارىء فلا يجد من الغذاء ما يرتع فيه ويصيب الى أن يتملأ ويهنأ . وهل خلدت الآثار الأدبية الا لأن العقول جوّدتها وأنضجتها على مهل ورفق ، وهل استوت نزهة للفكر والحسّ عند القراء الاّ لكونها استوفت من حرية التبسط والافاضة نصيبها ، وفسح لها المجال في التعبير على ما تقتضيه براعة التخيل والوصف والتلاعببالحبك والرصف ، والإطالة حيث لابدّ منها ، والايجاز حين يتطلبه الاعجاز؟ أليس ثمة ما ملأ الصفحات متوالية في وصف غادة بمحاسنها ، أو حديقة بمفاتنها ، أو غرفة برياشها وزينتها ، أو ليلة باستحكامظلمتها وزمهرير بردها ومخاوف أشباحها وتمطّي ساعاتها ، وفي الحب هلاّ ذكرنا الفصول التي لا نهاية لها يدور فيها القول مفصّلاً بدءًا على عود ، وعوداً على بدء ، وفي كل جملة معنىً بِدْع ، وتشبيه غريب ، وكان من اليسير في كل ذلك أن يجتزأ بالكلمة أو الكلمات اختصاراً ، فيتأدّى المراد ولكن دون ما تريده العبقرية الفنية والروح الأدبية ، ودون ما يبعث في القارىء النشوة المعنوية ويستثير فيه ما يهزه ويفتنه طرباً وعجباً . أما ان الأدب لهو صورة الحياة في نواميسها العامة ومعانيها الرحبة المستبحرة وأزمانها الأزلية الأبدية ، فاشتراط السرعة والاختصار فيه كالاشتراط في ألا تكون الحياة على ارادتها متّسقة في جريها ، مترامية متمادية في حدودها ، خصبة فيشتى مجانيها ، وهو ما لايكون لأنه منافٍ لسنة الكون .

ونعود الى مترجمنا لنزعم بأنه يصطنع الكاغد رقعاً مستطيلة بحجم حقول الصحف ، ومن عادته التأنق في الخطّ ومشق الحروف

مع شيء من المقاربة بين السطور ، ثم تشكيل ما احتاج الى التشديد أو التسديد ، وقلّما ثوّر أو طمس على الكلام معيداً . وعلى الاجمال تجد خطه مما يأنس اليه النظر كأنه الوشي المحبَّر، أوكأنه في تحسينه ولباقته مرآة صاحبه في حسن خلقه ولباقة ذوقه .

أما عن أخباره فقد قضى شطراً ليس باليسير من حياته في البرازيل[1] ، ثم عاد الى وطنه ، والى حمص بلده ، ليعيش بين أهله وأصدقائه والمعجبين بأدبه ، ولا يتحول عن سكناه الى غيره وبالأخص دمشق وبيروت الا لداعية من محاضرة أدبية أو اجتماع في مجمع اللغة العربية ، وهو عضو فيه ، أو سوى ذلك مما له صلة بالثقافة والطباعة . والعجيب العجيب أنه على رجولته وفحولته ، ومحمدته وشهرته ، ونعمته في عيشته ، لم يدخل محراب الزواج ، وما زالت الحياة عليه عتبى ان لم نقل غضبى اذ ما يزال يضن عليها بالنسل ذرية تخلّده الى جانب ما يخلده من عبقريته .

وكنت أطبع ديوان شعر لأحد شعرائنا الناشئين ، وقد وصلت بينه وبين المترجم على أن يكتب له المقدمة ، فما تأبى ولا استكبر ، واستجاب على الأثر ، وكان ذلك شأنه مع كل من يقصد اليه ، يصل يده بملتمسه ويقضي حاجته ، وكأنه المعنيُّ بقول الشاعر :

ما قال لا قطُّ الاَّ في تشهُّده لولا التشهُّد كانت لاؤه نعما

ولما وضعت كتابي «فن النجاح» قدَّم له بفصل من أجمل وأروع

---

(١) ترأس تحرير جريدة (فتى لبنان) اليومية في سان باولو ، وهي التي كان يصدرها العالم اللغوي الشيخ رشيد عطية . وكان مدة ربع قرن الموجه القومي والاجتماعي للجالية الحمصية أكبر الجاليات في سان باولو . وكانت « يومياته » تلقى صداها العميق ويتلقاها القراء في شوق واعجاب ، ويعترفون لصاحبها بقوة البيان ورمازة التفكير ، حتى ان الشاعر القروي كان يرسلها شعراً ليزيد من أثرها في النفوس . هذا وكانت له المواقف المشهودة في الخطابة ، كما كان أحد أركان « العصبة الاندلسية » . وفي هذا العهد صدر عن جملة من التآليف ، أخصها « روسية في موكب التاريخ » ويقع في جزأين كبيرين .

ما كتب في باب التراجـم الأدبيـة ، فجلا أيامي منذ رأيت النـور ليومي ، واستطرق للعصامية في طرازيها مـن حياة العمل وحيـاة الفكر ، واتخذ من ذلك سبيلاً الى استنهاض همم الشباب وشحذ عزيمته للمضي في الجـلاد والغلاب ، وما أشرفهـا غايةً أن يخلص الكاتب من المقصد الذاتي الى الغاية العامة بمقاصدها الشاملة ، فاذا هي ترجمة لحقيقة تفيض لتستوي حقائق من الحياة للحياة في أخصّ تراجمها .

وكنا ذات مرة في حديث عن الذي تلده مطابعنا لأيامنا وأكثره من الغث المهين والسخيف الضعيف في انشائه ، ومما يكذب بعضه بعضاً في معانيه ومطاويه ، وما الأصل في حـافزه الا التكسّب أو التزلف أو قنص الشهرة الكاذبة لا أكثر ، فما راعنـي الا ومحدّثي يصـدر عن آهة متفجرة لا يصدر عن مثلها الا المتوجّد الولهان ، ثـم يعقب فينحي بالملام على هذه الاقلام الرخوة القضيفة كيف تنزل الى الميدان قبل الاوان ، وقبل أن تستكمل عدتها مـن أساليب الجولان والطعان ، وأقْسَمَ أنه كثيراً ما قضى الليل تلو الليل بحثاً عن كلمـة في مظانها ، حتى ما يفوته معجم أو كتاب في اللغة الا رجع اليه تثبتاً وتحققاً . وزاد بأنه لايخشى مثل ما يخشى أن تمسخ العربيـة فلا تعرف بوجهها الأصيل بعـد الذي يراه في معظم الأقـلام ، وحتى المشهور منها ، من الرخاوة والاسفاف الى العامية الشائهة ، والأخذ بالهجين السوقي من الألفـاظ والتراكيب ، وبخاصة في صناعـة الترجمة وصناعة الصحافة . وأذكر أنني شاطرته رأيه ، وقاسمته ألمـه وملامه ، ما خلا جزعه على الفصحى اِذ أذكرته ما قد تورّدها على مرّ الأيام من الشعوبية والاستعمار وبعض أهلها ، وعلى ذلـك كله فقد خلصت كالجوهرة تلبّسها الغبار ، وستبقى لها مناعتهـا ونضارتها مهما يتعسّف بها الزمان ، ما دام لها حرزها الحريز من قوة الله في فرقانه ، وقوتها من أساطينها وجهابذتها ، وما خلا ولن يخلو منهم الدهر ، والمترجم أحدهم اِن لم يكن أوحدهم لزمنه ووطنه غيرة على كرامتها ، وتعهداً لحرمتها ، وصوناً لقداستها .

وداد سكاكيني

اذا شئت أن تجعل من كل حاسَّة وكل خاصَّة في المرأة ذاتاً بمفردها ، ثم تستجمعها في ذات واحدة بخيالها ، أو بعبارة أخرى اذا أنت تخيَّلت المرأة ربَّة دار ، وكاتمة أسرار ، وشريكة أمينة، ومربيّة قديرة ، ثم كاتبة ممتازة، ومثقفة نابهة ، وخطيبة بليغة ، ثم امرأة هي زينة بنات جنسها بما ازَّينت من علم وفضل ، وهي امتياز الأنوثة بين الرجال بما تميَّزت من رجاحة في العقل ـ قلت اذا أنت نَشدت مثل هذه الصورة ، تكشَّفت لك صورة السيدة وداد سكاكيني في خطوطها الواضحة وألوانها الناصحة ، وهي التي تمثل الشهيرات من نساء العرب في أيقظ أيامهن وإبَّان حضارتهن .

ولك من بعدُ أن تتعرَّفها بسيماها من خَلقها وخُلقها ، فترسم في الخاطر امرأةً نَصَفاً ، على مَسحة من السِّمن ، ربعةً في القامة، ناصعةَ البشرة ، ذات عينين قلقتين حيناً كأنهما في حيرة وحذر ، ساجيتين حيناً في مثل الاستغراق الفكري ، مرنَّقتين على الأغلب بسبب من ادمان المطالعة ، وقد شدَّت اليهما النظارات ليشتد بهما البصر متضاعفاً في الأثر ، هذا الى صوت أغنَّ كشدو الطير على الغصن ، ومشية رصينة رزينة كأنها الفذل لهؤلياء اللواتي يأبين في سيرهن الا التخطر والرعونة ، ثم سفور يسفر عن الحشمة والكرامة . . يزين ذلك كله ذكاء متوقِّد ، وحسٌ مرهف ، واباء في تواضع ، وودٌ ثابت الاصول تتزايل الرواسي ولا يزول ، وحَذَر مستوفز مستيقظ أبداً حتى اذا حدث فأغفت له عين لم تغفُ فيه عيون الاحلام حفيلة بالأوهام .

وُلدت في صيداء حاضرة عاملة ، وهي التي شبَّب بها الشاعر الشبيبي فوصفها بالملاءَة ولكنها من الورد يحلو لرائـدها الشم ، ووصفها الواقع الراهن بما عرف أهلها من حفـاظ على العروبة في محمود شمائلها ونبيل خلائقها وفعالها ، وقد تلقَّت ثقافتها الاولى في معاهد وطنية لعهد متزمت لا يعترف للمرأة بحرية العلم والعمل. ثم انصرفت الى الدراسة والتدريس معاً في مدارس لبنان وسورية، وما زالت حتى نمَّ عنها أدبها وذكاؤها كما ينمّ عبير الورد عن بعـد، فخطبها الأديب الشاعر الدكتور زكي المجاسني ، وكان مثلها معلمـاً مربياً ، فاجتمعا متوافقين على مشرعة واحدة من حب الأدب، شريكين في استشراف الطموح يعين أحدهما الآخر ، وتقوي بينهما وحـدة الهدف والنظر ، وكلٌ لرفيقه مرآة مجلوَّة يتبادلان فيها معانيهمـا على ما يزيدهما تبصرة ونجاحاً كما يزيدهما اعتلاقاً واتفاقـاً .

وهل لعمرك أجـدى على المرء من أن يجد الطريق الـى غايتـه وهوايته ممهَّدة المسالك ، واضحة المعالم ، تحفّه الحظوة ، فيتنقل الى النجح خطوة اِثر خطوة ، الى أن تستقيم له الحياة على ما أراد، ثم ينظر فاذا هو في نعمة مـن كرامة الشهرة وشهرة الكرامة !...

أما ان مترجمتنا لقد وفِّقت من ثقة زواجها بما وثَّق توفيقها في دنيا الأدب ، و اِلاّ فلو لم تبن بمثل قرينها الأديب من طرازها ، ولـم يتوافق ما بينهما من الهوى الأدبي ، اذن لخسرت ما من شك قسماً كبيراً من ثروتها في عبقريتها ولم توف على غايتها من طماحها .

ان من الناس من يسعون الى التوفيق ، ويتصنعون له بما أوتوا من حول وقوة ، الى أن يصيبوه مراغماً كاملاً أو شبه كامل ، وان منهم من يواتيهم التوفيق كأنما هـو الهدية لـم يركبوا اليها جـداً ولاسعياً ، ثم ان منهم من يخطب التوفيق ويمشي اليه ، فاذا هـو لايقطع اليه المرحلة حتى يراه مقبلاً عليه بمراحل ، وذاك هوالتوفيق الذي يحكي الوَدَق ينهال منهمراً في غَدَق ، ولصاحبه منه لذتان، لذة بذل الجهد ، ولذة موافقة القَدَر . ومن الخير أن كانت حيـاة

مترجمتنا صورة لهذا التوفيق الجامع الذي رضيت عنه العزيمة الصادقة وصدّق القدر في رضاه عنه .

ان أديبتنا لفي الطليعة بين قريناتها الأديبات ممن التمع نجم شهرتهن لأيامنا ، بل أنها لتشتئيهن بعداً في الامتياز اذ كان امتيازها على خاصتين ، فهي من جهة مثال المرأة الفضلى في أدبها الفكري وأدبها النفسي على سواء ، ثم هي من جهة أخرى مثال للمرأة تستوي في بيتها ملكة تدبّره وتدير شؤونه ، وفي أمتها أديبة موجهة تؤدي رسالة الفكر وتوفيها حقها . وما مثل هذا الامتياز باليسير عند من يروزه ويتدبره بحق معناه من التدبّر ، فيرى اليه نوعاً من امتياز الاعجاز في المعادلة والموافقة، لان من طبيعة الحياةالعملية انها لاتقوى الا لتضعف فيها ناحية التفكير بخلاف الحياة العقلية التي تستبحر لتشلّ حركة العمل ، فالجمع بين الحالين على تناقضهما لما يدعو الى العجب الذي يبلغ حدّ الاعجاب .

ومن المآخذ على الثقافة النسوية عندنا أن العلم على ما فرض فيه من تثقيف العقول وتقويم الاخلاق بما يكفل الخير والسعادة قلّما ارتجع على بناتنا الناشئات المتعلمات بما يبصرهنّ بمواقع الرشد ويهديهنّ سواء السبيل في القصد، ويعدل بهنّ عن المزالق والمهالك، ثم يخرجهن مُخرج القوة ايماناً ، والمناعة فضيلة ، والاحسان عملاً ، وينزلهنّ حيثما افترضت فطرتهن ومهمتهن في الحياة — وانما هو الى مثل البدر بنوره يداخله الظلام بديجوره ، فيلبسه غير زينته وردائه ، طامساً على صفائه وبهائه . ان بناتنا — وا أسفاه — يطلبن العلم ذريعة الى الشهادة الرسمية ، ولا يطلبنه غاية الى الشهادة المثلى في الحياة الفضلى، ومن ثم تجدهنّ لايدرسن العلم لذاته بما ينفعهن في ذات نفوسهن ، بل يأخذنه بظواهره وقشوره ، فاذا هو علمٌ خير منه الجهل لأنه الجهل زُيّف وزُوّر فصار مركباً مطبقاً . وأي علم هذا الذي يطلب ليخرج صاحبه من الظلام الى النور ، ويستولده في حياة جديدة ، ولكنه يعود من غايته الى الغاية التي تجعله من وجوده

في مثل العدم، بل يفضل عدمه وجوده ، ما دام لايغب غير المساوىء وغير الاسترسال في الضلة والعماهة . ثم ماذا في السنوات المتمادية في زهرة العمر ، تستنزف ما تستنزف من الجد والسهر ، وطول الصبر والقسر ، بغية العزيمة على العلم ليكون سلاحاً من العزيمة في الحياة ، ولكنه لاينتهي آخر المطاف الا انحلالاً في الخلق وتحللاً من الحرام وحياة كالقبر توأد فيها الفضائل والمكارم ؟.. أو ان شئت فقل أيّ خير في العلم يقود الى الخروج على الطبيعة فيتحوّل بالمرأة عن مملكتها في بيتها ، بين زوجها وصغارها وأهلها الى وظيفة في دائرة أو مكتب تبدو في ظاهرها مراد معيشة ومكسب ، فهي عفيفة شريفة المطلب ، بيد أنها في الباطن المغيَّب ليست غير الوظيفة التي يتدسَّس اليها الشيطان بكل مأرب .

ان العلم في شرعة عصرنا قد حوّل منزل المرأة المتعلمة الى حيثما كان دون منزلها ، ورفع من منزلتها حتى ما تتنزّل الى تربية أفلاذ كبدها وتعهُد شؤونها بنفسها ، وأطلق لها الحرية كيما تكون مباهج من حرية الفكر والشعور وانطلاقاً من أسار التعسف والاضطهاد ، فكانت حرية نَزَغات طاغية وشهوات باغية وتعسُّف في الخسائس والصغائر لا أول لها ولا آخر ، وبدلاً من أن تستوي حرية تتعرف حدودها فتقف عندها فقد تجاوزتها الى ما حدّ فيه ، وانها لرفع السَّوية ناهضة مستعلية لقد آلت الى هويّ وانحدار الى مثل البهيمية استهتاراً بكل مكرمة وفضيلة ، وانها للتبصرة تحذراً وتهدياً في مضطربات الحياة ، وللحسر عن وجوه الخير توسيعاً من آفاقه وتحبيباً بمحاسنه ، لقد باتت لاشيء مثلها يطلب منه الحذر ، ولا فتنة من اغراء واغواء الا أخذت منه بسبب ، ولا معنى هو نقيض معناه الا دلت عليه واستدل به عليها .

وما كان لنا ان نبسط القول فيما اسلفنا لولا انه محور الآراء عند مترجمتنا الأدبية ، فكانت في جميع ما املت تستملي نواميس الطبيعة والطبائع ، وتستقرىء الحقيقة والواقع ، لتبصر اختها المرأة

بحقوقها كما هي في نصابها تتفرع ما تتفرع ، وتتطور ما تتطوّر ، على ألاّ تخالف شرعة العقل وشرعة الدين وشرعة الاثنين من الحياة في فطرتها ، فمن حق المرأة أن تثبت في الكفاح عن حقوقها التي تجنّى عليها الظلم واحتجنها الغبن مع الايام ، وتثور ثورتها استعادة لكامل كرامتها وحريتها ، الا انها تجعل من نور حقها المبين ناراً مستطيرة تأتي على سعادتها لتحيلها ركاماً من الشقوة والألم حين تنحرف فلا تكافىء بين الحق والواجب ، مشتطةً فيما لها من المطالب بقدر ما هي تتراخى في المطالب عليها . وذاك هو الواقع الراهن في دنيا المرأة الشرقية لأيامنا ، وذاك ما تتصارخ الأقلام الرشيدة في التحذير من شره وخطره .

بهذه الآراء المحسنة المعتدلة وامثالها عند مترجمتنا فازت برضى العقلاء والمفكرين من الجنسين ، واذا دلّت في بحوثها على السداد في المحاكمة والسلامة في المنطق ، فان لها الى ذلك براعة أيما براعة في أساليب الوصف وبخاصة ما يماسّ المشاعر النفسية والمفاتن الطبيعية حيث جلت من صورها نثراً رائعاً وتشبيهاً واقعاً، وسطعت عليها من روحها أضاءات متموجة بالشعر كأنه السحر .

هذا ولها في التاريخ جولات ، وفي القصة آيات بارعات رفعتها الى مرتبة المتمكنين من الفن القصصي . ولطالما غذّت الصحف بثمرات من أفكارها ، وأرسلت على جناح الأثير أمواجاً من أحاديثها ، وهزّت منابر الندوات بالمختار من محاضراتها ، واستولدت المطابع عرائس من مؤلفاتها ، فكانت لعمري كالنبع الثّر لاينضب معينه ، ولا يزيده المتح مضاءً واستصفاءً الا عذوبة وصفاء .

اخرجت « الخطرات » و « مرايا الناس » و « امهات المؤمنين واخوات الشهداء » و« بين النيل والنخيل » و« أروى بنت الخطوب » و « انصاف المرأة » وغيرها وغيرها .

ولا اعرف بين الخطوط التي تسير بها انامل السيدات ما يضاهي خطّها تجويداً في التركيب، وتناسقاً في الوضع ، ودقة في التنقيط،

وترويحاً بين الحروف والسطور ، ثم بعداً عن الطمس والتحوير ، وهي تصطنع الورق الصقيل من الحجم الوسط .

وكانت معرفتي بها معرفة بعدٍ لاقرب كالكثيرين يتنوَّرهم خيالنا بخصائصهم وان لم تتنورهم العين بأشخاصهم ، وقد تصدق هذه المعرفة بحقيقتهم بما قد لاتصدق حقيقتهم عند رؤياهم ، لانها تستغرق في تصويرهم الى ما بعد المظاهر التي تتكذب فلا تدل على ما وراءَها ، وكثيراً ماتنطبع على البصر نسخة هي في مجمل خطوطها الباهتة غيرها فيما ينطبع على البصيرة من مغيباتها .

عرفتها عن طريق مجلتي « الانسانية » اذ كانت تبعث اليَّ بمقالاتها التي كانت تلقى من قلم التحرير تأييداً ، ومن القراء استحساناً . ولبثنا كذلك الى أن زارتني وقرينها على غير موعد ، فكانت مفاجأة ولكن من حيث الزمن لا أكثر ، اذ كان لي من مستبق المعرفة بأدبها وخلائقها وبصورتها من خلال آرائها ما لا يفجؤني أيُ مستجدٍ عنها من بعد .

ثم كان أن اعتزمتُ الرحيل الى مصر بغية التوفُّر على فن طباعة الروتوغرافور . ومن حسنات القدَر أن كانت السيدة وقرينها قد أجمعا كذلك على قصد مصر استزادة في العلم . فكأننا اجتمعنا على مشرعة واحدة ليعبَّ كلٌّ منا ما يبلُّ غلته ويَروع فؤاده ، أو كأننا ما اجتمعنا الا لنكون أقوى على حرب الغربة تجتمع علينا بكتائب عنائها ووحشتها .

وتضمنا القاهرة لنعيش في فندق واحد ، وغرف متحاذية ، كأننا الأسرة الواحدة ، نتطاعم ونتشارب معاً ، ونتوارد أطراف الحديث كأنما نتبادل فيها أكؤس الرحيق ، ونتجالى متكاشفين مآتينا طوال نهارنا ، ونسير الى زيارة كبار الأدباء والشعراء ممن عرفناهم وعرفونا .

ولطالما رايت في ولدي السيدة « ذكوان » و « ذكواء » ما كان يذكي في حناياي ذكرى اولادي ، فأمنحهما خالص العطف ، وأجلس

اليهما أستمع الى بريء لغوهما ، والساذج من دعابهما ، أو أقضي بينهما متنازعين ، أو أحتمل بعض عبثهما صاخبين . ولم يكن أندى على قلبي من صوت الصغير منهما يَقرع عليَّ الباب في كل صبيحة لأستمع الى صوته العذب كوجهه الصبوح ، يؤذنني بالنهوض لتلبية نداء المائدة بعد اذ تهيأ الشاي وما اليه من طعام ضاحك هنيء .

وان أنس لا أنس عطف السيدة وزوجها في تهوين ما كنت ألقاه من الصعاب ، فهو لعمري عطفُ الغريب على الغريب ، والأديب على الأديب ، وأنعم بمثله عطفاً هو اللّهب القلبي يتأجج غيرة واخلاصاً ، لتنصهر فيه النفوس متمازجاً بعضها ببعض على ما يجعلها روحاً واحدة تتجاوب في أجزائها المتفرقة ، وكأن فيه روح الخمر يزيد عبقاً كلما زاد عتقاً .

لقد كانت أياماً مشهودة تلك التي عشتها مع هذه الأسرة السعيدة، واذا عرفت السيدة سكاكيني كما عرفتها في دمشق أديبة نابهة لامعة ، فقد عرفتها في مصر من بعدُ ، من خيرة ربّات البيوت ، نهوضاً بالواجب تلقاء زوجها وأولادها وشؤون بيتها ، تفيءُ من علمها وذوقها وعملها على ما حولها جواً يجعل الحسَّ مستجداً أبداً اذ هو لايقع حيثما اتصل الا على البدع الجديد .

وما تمنيت مثل ما تمنيت أن يتكاثر في حياتنا الاجتماعية مثل هذه الحياة التي رأيت ، وأن ينجم بين سيداتنا وأديباتنا مثل النابهة سكاكيني التي ترجمت، وأن أطالع زواجاً سعيداً موفقاً كهذا الزواج الذي جمع بين أديب وأديبة كما يجتمع النور الى النور ، فيؤلفان الاشراق الباهر الغامر جمالاً هو أروع جمال في الانسانية ، وسعادة هي خير ما ينشد من السعادة في الحياة الزوجية ، ومجداً امتهدت اليه روح العصامية والعبقرية .



يوسف العيسى

هامة ضخمة الجرم كأنها التاج في قمة الجسم ، رصّعها من الشَعر الجثل الكثيف ، الا أنه آل الى شعيرات بعد اذ اسّاقط تساقط أوراق الشجر في الخريف .

وجبهة عريضة بلجاء اتّسع ما بين طرفيها كأنها السهل تعرّجت أخاديده ، فانطوت على جملة من التجاعيد والأسارير دليل طول الرويّة والتفكير .

وحاجبان متكاثفان نصل بعضهما وتحنّى الواحد على الآخر لا تجنياً ، بل ليظلّلا جوهرتين من العيون الواسعة أضعفهما الامعان من المطالعة ، فاستعانتا بعينين من النظارات لا ماسك لهما غير محكم تنزيلهما من أرنبة الأنف الفخم بمنخريه ، وقد أطلّ على الفم من تحته مستوياً مثله كأنما قُدّا على مثال واحد ، بينما حُفّ الشارب بينهما قليلاً من جانبيه ليضيق عنهما .

فان تخوّلته بعد ذلك في قامته ، ورطّلت بالنظر مقدار حمله من بدانته ، ألفيته وسطاً في الاولى ، ملءَ اِهابه لا أكثر في الأخرى .

زد على ما تقدّم رصانته في مشيته ، وأناته في حركته ، ثم الأناقة تقف عند الاعتدال في الملبس ، والاحتشام يتناهى في كل مظهر .

كذلك عرفت العيسى في اوصافه ، وكذلك يشاركني وصفه كل من عرفه . اما سيرته في خلائقه ، ما علَن منها ومابطن ، فالحكم فيها

الى اختلاف واتفاق في ناحية دون ناحية ؛ وليس بالحتم أن يكون ثمة اجماع اذ كفى المرء أن تعدَّ معائبه .

وأحسب أن الخاصَّة الأولى في مترجمنا هي «الكرامة» : كرامة النفس والقول والعمل ، اذ كان في حياته آية في نزاهة الطويَّة ، وشهامة الأريحية ، وسماحة السجية ، ثم سجاحة الخلق ، وسلامة الذوق ؛ كما كان في كتاباته وأحاديثه عفَّ القلم واللسان ، مهذَّب الكلام ، بصيراً على جانب من الحنكة ، اذا ما امتدح أو اقتدح لم يسترسل مُغرقاً مفيضاً في الحال الاولى ، ولم يجرح مُعَنِّفاً أو يجمح متعسفاً في الاخرى ، وانما أرسل المديح ندياً عذباً لا يتجاوز الى المصانعة والمراوغة ، ولا يخالطه بذل الجهد في تزويـر الحمد ليكون معنىً من الابتذال ؛ وأرسل النقد جارحاً صارخاً ولكنه منطوٍ على الرفق انطواءه على الصدق ، شأن الطبيب يأسو الجرح فيبضعه ويبزغـه في برحاء من المألمة وهو لا يكنُّ في قسوته الا المرحمة .

ولا عجب وهو هو مـن استحصاد التفكير وبعد مرمـى النظر وصدق المنزعة ، لا يـدع أي سبيل لقلمه أو لسانه أن يغلب عليه فيجمح ، ولا لنفسه أن تستنيم للهوى فتجنح ، وانما أداته الأنـاة والعدل في القول ، والأخذ بالتحذر اتقاء التعثر في كل مايصدر عنه.

وما أشك في أن فضيلة الكرامة التي تميزبها هي مفتاح شخصيته، اذ كانت باعثه على نشر الفضل حيثما أصابه ، والاغضاء على النقائص لا يتصفَّحها على أهلها ، ولجم اللسان عن الخوض في غير ما يرضي الوجدان ، ثم الاستكثار من الصنائع والعوارف يستقلُّها على وفرتها، واستنكار الظلم في شتى أزيائه وبخاصَّة ظلم الاستعمار في الأمـم والأقوام ، الى غير ذلك من المآتي التي تتدبرها فتجد مرجعها شعور الكرامة وكرامة الشعور . وهل ثمة دليل أكبر دليل على صلابته في مبدئه تتزايل الجبال ولا يتزلزل ، وتتحوَّل الأرض عن مدارها ولا يتحوَّل ، من أنه نزح عن موطنه في فلسطين الى دمشق ، نافضاً يده من أملاكه ، لا لشيء غير إبائـه عيش الذلة والهوان واستنكار سياسة

الجور والطغيان ؛ ثم جهاده في صحيفته «ألف باء» يرسل منها الحمم عاصفة قاصفة على الصهيونية ومن والاها ، لا يردّه عن جهاده وعد أو وعيد ، أو تستخفّه المغريات بأسبابها المتنوعة ؟..

وكان الى جانب هذا السموّ في كرامة النفس مجدّاً في عمله دؤوباً على تنميته وترقيته ، ميالاً الى الأنس والمرح ، متواضعاً يجالس حتى من دونه يحادثهم ويحادثونه ، عصبيّ المزاج يثور ثورة الأمواج أو ثورة البركان ثم اذا هو الى هدوء واطمئنان كأن لم يك شيء مما كان ؛ عزوفاً عما يشين الرجولة ، ويهين العفة ، وما يرهّق في الايمان أو يتّهم في الدين .

ولست أذكر بين الصحف اليومية التي مرّت تحت نظري صحيفة كانت تحفل بالأخلاق وبحوثها ، وتحمل ما تستولده الأفكار في شأنها ، وتنوّع المحصول من ثمارها ، مثل صحيفة « ألف باء » التي جعل شعارها عند عنوانها « البحث في السياسة والاخلاق » مما وكّد استسناءه للحياة الخلقية وقدرها بحق قدرها في حياة الأمم وأقدارها .

كانت مقالاته التي يصدّر بها صحيفته تترى على المطبعة مرقومة بقلم الرصاص على ورق متوسط الحجم ، واضحة مقروءة ، لاعَهْدة في حروفها ولا لزازة بين سطورها ، ولكنها فيما تخالجها من رجفة واضطراب تنمّ عن ضعف الأعصاب عند صاحبها ، وهي لاتملأ فوق الرقعة أو الرقعتين حتى الثلاث ، لأن النَّفس فيها قصير ، والكلام على قدر من التقدير ، والمعاني شبيهة بالخطف في التصوير . ثم لأن كاتبها ممن يرون الايجاز مع حسن الدلالة خير الأساليب في فن المقالة .

ولقد أخبرني من كان يسفر بين المطبعة والأستاذ حاملاً عنه المقالات والمواد ،أنه كان اذا دخل عليه في داره وجده نصف مضطجع في سريره ، مرتفقاً احدى الحشيات ، معتمّ الرأس اتقاء قرس البرد ، أو استجماعاً لشوارد الفكر ، والقرطاس بين يديه يملؤه بما يتوارد عليه .

ومهما يتعارض الرأي في أستاذية مترجمنا فثمة الرأي الذي لا يختلف فيه اثنان ، ذلك بأنه خلق للصحافة ، والصحافة خلقت له ، كأن أحدهما طلبة الآخر ، وقد وثّق بينهما القدر بما لا حيلة معهالى فكاك أو مفرّ . فما عرفت لجريدته مثيلاً في سورية وما جاورها من حيث جدّة المظهر ، والصحة مع السرعة في نقل الخبر ، ورصانة التحرير والبعد عن الممالأة والتغرير ، ثم الفوز برضى القراء على سواء على اختلاف المنازع والأهـواء .

وما خلا العيسى من ناقدين بين حاسد أو حـاقد ، فهو عندهم سخيف في أكثر آرائـه ، سطحيّ في أحكامه ، متّهم في قوميته ووطنيته ، فضلاً عن الضعف في لغته ؛ يصدر عن أقوال هي فـي التعثر والتخبط لا تستقال ، ويوقّع من ألحان المديح في يومه مـا يتحوّل به الى ويل ومناحة في غده ، وما هو على العكس في دابر الأمس، ويرسل القول هجيناً سوقياً ، كما أنه يرقم الأعدادبتراكيبها كأنما هي من وضع تاجر محاسب ، لا أديب كاتب . وربما تجهلواعليه أيضاً فساقوا عنه من الأمثال ما يصوّره انكليزياً أو فرنسياً فـي هواه ، أو مصانعاً مداجياً لزيد أوعمرو يخطب ودّهورضاه ويستدرّ نداه . بيد أنهم على ذلك كله تجدهم لا يتمارون عن بكرة أبيهم فـي شهرته واعجاب القراء به وبصحيفته ، ثم الاقبال الشديد علىكتابته، وبخاصة « مباءات النحل »التي كان فيها نسيج وحده وقريع دهره، حاول أن يأتي بمثلها الكثيرون فجاءت مثالاً أكبر مثال علـى عجزهم واعجـازه .

أما طريقة مترجمنا في الكتابة فهي الطريقة « التقليدية » يشرع بالاستهلال ليعقب بالموضوع ، ثم يختتم بالخلاصة أو النتيجة . ولك أن تستعيد أي مقال جرى به قلمه ، ثم تعرضه علـى هذه الطريقة فتتحقق أنه يستنّ صراطها ولا يحيد عن خطّتها . وتتجلّى قدرتـه أظهر ما تتجلّى في براعة الاستهلال حيث يسوق فيه مثلاًمن الأمثال، أو حكاية من الحكايات ، أو حكمة أو قاعدة مما يغري بالمطالعة ويطمع

بالمتابعة . زد على ما تقدَّم أنه أحد أفراد في قوة الاستشهاد ، فما لرأي طارىء أو حادث ناجم أو حديث شائع الا ّ وله كفاؤه شاهداً وشواهد من مخزون علمه ومأثور مطالعاته في الأدب والتاريخ ، وربما عمد الى تدعيم رأيه بآي من التنزيل الحكيم أو حديث من جوامع الكلم . وانه بمثل هذه الخصائص من فنه قد فاز برضى الخاصة والعامة ، والأخصام وغير الأخصام على سواء ، بل كثيراً ما تعاظم هذا الرضى ليكون اعظام اكبار واعجاب .

عرفت الأستاذ العيسى معرفة فضل ولم يعرفني هو بشيء من الفضل : عرفته جهبذاً في فن الصحافة ولم يعرفني الا عاملاً مغموراً وخيالاً من النحافة ناحلاً ؛ وعرفته ضليعاً مقرناً في المعرفة والثقافة ولم يعرفني الا أبعد الناس عنهما . وعلى أنني اتصلت به عن قرب وحفظت له خالص الودّ والحب ، اذ كنت أعمل في جريدته أول عهدها وأحمل اليه الرواميز يصححها ، فما كان يتصل بي نظره الا عابراً نادراً ، ينزلق انزلاقاً ولا يأخذني الا عرضاً واتفاقاً .

ولبثت على هذه الحال زمناً الى أن بعثت اليه ذات يوم بمقال في موضوع اعتصاب بعض العمال ، فنشرهُ للحال ، وجعلهُ في الصفحة الاولى ، ولا تسل عما داخلني من الزهو والادلال اثر نشر المقال حتى لقد أطمعني ذلك بالمزيد ، فأعقبتُ بمقال جديد ، ولكنه لم يحظ بالنشر ، وقضي عليه بالقبر ، فلما أن كررتُ وألحفت ، وضاق بي ذرعاً ، أرسل اليّ يثنيني عن الكتابة ، وينصح لي بقصر همتي على مهنتي ، فحزنت أشدّ الحزن ، وتورّدني من الهمّ ما لا يعلم مبلغه الا الله .

بيد أنني لم يُسقط في يدي اذ رحت أقلّب وجوه الرأي فيما أنا فيه ظهراً لبطن ، وأخلع عني شعار اليأس بقوة من ارادة البأس ، ثم نظرت في العقبات دوني مما لا بدّ من تخطيه والغلبة عليه ، ذاكراً من عرفتهم من الناجحين كيف كان ينزل بهم في مطلع حياتهم ما يردهم عن غاياتهم ، ثم اذا هم من بعد يفلجون بقوة الثبات ، ويفلحون بالمصابرة والأنـاة ، وينتهي ليل جدّهم القاسي الطويل الى فجر مشرق الطلعة

يشف عن اسعاف الدهر بالمراد وتحقيق الأماني والآمال . وما زلت في شأني هذا متدبراً الى أن وافتني الحيلة فدبرت امراً .

ذلك بأني لبثت عاماً بأهلته الاثني عشر لا يشغلني غير المراجعة والمطالعة في الأدبين العربي والفرنسي ، وفي دمي مثل اللهب حوافز كلما فترت العزيمة أو مسني طائف من السآمة ، واذا ما استبهمت عليّ فكرة قصدت بها الى أهل الرأي يجلونها نيرة ، واذا ما تلذعني ما لامناص منه من سخرية من حولي داويته بما لا بدّ منه من مثل سخريتهم تنهض لهم بما يفلج على حماقتهم أو محسدتهم . ثم اذا أنا من بعد أستشعر من نفسي قوة جديدة تدفعني للكتابة لا عهد لي بمثلها ، وقد بلغت بي هذه القوة أقصاها إثر مطالعاتي للمرحوم المنفلوطي ، وهو الذي تعبّدني بأسلوبه من أدبه حتى استظهرت أكثره ، فجرى على قلمي جري السليقة والطبيعة .

وماأهنأني يوم شمّرت عن همتي وأنشأت أولى رسائلي شذرات في مثل الومضات والقبسات ، لا تتجاوز احداهن الأسطر المعدودة أستخلص معانيها من الحياة اليومية مما يقع عليه نظري أو يدور في فكري ، وقد اخترت لها عنوان « عبر وفكر » وتوقيع «ابن زيدون» . ثم تحيّلت فخططتها على ما لا يشعر معها المطالع الا أنها من اخراج المطابع ؛ ثم أرفقتها بكتاب نظمته على أنني أستاذ الأدب العربي في أحد المعاهد ، متعمّم ، متديّن ، نيّفت على الستين عمراً . ولم أنس الوصاة بالتصحيح دقيقاً ، والعناية بالاخراج مشرقاً ، والحرص على التوجيه نظيماً نسيقاً ، واعداً بالكتابة كل أسبوع ، خاتماً بتوقيع ما انزل الله به من سلطان لأني جمعته من اسمين علَمين لا مسمّى لهما .

ويا للعجب الذي لا ينقضي منه العجب ، فما هو الا اليوم يغرب بشمسه ويتلوه الصباح بضحاه حتى تصدر « ألف باء » وفي صدرها ما خربشت ومجمجت ، وتحت عنوانها جملة « للأستاذ الكبير صاحب التوقيع » .

ووقفت مما بين يديّ جامداً كالصنم أو كمن هو في حلم ، لا

تصدق العين هذا الذي تراه ، ويبلغ بي العجب اقصاه ، اذ قارنت بين الأمس واليوم ، أردّ مرذولاً مخذولاً في الأول ، وتخلع عليّ في الثاني مطارف الاعجاب ؛ وكنت أعتب على دهري أنه لم يوافني على ما أريد ، ثم أراني بقليل من الجدّ والحيلة أتوافى واياه على الغاية المنشودة ، ويكاد يمرُ في مذاقي طعم الحياة كأنها العلقم والصاب بحدثانها وأهلها ، وما كان كذلك شأنها لولا أن المرار في أفواهنا نحن، نأخذها به ولا نتكلف أخذها بشهدها وعذوبتها .

وطفقت أكتب والعيسى ينشر ، والقراء يطالعون ، الى أن وقع ما لم يكن في الحسبان ، اذكنت أعالج الحياةالاجتماعية عندنا، فاستطرق بي الحديث الى مشكلة السفور والحجاب، فحملتعلى أنصارالسفور أشنّع آراءَهم ، وأفنّد أحكامهم ، وأسوق لهم من الأمثال والشواهد ما يمثّل لهم كفرهم بالأخلاق ويشهد عليهم بالضلة والتقليد الذي لا يجدي ولا يفيد غير التردّي في المساوىء يحسبونها خيراً ، والهويّ في الشقوات يرونها تقدماً وتمديناً . ثم قطعت الحكم في أن لا بدّ من التهيئة بالعلم والتربية القويمة قبل تأثر الغربيين في عنعناتهم بما يتعلق بالسفور وغير السفور مما يرونه حقاً عليهم للنساء .

وتصدّى للردّ علي أحد شبابنا العرب وكان يدرس في باريس، وقد أبى على رجولته الا أن يلحق بها تاء التأنيث ، فانتحل لتوقيعه اسم « بنت الكنديّ » . وكأنه لبُعد تفكيره وزكانة عبقريته وكشف بصيرته قد راعه تقدُم باريس وأمتها وحكومتها ، وعمرانها ونشاطها وسلطانها ،ثم تعلّل لهذا كلّه فلم يرَ له سبباً غير تبرُج المرأةالفرنسية وخروجها بجمالها وفتنتها الى الأسواق ، تفتن الانظار ، وتستثير الشهوات وتزاحم الرجل على لقمة عيشه ، فاتخذ من هذا الباطل الحق حقيقته الباطلة في أن لا قيام للشرق واهله ، وبخاصة العرب والمسلمين ، الا بنفض أيديهم من تقاليدهم ونبذ واجباتهم من دينهم ، واطلاق العنان للمراةتتعسَّف بحريتها، وتعنف في حقوقها، وتتجاوز حدود فطرتها الى ما لا يقف عند حدّ من طبيعة الفطرة البشرية ونواميس الطبيعة الأزلية .

وكان ان تعصّبت لي أقلام ، وتعصّبت لمناظري أقلام ، ودارت المعركة شعواء متلهّبة ، ما تكاد تخمد فيها جذوة حتى تعود اشدّ ضراماً منها فيما سبق ، وكل حزب فرح بما لديه ، يرى لنفسه النصر والغلبة ، ولا يدّخر وسعاً في حصب خصمه بكل تهمة ، والقراء بين ذلك يهلّلون ويكبرون هنا وهناك كما يفعل النظارة في معارك السباق ، و« ألف باء » تتخطفها الأيدي ولا تخطف رغيف الخبز في السنين العجاف حتى لقد تضاعف عدد طبعها وهو الى مزيد في كل يوم جديد .

ويتساءل الكثيرون من يكون « ابن زيدون » هذا ويكتبون الى الاستاذ العيسى يستنبئونه الخبر عن حقيقتي في هويتي ، فلا يجد ما يتفلّت به من ورطته غير أن يزعم بأن « سرّ المهنة » يقتضيه الكتمان وعدم البيان . الا أنه لم يلبث أن فوجىء بعد قليل بكتاب من أحد الأدباء يبين فيه عن نزاع وفرقة بين بعض الطلبة في كلية الحقوق حول شخصية «ابن زيدون» اذ انتحلها أحدهم وخالفه الآخرون ، مما أدّى بهم الى الخصام فالرهان ، فلا بدّ اذن من الجلاء ، وهو من حق القراء على « ألف باء » . فما كان من الاستاذ العيسى وقد تأزمت الحال ، وكثر القيل والقال والنزاع والجدال ، الا أن نشر الكتاب الذي انتهى اليه بقضه وقضيضه ، محوّلاً عليّ تسديد الجواب على طريقة « التحويل » التجاري ، ممّا جعلني في مأزق لا مناص منه ولا خلاص الا بالكشف عن ذاتيتي صريحة لا لبس فيها ، فأنشأت تحت عنوان « من أنا ؟ » نبذاً عن نشأتي وصناعتي وحياتي ، وختمته بكلمة «أنا . . .» مع توقيعي ، ثم أرسلته على عادتي الى مقرّه لنشره .

ويا لعظم ما تولّى الاستاذ العيسى من ذهول وظنون امام هذه المفاجأة التي لم تكن تتخطّر له على بال ولم يكن يقدّر مثلها في يوم من أيام حياته . لقد تحوّل خاطره الى مثالي في ذبولي عوداً ، وبساطتي ملبساً ، وصفاري صنعة ، وحقارتي فيما سبق أن كنت أوافيه به من كتابات يقذف بها لقىً في المهملات ؛ ثم قارن بين هذا كله وبين ما

صرت اليه من منبهة بين الكتاب وعند القراء ؛ فلاح له البون شاسعاً، وتخالجه بي من الظنَّة ما جعله يسرع في استقدامي اليه ليمطرني بسجال من الأسئلة الحائرة ، كما يُفعل بالمتهمين وقد اختلط أمرهم فما يبين فيه اليقين .

وكنت أقدِّر ما عساه يدور عليه الكلام ، وقد هيَّأت لكل سؤال جوابه ، ولكل معنى صوابه . فلمَّا اجتمعت اليه واجتمع له ما وقف به على جليَّة الأمر ، صاح وهو يبتسم ابتسامة مغبونة قائلاً : وكيف طوَّعت لك نفسك مثل هذه الحيلة عند مثلي ؟ .. قلت : لأنكم ، معاشر الصحفيين ، تنظرون الى من يقول ، لا الى ما يقال . فقلمي هو هو الآن وقبل عام ، ولكن استاذيتي في الجامعة ، وعمتي المنتفخة ، وأرداني المستفيضة ، ثم سني المتقدم ، وتوقيعي المستبهم ؛ كل ذلك جعلني في نظرتك الجديدة غيري في نظرتك اليَّ فيما مضى .

وصمتُ أنتظر ما سيصدر عنه من جواب ، فاذا هو لايرى ندحة عن الصدق فيقول : أي وربي لقد صدقت !.. ولكن الأسماء الطنَّانة لا تستخفنا الا لأنها تستخف القراء والرأي العام ، وانا لنعلم بأن أصحابها في داخلهم لا وزن لهم كوزنهم في ظواهرهم ، فنضطر اضطراراً الى ترجيحهم والزيادة في أرطالهم ، والاَّ فسد علينا العمل وباء أحدنا بالفشل . ان الصحافة في مثل بلدنا من أشقِّ المهن ، تقاسي الكثير من المحن ، لأن الاوهام والتقاليد والزلفى ما برحت هي السائدة الفاشية في شتى الطبقات ؛ ولا بدَّ للصحفي المخلص النزيه من أحد أمرين لا ثالث لهما ، وهما الانجراف مع التيار ، أو المساهلة بشيء من الحكمة ؛ وهو ما أخذت به على مضض .

ثم أمسك قليلاً كمن أصابته غصَّة واردف قائلاً : اثنان من الشباب أعجبتُ بهما على حداثة سنِّهما : هما « بدوي الجبل » في الشعر ، وأنت في النثر . الا ان جريدتي بعد اليوم مفتَّحة الابواب تستقبلك في تهليل وترحاب كواحدٍ من أسرتها الأقربين .

وكنت لا انقطع عن زيارته ، فيكرم مثواي ، وكثيراً ما عهد اليَّ

بعض الترجمات أو النظر في بعض المقالات . واذكر اني حملت اليه يوماً قصيدة من وحي أحد الأعياد ، فنظر فيها ملياً ، ثم قال : اشاعر أيضاً ؟ . . أما ان في قصيدك من المعاني ما لو نثر نثراً لجاء بدعــاً . قلتُ : وليكن ما أردت . ونثرت القصيدة في الحال ، وكأنها بمعانيها الحلوة من العيد قد انتقلت الى معانيه في وجهه حيث غمرته الفرحة واضحــة .

ورغب اليَّ في أن أستجمع «مباءاته» لأجعلها في كتاب، فوعدته، ولكنني لم أفِ بالوعد بسبب اندلاع نار الحرب العالمية الثانية ، ونهوض أسعار الورق، ثم انهماكي بمطابعي الجديدة. ولعل الحظ يواتي هاتيك « المباءات » فيكتب لها البعث من جديد ، فان فيها والله لمجتمعاً من الخصائص ، فيها النكتة البارعة ، والادب الرفيع ، والنقد المحكم ، والسخرية اللاسعة ، والتصويب الموفق .

وكنا في حديث عن الصحف والصحافة فسمعتُه يقول : « من رأيي أن الصحيفة الحية التي يتطاول بها العمر ، وتخلد على الدهر ، هي تلك التي يتهيأ لها ما ينجيها من الموت عند موت صاحبها » . وكأنه كان يفكّر بنفسه وبصحيفته ، فيستشف الغيب في احتجابها اِثــر احتجاب حياته .

رحمه الله وأحسن اليه . . لقد منح الصحافة خلاصة تفكيره ، وجعل لها منابر عامة من صحيفته ، وخرَّج جيلاً من الكتاب والادباء والمحرِّرين ، فأدّى خير الأداء دور المفكّر الناضج ، والكاتب البارع ، والصحفي الناجح .



فهرس

١ — في رحاب المطابع

٢ — مع اهل الفكر

الصفحة

للمؤلف

العبـــر

فن الحيـاة

الشيوعية في الميزان

صراع مع الحيـاة

فـن النجـاح

أناتول فرانس

بين الصناديق

في حدود الفكر — تحت الطبع

ربيب الرسول — « «

أضواء على الماسونية — « «